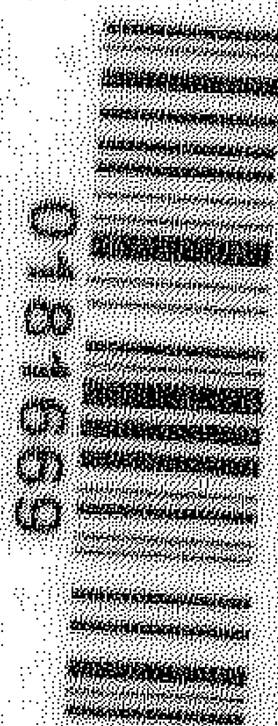
جـول فيـرن

مغامرات في جنوب افريقيا

ترجمة:

ريم جوزيف زحكا





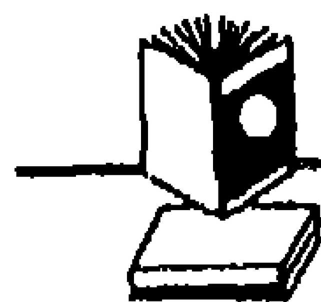
الإشراف الفني زهير الحمو

جول ڤيرن

مُغامَراتٌ
في جنوب افريقيا

رِوَايةٌ لِلْفتيَان

ترجمة
ريم جوزيف زحلكا



منشورات وزارة الثقافة
في الجمهورية العربية السورية
دمشق ١٩٩٩

العنوان الأصلي للكتاب:

Jules Verne

Aventures de trois Russes
et de trois Anglais
dans l'Afrique australe
Illustrations de J. Ferat

Gallimard

مغامرات في جنوب أفريقيا: رواية للفتيان = Aventures de trois russes et de trois anglais dans l'Afrique australe/ جون ڤيرن؛ ترجمة ريم جوزيف زحكا.- دمشق: وزارة الثقافة، ١٩٩٩. - ٣٤٤ص؛ ٢٤ سم.

١- ٨٤٣ ف ف ي ر م ٢- العنوان ٣- العنوان الموازي
٤- فيرن ٥- زحكا مكتبة الأسد

الايداع القانوني: ع- ١٨٩١ / ١١/ ١٩٩٩

على ضفاف نهر أورانج

في السابع والعشرين من كانون الثاني عام ١٨٥٤ ، تمدد رجلان تحت شجرة صفصاف عملاقة متدلية الأغصان، وأخذا يتحدثان وهما يراقبان بانتباه شديد مياه نهر أورانج يمكن لهذا النهر الذي يسميه الهولنديون بغروت رايغر Groote-river والهوتنتيون بغاريب Gariep أن ينافس الشرايين الثلاثة الكبرى لافريقيا : النيل والنيجر والزامبيز . إذ تحدث فيه كتلك الأنهار فيضانات وسيول وشلالات . لقد أطرى بعض المسافرين ممن أطلقت أسماؤهم على قسم من مجراه، وهم تومسون والكسندر وبروشيل أطروا على صفاء مياهه وجمال ضفافه .

يشكل نهر أورانج في هذه البقعة وهو يقترب من جبال دوق يورك duc d'York مشهداً رائعاً . صخور يعجز الإنسان عن عبورها، كتل هائلة من الحجارة وجذوع أشجار تمعدنت بفعل الزمن، مغاور عميقة وغابات عذراء لم تشوهها بعد فأس المستوطنين . كل هذا المجموع الذي تحوطه من الخلف جبال غاريبان ,Gariepins ، كان يشكل موقعاً لا مثيل لروعته . هناك، تندفع مياه النهر المحجوزة في مجرى ضيق حتى كادت أن تفيض بغتة من جانبيه من ارتفاع أربعمئة قدم . يكون الحال في عالية النهر مجرد فوران بسيط لطبقات المياه، تفرقها هنا وهناك رؤوس بعض الصخور المتوجة بأغصان خضراء . أما في سافلة النهر، فلايلتقط النظر سوى زوبعة مظلمة لمياه صاخبة تتوجها غيمة كثيفة من أبخرة رطبة مخططة بألوان الطيف السبعة . وترتفع من هذه الهوة قرقعة مذهلة تزيدها أصدآء الوادي بأشكال مختلفة .

هذان الرجلان اللذان ما من شك أن مصادفات الإستكشاف قد قادتهما إلى هذا القسم من جنوب إفريقيا، واحدهما كان يولي اهتماماً عابراً بالمناظر الخلابة التي تُعَرض أمام ناظريه. هذا المسافر الحيادي كان صياداً من البشمان نموذج جميل عن هذا العرق الشجاع بعيون تفيض حيوية وحركات سريعة، والذي تنقضي حياته في التنقل بين الغابات. تعني كلمة بشمان -كلمة إنكليزية مشتقة عن الهولندية - حرفياً «رجل الأدغال». إنّه يهتم بالقبائل الرحالة التي تجوب البلاد في الشمال الغربي من مستعمرة الكاب. لم تكن أيّة عائلة بشمانيه حضرية. إنّهم يمضون حياتهم هائمين على وجوههم في هذه المنطقة الواقعة بين نهر أورانج وجبال الشرق، ينهبون المزارع ويدمرون محاصيل أولئك المستوطنين المتصلفين الذين دفعوا بهم نحو الأصقاع المجدبة للداخل حيث الحجارة أكثر من الأشجار.

يناهز عمر البشماني حوالي الأربعين عاماً. وهو رجل طويل القامة ويتمتع، بداهة، بقوة عضلية كبيرة. حتى في فترات الراحة يبدو جسده مفعماً بالنشاط. كان الوضوح والراحة والحرية في حركاته تكشف عن رجل ذي همة عالية، نموذج لشخصية مماثلة لبادوكوير Bas-de-Cuir الشهير بطل البراري الكندية، لكنّه قد يكون أقل هدوءاً من الصياد المفضل عند كوبر(*) Cooper. نستشف ذلك من التلون الخاطف لمحياه، تحييه تسارع ضربات قلبه.

لم يكن البشماني متوحشاً مثل أمثاله من الساكاسيين Saquas القدماء، فهو من أب إنكليزي وأم هتنتوتية ونتيجة لمخالطة هذا الهجين للغرباء، كسب أكثر مما خسر. وكان يتحدث لغة والده بطلاقة. يتألف

(*) -م. (روائي أمريكي).

لباسه نصف الأوروبي ونصف الهوتنتوتي، من قميص أحمر من الفلانيلا وقبعة وسروال من جلد ظبي، وواقيات ساق صنعت من جلد قطة برية. وعلّق على رقبة هذا الصياد كيس صغير يحوي سكيناً وغليوناً وتبغاً. وكانت قلنسوة من جلد خروف تغطي رأسه، وحزام مصنوع من سير سميك بري يشد قامته. وكانت حلقات من العاج صنعت بمهارة فائقة تحوط زنديه العاريين. كما كان يخفق على كتفيه كروس Kross وهو معطف مثنى صنُع من جلد نمر ينزل حتى ركبتيه. وكان ينام على مقربة منه كلب من عرق إفريقي. كان ذاك البشماني يدخن بزفرات متلاحقة غليونه المصنوع من العظم، ويرسم على محياه علامات تنبيء بنفاذ صبره.

- هيا، هدىء من روعك ياموكوم، قال له محدثه. لا بد أنك أكثر الرجال في العالم نفاذاً للصبر عندما لا تصطاد. لكن اعلم يا صديقي العزيز أنّه لا يمكننا في حال من الأحوال تغيير ما نحن عليه. أولئك الذين ننتظرهم سيأتون عاجلاً أم أجلاً. وهذا سيكون غداً إن لم يكن اليوم.

كان مرافق البشماني شاباً في الخامسة والعشرين أو السادسة والعشرين من عمره، يتباين تماماً عن الصياد. فطباعه الهادئة تظهر جلية في حركاته كلها. أما بالنسبة لأصله لا يمكن لأحد أن يخطئه. إنّه إنكليزي الجنسية. وكانت بزته الباذخة تدل على عدم إلفته لهذه التنقلات. إنّ له هئية موظف تائه في إحدى الأصقاع البرية. وعن غير قصد ينظر المرء إليه ليرى هل كان يحمل قلماً فوق أذنه مثل الموظفين التجاريين وأمناء الصناديق والمحاسبين وأنماط أخرى تنتمي إلى أسرة البيرقراطية الكبيرة.

لم يكن في واقع الأمر هذا الرجل مسافراً عادياً، بل عالماً مشهوراً يدعى وليام إميري. إنه فلكي ملحق بمرصد الكاب الذي يعد مؤسسة نافعة تقدم منذ زمن طويل خدمات جليلة للعلم.

هذا العالم الذي على ما يبدو يشعر قليلاً بالغربة، وسط هذه المنطقة النائية من جنوب أفريقيا، على بُعد مئات الآلاف من العاصمة كاب تاون، لم يكن يتوصل إلا بشق الأنفس إلى احتواء نفاذ صبر زميله الطبيعي.

– سيد إميري – أجابه الصياد بإنكليزية متقنة. ها قد مرت ثمانية أيام على موعد نهر أورانج عند شلالات مورغيدا ومعلوم لديك أنّ الأمور لم تجر هكذا منذ زمن طويل لفرد من عائلتنا، أن يبقى ثمانية أيام في المكان نفسه! أنت تنسى أننا قوم رحالة، تلسعنا أقدامنا إن لبثنا في مكاننا على هذا النحو.

– صديقي موكوم رد عليه الفلكي. أولئك الذين ننتظرهم قادمون من إنكلترا. يمكن لنا بطيب خاطر أن نمنحهم فرصة ثمانية أيام. يجب أن نأخذ بالحسبان أطوال الرحلة البحرية والتأخير الذي يمكن أن يسببه السير نحو عالية النهر لسفينتهم البحرية. باختصار، المصاعب الجمّة الملازمة لمثل هذه المهمة. لقد طلبوا منا أن نُعد ما يلزم لرحلة استكشاف في جنوب أفريقيا، وبعد ذلك أن ننتظر عند شلالات مورغيدا زميلي الكولونيل إفريست من مرصد كامبردج. هذه هي الشلالات، نحن ننتظر في المكان المقصود. ماذا تريد أكثر من ذلك يا صديقي البشماني المحترم؟

كان الصياد يرغب في المزيد دون أدنى شك. إذ تقبض يده بتهيج على حاشده بندقيته الطويلة. إنهّا من نوع مانتون الممتاز والذي يعد سلاحاً دقيقاً ذا طلاقات مخروطية، تسمح باقتناص قطة برية أو ظبي من مسافة

ثمانمئة إلى تسعمئة ياردة. وندرك أنّ البشماني قد تخلى عن جعبة الصبْر والأسهم المسمومة التي كان أنداده يحملونها ليستعمل الأسلحة الأوروبية.

– لكنك لم تخطىء سيد إميري؟ أجابه موكوم. هل ضربوا لك الموعد عند شلالات مورغيدا في نهاية هذا الشهر كانون الثاني؟

– أجل يا صديقي. أجابة بهدوء وليام إميري. وهذه هي رسالة السيد إمبري مدير مرصد غرين ويش Greenwich التي تثبت لك أنني لم أخطىء.

أمسك البشماني بالرسالة التي قدمها له زميله. أدارها بين يديه ثم أدارها مجدداً مثل رجل قليل الاعتياد على أسرار الخط، ثم أعادها إلى وليام إميري قائلاً له:

– كرر على مسامعي إذن ما هو مكتوب على هذه القطعة الورقية السوداء.

فأعاد العالم الشاب الذي يتمتع بصبر وطول أناة في كل ظرف يمر به، سرداً قد قام به نحو عشرين مرة لصديقه الصياد. في الأيام الأخيرة من السنة الماضية، تلقى وليام إمبري رسالة يخطرونه فيها عن الوصول القريب للكولونيل إفريست مع بعثة علمية عالمية وجهتها جنوب إفريقيا. ما هي مشاريع هذه البعثة، لماذا تنتقل إلى أقصى القارة الإفريقية؟ لم يكن إميري ليستطيع الإجابة عن ذلك. إذ لا توضح الرسالة أية تفصيلات حول هذا الموضوع. أما هو فقد استعجل تلبية للتعليمات التي تلقاها، وهيأ في لاتاكو، وهي واحدة من المحطات التي تقع في أقصى الشمال من الهوتنتون، عربات وطعام. باختصار كل ما هو ضروري لتموين قافلة

بشمانية. ولمعرفته شهرة الصياد الوطني موكوم، الذي قام بمرافقة أندرسون في رحلات صيده في إفريقيا الغربية، والذي رافق كذلك الأمر الشجاع داڤيد ليڤينغستون أثناء رحلته الإستكشافية لبحيرة نغامي وشلالات الزامبيز طلب منه رئاسة هذه القافلة.

وتم الإتفاق بعد هذه الترتيبات أن يقود البشماني الذي كان على معرفة تامة بالمنطقة، وليام إميري إلى ضفاف نهر أورانج عند شلالات مورغيدا. أي إلى المكان المشار إليه حيث ستوافيه إلى هناك البعثة العلمية. ينبغي على هذه الأخيرة الإبحار على متن الحرّاقة(*) أوغستا من البحيرة البريطانية، والوصول إلى مصب نهر أورانج على الضفة الغربية لافريقيا، على ارتفاع رأس فولباس، ومن ثم ارتقاء مجرى النهر حتى الشلالات. بينما قَدِم وليام إميري وموكوم بعربة تركاها في أسفل الوادي، مهمتها نقل المسافرين وأمتعتهم إلى لاتاكو إذا لم يكونوا راغبين في الذهاب إلى هناك عبر نهر أورانج وروافده، متجنبين ببضعة أميال من النقل البري شلالات مورغيدا.

بانتهاء هذا السرد الذي ثَبُت في هذه المرة في ذاكرة البشماني، تقدم هذا الأخير إلى ضفاف الهوة التي يتسارع إلى أعماقها بحلحلة النهر المزبد. تبعه الفلكي. من هناك يسمح رأس بارز بمراقبة مجرى نهر أورانج من عالية الشلال حتى مسافة عدة أميال.

مرت عدة دقائق وموكوم ورفيقه يراقبان بانتباه سطح هذه المياه التي كانت تستعيد هدوءها الأول بعد ربع ميل أسفل منهما. لم يكن أيّ زورق

(*) - م. (سفينة عسكرية بحرية تحوي ثلاثة صوار).

أو جذعيه(*) يعكران صفحة المياه. الساعة الآن الثالثة. إنّ شهر كانون الثاني يوافق شهر تموز في الأصقاع الشمالية، وكانت الشمس العامودية تقريباً على المدار التاسع والعشرين تسخن الهواء في الظل حتى ١٥٠ فهرنهايت(*). . لولا نسيم الغرب الذي كان يلطف الجو قليلاً لعجز أيّ إنسان أخر ما عد البشماني عن احتمالها. مع ذلك لم يكابد العالم الشاب ذو المزاج الناشف، كله عظام وأعصاب، الكثير من هذه الحرارة.

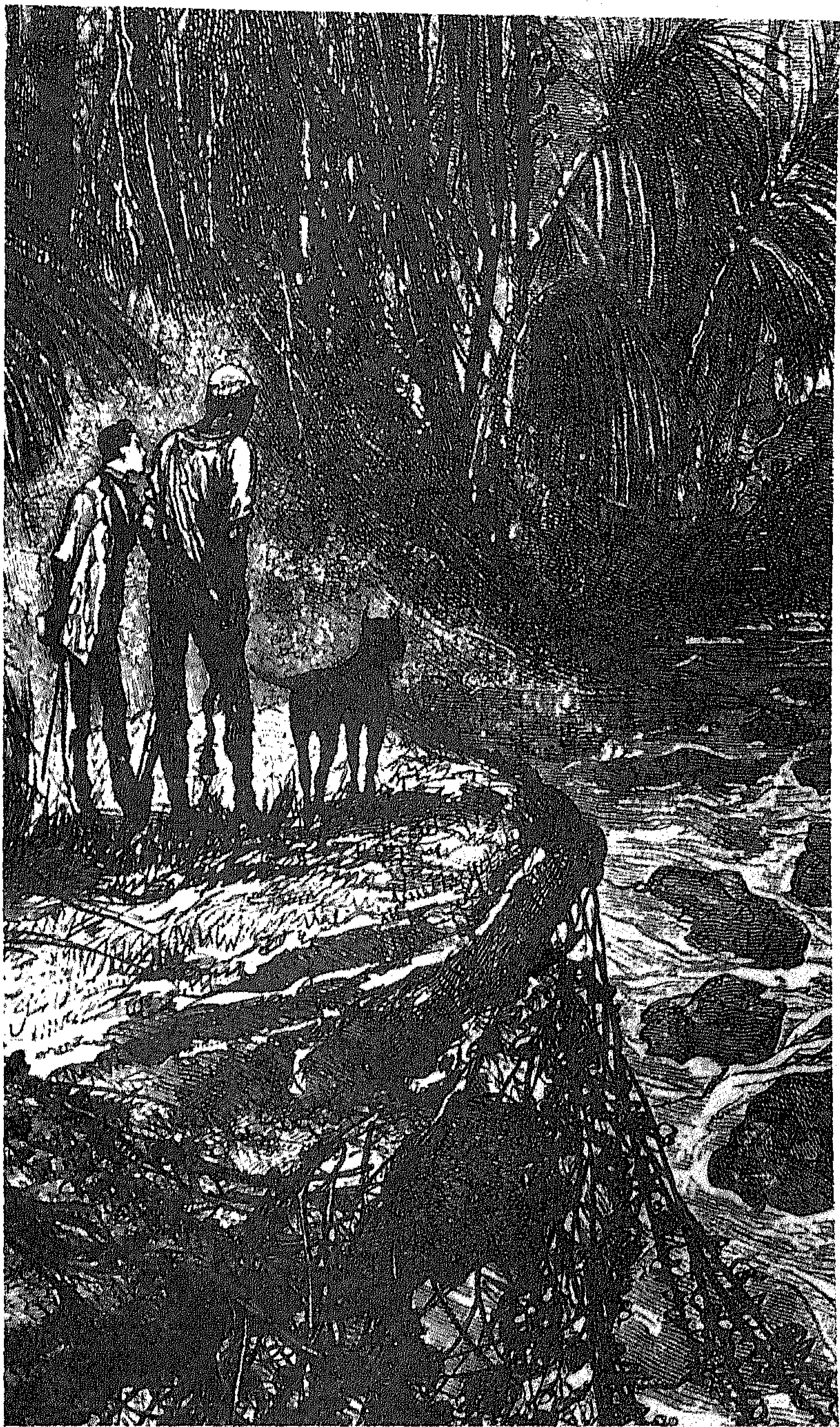
كانت أوراق الأشجار الكثيفة التي تتدلى فوق الهوة تقيه من وصول أشعة الشمس مباشرة إليه. لم يكن أيّ طائر ليقطع هذه العزلة في هذه الساعات الحارة من النهار، ولا تغادر أيّة دابّة طرواة ملجأ الأدغال وتخاطر بالسير وسط الفرجات. لا يسمع المرء أيّة نأمة في هذا المكان المقفر رغم أن الشلال كان يملأ الجو بأصوات هديره.

استدار موكوم بعد عشر دقائق من المراقبة نحو وليام إميري وهو يدق بنفاذ صبر الأرض بقدمه الضخمة. لم تكن عيناه ثاقبتا النظر قد اكتشفتا جديداً.

- وإذا لم يأت هؤلاء الرجال؟ سأل الفلكي.

- سيأتون أيّها الصياد الشجاع. أجاب وليام إميري. إنهم أناس يصدقون بوعودهم دقيقين مثل علماء الفلك. ومن جهة أخرى لماذا تلومهم أنت؟ تعلن الرسالة عن وصولهم في نهاية شهر كانون الثاني، ونحن لا

(*) - م. (زورق يصنع بتجويف جذع شجرة).
(*) - م. (ما يعادل ٥٥,١ درجة مئوية).



نزال في اليوم السابع والعشرين منه. لا يزال أمام أولئك السادة فرصة أربعة أيام حتى يبلغوا شلالات مورغيدا.

- وإذا انقضت هذه الأيام الأربعة ولم يظهروا؟ سأله البشماني.

- حسناً، سيدي الصياد. ستكون هذه فرصة مناسبة لنا أو أبداً لنمتحن صبرنا. إذ علينا انتظارهم حتى اللحظة التي أتيقن فيها تماماً عن عدم مجيئهم.

- آه! بحق الإله كو. صاح البشماني بصوت جهيد. ستكون رجلاً إذا انتظرت أن لا تندفع بعد الآن مياه نهر غاريب المدوية في هذه الهوة.

- كلا أيّها الصياد! كلا. أجابه وليام إميري بصوت لا يزال هادئاً. على العقل أن يُحكم تصرفاتنا. والعقل في هذه الحال يقول لنا: إذا لم يجدنا في المكان المنشود الكولونيل إفريست ورفاقه المتعبون من وعثاء السفر. والذين قد يفتقرون إلى ما هو ضروري في هذه البقعة النائية، ستقع الملامة علينا على كافة الأصعدة. وإذا حدث مكروه ما، ستقع تبعة ذلك علينا نحن. لذلك ينبغي علينا البقاء في مكاننا طالما يحتم الواجب ذلك. زد على ذلك أنه لا شيء ينقصنا هنا. عربتنا تنتظر في أسفل الوادي، وتقدم لنا مأوى أميناً في الليل. ثمة مؤونة وافرة والطبيعة خلابة في هذه البقعة وجديرة بالإعجاب! إنّها لسعادة من نوع جديد بالنسبة لي، أن أمضي عدة أيام في أحضان هذه الغابات الرائعة على ضفة هذا النهر الفريد! أما أنت ياموكوم، ما الذي ترغب به؟ إن فرائس الوبر والريش تكثر في هذه الغابات، وتوفر لنا بندقيتك على الدوام لحم الطرائد. اصطد أيّها الصياد

الشجاع! اقتل الوقت با صطياد الآيانل أو الثيران. هيا أيها البشماني الشجاع. سأترقب خلال هذا الوقت وصول المتأخرين. هكذا على الأقل لن تضرب قدماك جذوراً لها.

يتقن الصياد أنّ رأيّ الفلكي جدير أن يعمل به. فعزم على أن يجوب لبضعة ساعات الأدغال والحرجات في الجوار. لا يمكن للأسود والضباع أو الفهود أن تخيف صياداً شديد البأس مثله، اعتاد على الغابات الإفريقية. صفّر لكلبه توب الذي يعود أصله إلى صحراء كلاهاري والمنحدر من ذلك العرق الذي هجنه البالاباس فيما مضى ليصبح من كلاب الصيد. انتصب الحيوان الذكي قافزاً وقد بدا متلهفاً كما سيده، وأخذ ينبح معبراً بنباحه ذاك عن موافقته لمشاريع الصياد. وما هي إلا هنيهة حتى كان الصياد وكلبه قد اختفيا تحت غطاء الغابة حيث تطوق الشلال من الخلف الأشجار الكثيفة.

تمدد وليام إميري عند أقدام الصفصافة وقد لبث وحيداً. وبانتظار أن يغلبه النعاس بفعل الحرارة الخانقة أخذ يفكر بوضعه الراهن. إنّه هنا بعيداً عن المناطق المأهولة، على مقربة من مجرى هذا النهر الذي يعرفه بالكاد، ينتظر مواطنين أوروبيين غادروا وطنهم ليخاطروا بحياتهم في رحلة استكشاف بعيدة. لكن ما هو هدف هذا الإستكشاف؟ ما هي المشكلة العلمية التي ترغب في الوصول إلى حلها في صحارى جنوب إفريقيا؟ ما هو الرصد الذي سيقومون به على ارتفاع المدار الثلاثين للجنوب؟ هذا هو بالضبط ما لم تكشف عنه رسالة السيد المحترم إيري، مدير مرصد غرينويش. لقد طُلب منه، هو السيد إميري، المساهمة بصفته عالماً قد تأقلم على مناخ المناطق الجنوبية، ولأنّ الأمر يخص أعمال علمية عدتُ مساعدته خبرة لا غنى عنها لزملائه في المملكة المتحدة.

وبينما كان العالم الشاب يفكر بهذه الأمور جميعها، ويطرح على نفسه ألف سؤال وسؤال لا يمكنة الإجابة عن واحد منها، أثقل النعاس جفنيه واستغرق بالنوم. عندما استيقظ كانت الشمس قد اختبأت خلف التلال الغربية التي كانت ترسم منظراً جانبياً لها على الأفق الملتهب. أصدرت معدته أصواتاً فعرف أن ساعة العشاء قد أشرفت، كانت الساعة بالفعل تشير إلى السادسة مساء. حانت ساعة العودة إلى العربة المركونة في أسفل الوادي.

في هذه اللحظة تحديداً، دوى صوت في حرجة من أشجار الخلنج(*) يتراوح ارتفاعها من اثني عشر قدماً إلى خمسة عشر قدماً، وتنحدر إلى اليمين متتبعة انحدار الوديان. في الحال ظهر البشماني وكلبه توب عند طرف الغابة، كان موكوم يجر جثة حيوان اقتنصه بالبندقية.

– تعال أيها الممون. ناداه وليام إميري، ماذا جلبت لنا للعشاء؟

– قَوْقزُ يا سيد وليام. أجابه الصياد وهو يرمي أرضاً حيواناً تكورت قرونة على شكل قيثارة.

إنّه نوع من الظباء الذي يُعرف أكثر تحت اسم التيس القافز والذي نصادفه بكثرة في مناطق جنوب أفريقيا كلها. إنّه لحيوان ساحر ذاك التيس بلون ظهره القرفي وقد توارى ردفه تحت طبقات من الوبر الناعم الملمس. أبيض اللون ناصعه، وكان يكشف عن بطن على شكل عين بدرجات من اللون الكستنائي. خصص لحمه الرائع المذاق لوجبة المساء.

(*) – م. (جنس حبنبة أزهارها بنفسجية تعيش في الأرض الرملية).

حمل الصياد والفلكي الحيوان عرضياً بوساطة عصا ثبتاها على كتفيهما وغادرا مرتفعات الشلال. بعد نصف ساعة وصلا مخيهما الواقع في شعب داخل الوادي حيث كانت العربة تنتظرهما بحراسة سائقين من العِرق البشماني.

* * *

تعارف رسمي

خلال الفترة الواقعة بين ٢٨ و ٢٩ و ٣٠ كانون الثاني، لم يغادر موكوم ووليام إميري مكان اللقاء. وفيما كان البشماني تدفعه غرائز الصياد يلاحق بلا تفريق، الفرائس والحيوانات المتوحشة، في كامل المنطقة الحراجية التي تجاور الشلال، كان الفلكي الشاب يراقب مجرى النهر. إنّ مشهد تلك الطبيعة الوسيعة المتوحشة يفتنه ويملأ روحه بانفعالات جديدة. إنه كرجل حسابات وعالم ينكب بلا انقطاع على بياناته ليل نهار، مكبلاً إلى عدسات نظارته ليراقب مرور الكواكب عند الهاجرة(*)، أو ليحسب انخسافات(*) النجوم، يتمتع بوجوده هذا في الهواء الطلق، تحت ظلال الغابات التي يستطيع اختراقها بالكاد، والتي تحجب منحدر التلال، فوق هذه القمم القفراء التي يغطيها رذاذ المورغيدا بغبار رطب. هذه سعادة بالنسبة له أن يدرُك شعر هذه العزلة الواسعة التي يجهلها الإنسان نوعاً ما، وأن يُنشط بوساطتها ذهنه الذي أضنته العمليات الحسابية.

إنّه بذلك يسري عن نفسه ويستعيد قوة جسده وروحه. كان وضعه الجديد إذن يفسر صبره الثابت الذي لم يستطع البشماني أن يشاركه به. لذلك، كانت الاحتجاجات ذاتها دائماً من جهة الصياد، ومن جهة العالِم الأجوبة الهادئة نفسها التي لم تكن لتهدأ من ثائرة موكوم عصبي المزاج.

(*) - م. (خط منتصف النهار).

(*) - م. (غياب نجم وراء القمر).

أقبل يوم ٣١ كانون الثاني، اليوم المحدد في رسالة المحترم إيري. إذا لم يظهر العلماء المعلن عنهم في هذا اليوم، سيكون وليام إميري مضطراً لاتخاذ قرار، وهذا ما كان يسبب له ضيقاً شديداً. يمكن للتأخير أن يستمر إلى ما شاء الله، فكيف ينتظر كل هذه المدة؟

- سيد وليام، قال. له الصياد، لم لا نذهب لملاقاة الغرباء؟ يمكن أن نصادفهم على الطريق، ثمة طريق واحدة هي طريق النهر. فإذا ما ارتقوا مجرى النهر كما تقول قصاصة الورق، فسوف نصادفهم لا محالة.

- هذه فكرة رائعة ياموكوم. أجاب الفلكي. لنستطلع عالية النهر. لا مساوىء لهذه الفكرة سوى عودتنا إلى المخيم عن طريق الوديان الجنوبية. إنما قل لي أيها البشماني الكريم، هل تعرف القسم الأكبر من مجرى نهر أورانج؟

- أجل يا سيدي. أجاب الصياد. لقد ارتقيته مرتين من رأس فولباس حتى التقائه مع نهر هارت على حدود جمهورية ترانسفال.

- ويمكن الإبحار في كامل أقسام مجراه إلا عند شلالات مورغيدا؟

- هو كذلك يا سيدي. لكني أضيف لمعلوماتك أنّ نهر أورانج عند نهاية فصل الصيف يكون جافاً تقريباً حتى مسافة خمسة أو ستة أميال من مصبه. فيتشكل على هذا النحو جرف رملي تتكسر عليه بعنف أمواج الغرب.

- هذا لا يهم، رد عليه الفلكي. لأنّه خلال الفترة التي يتوجب أن يرسو فيها أصدقاؤنا الأوروبيون يكون المصب سالكاً. إذن لا سبب يبرر تأخرهم وبالتالي سيأتون.

لم يجب البشماني. ثبت غدارته على كتفه، صفر لتوب ثم سبق رفيقه إلى الممر الضيق الذي يلاقي بعد أربعمئة قدم المياه السفلى للشلال.

كانت الساعة وقتها التاسعة صباحاً. هبط المستكشفان - كما يفترض تسميتها. مجرى النهر متتبعين ضفته اليسرى. لا يمكن للطريق أن تُوفر ردماً مسطحاً وسهلاً أو أن تكون مسحَبا(*) للسفن. كانت ضفاف النهر وقد غزتها الأدغال تختفي تحت عريشة من نباتات مختلفة. وتتصالب من شجرة إلى أخرى حبال من الأزهار الخيطية الشكل قدنوه عنها بروشيل وتمد شبكة من الخضرة أمام أقدام المسافرين. بذا لم تبق سكين البشماني بلا عمل. إنّه يقطع بلا شفقة تلك الأكاليل من الأزهار المعرقلة للسير. أما وليام إميري فكان يتنفس ملء رئيته أريج الغابة النفاذ العابق بخاصة بروائح الكافور، التي كانت تنشرها أعداد لا تحصى من زهور الديوسمي dio-smées. لحسن الحظ، سمحت للصياد ومرافقه بضع فرجات، عبارة عن مواضع في جروف جرداء تجري بهدوء بمحاذاتها مياه كثيرة السمك أن يصلا بسرعة أكبر إلى الغرب. فقطعا حوالي أربعة أميال حتى الساعة الحادية عشرة صباحاً. أثناء ذلك كان النسيم يهب من الغرب ويتوجه نحو الشلال الذي لم يكن هديره ليُسمع من تلك المسافة. على العكس كان المرء يميز بوضوح الضجيج المنبعث عند عالية النهر.

كان وليام إميري والصياد وقد توقفا عند هذه البقعة، يلمحان مجرى النهر الممتد كخط مستقيم لمسافة ميلين أو ثلاثة. كان على هذا النحو شاطىء صخري طباشيري يصل ارتفاعه إلى مئتي قدم يحصر بهيمنة مجرى النهر من جانبيه.

(*) - م. (طريق محاذ لنهر أو لبحر تُسحب السفن بموازاته).

- لننتظر في هذا المكان ونأخذ قسطاً من الراحة، قال الفلكي. ليست لي ساقا صياد مثلك يا سيد موكوم. فأنا عادة ما أتنزه في القبة السماوية ذات النجوم أكثر مما أفعل على الطرقات الأرضية. فَلْنَسترح إذن. نستطيع من هذه النقطة أن نراقب مسافة ميلين أو ثلاثة وإذا ما ظهرت السفنية البخارية على الأقل عند المنعطف الأخير، سيكون بمقدورنا رؤيتها.

استند الفلكي الشاب إلى جذع نبتة فريبون عملاقة يصل ارتفاع ذروتها إلى أربعين قدماً. ومن هناك مدّ بصره نحو البعيد فوق النهر. أما الصياد قليل الإعتياد على الجلوس استمر يتنزه على الجرف بينما كان توب يطارد مجموعات من الطيور البرية التي لم تثر أيّ اهتمام في نفس صاحبه.

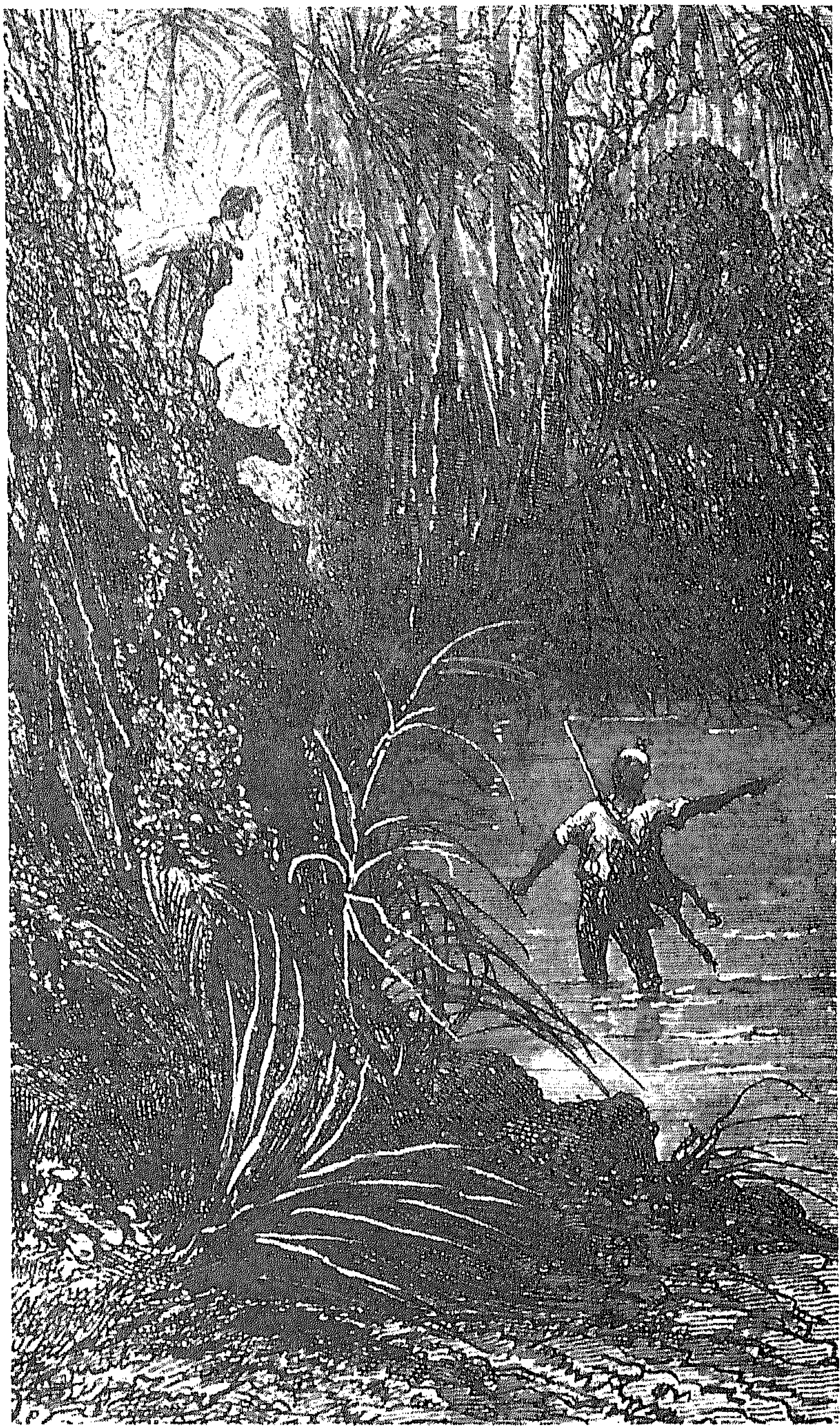
بعد مرور نصف ساعة على وصول البشماني ورفيقه إلى هذه البقعة، لاحظ وليام إميري أن موكوم الذي يكمن على مسافة مائة قدم تقريباً أسفل منه، تبدو عليه علامات اهتمام غير عاري. هل لمح البشماني الزورق المنتظر بفارغ الصبر؟

غادر الفلكي مقعده الطحلبي واتجه نحو المنطقة من الجرف التي يشغلها الصياد. خلال عدة لحظات بلغ المكان المقصود.

- هل ترى شيئاً يا موكوم؟ سأل البشماني.

- كلا لا أرى شيئاً. لا شيء البتة يا سيد وليام. رد عليه الصياد. لكن إذا كان ضجيج الطبيعة لا يزال مألوفاً لأذني، فإنّ دويّاً غير اعتيادي يحدث عند المجرى السفلي للنهر!

ثم وضع أذنه على الأرض بعد أن أوصاه بالتزام الصمت، وأخذ يصيخ السمع باهتمام كبير.



وقف الصياد بعد عدة دقائق هازاً رأسه وقال :

- لقد أخطأت . لم يكن الصوت الذي ظننت أنني أسمعه إلاّ صفير النسيم الذي يلعب بالأوراق ، أو هو همس المياه على أحجار الضفة . لكن مع ذلك ...

استرق الصياد السمع كرة أخرى غير أنه لم يسمع جيداً .

- موكوم! قال عند ذاك وليام إميري ، إذا كان الصوت الذي تتحدث عنه يحدث بفعل مكنة الزورق البخاري فسوف تسمعه بوضوح أكبر إذا ما نزلت إلى مستوى النهر الماء ينقل الأصوات بوضوح وبسرعة أكثر من الهواء .

- معك حق يا سيد وليام . رد الصياد . لقد باغتُ أكثر من مرة فرس النهر وهو يمر عبر المياه بهذه الطريقة .

هبط البشماني الجرف العامودي جداً ، متشبثاً بالعرائش وطاقات الأعشاب . وعندما أضحى عند مستوى النهر ، ولج فيه حتى ركبتيه وانحنى واضعاً أذنه على صفحة المياه .

- أجل . صاح قائلاً بعد عدة دقائق من الإصغاء . أجل لم أخطىء التقدير . ثمة ضوضاء على بعد عدة أميال إلى الأسفل ، يحدثها اصطفاق عنيف للمياه . إنّه هدير أمواج رتيب ومستمر داخل المجرى .

- هل هو ضجج مروحة؟ سأله الفلكي .

- يحتمل ذلك يا سيد إميري . أولئك الذين ننتظرهم لم يعودوا ببعيدين .

لم يشك وليام إميري لحظة واحدة في مزاعم زميله، لعلمه رهافه حواس الصياد التي حبته إياها الطبيعة سواء النظر أو السمع أو الشم. صعد ذلك الأخير الجرف وخَلُص الاثنان معاً إلى الإنتظار في هذه البقعة حيث يمكنهما بسهولة مراقبة مجرى نهر أورانج.

مرت نصف ساعة شعر وليام إميري رغم هدوئه المعتاد أنّها لا تنتهي. كم من مرة ظن أنّه يشاهد الجانب الغامض لزورق ينزلق على صفحة المياه. بيد أنّ نظره كان يخدعه على طول الخط. أخيراً أحدثت صيحة البشماني خفقاناً في قلبه.

- دخان! انبرى موكوم صائحاً.

لمح وليام إميري بمشقة وهو ينظر في الاتجاه الذي أشار إليه الصياد، دخاناً خفيفاً متموجاً يتصاعد عند منعطف النهر. لا يمكن أن يراودهما الشك بعد الآن.

كان الزورق يتقدم مسرعاً. استطاع وليام إميري بعد حين أن يميز مدخنته التي كانت تتقيأ سيلاً من الدخان الأسود ممزوجاً بأبخرة بيضاء. لا بدّ أنّ الطاقم كان يؤجج النار حتى يزيد من السرعة ويبلغ مكان اللقاء في اليوم المحدد. إنّه لا يزال على بعد سبعة أميال تقريباً من شلالات مورغيدا.

أضحى الوقت منتصف النهار. لم يكن المكان مناسباً للرسو، لذا قرر الفلكي العودة إلى أسفل الشلال. نقل فكرته إلى الصياد الذي بادر بالعودة من الطريق التي قطعاها قبل قليل على الضفة اليسرى للنهر. تبع وليام إميري رفيقه، وعندما استدار للمرة الأخيرة عند عقفة في النهر، لمح الراية البريطانية تخفق في مؤخرة الزورق.

تمت العودة إلى الشلال بسرعة كبيرة. وبعد انقضاء ساعة من الزمن توقف البشماني والفلكي على بعد ربع ميل من سافلة النهر. هناك كانت الضفة التي نحتتها الطبيعة على شكل نصف دائرة، تشكل عروة صغيرة يستطيع الزورق البخاري أن يرسو فيها بسهولة. فالمياه عميقة على مستوى الجرف نفسه.

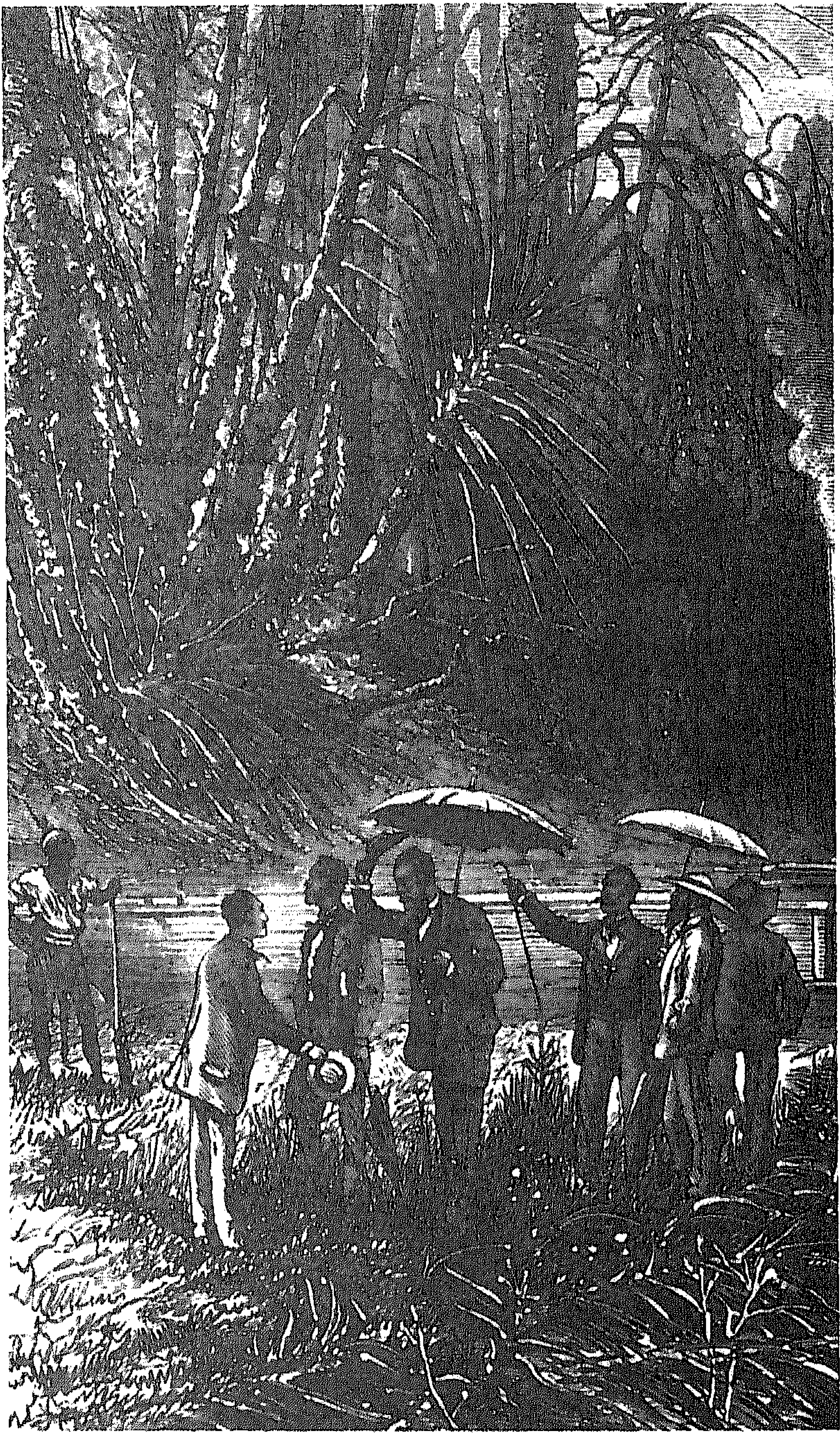
لا يمكن للزورق أن يكون بعيداً. سوف يبلغ حقاً المكان المقصود قبل الراجلين مهما كانت سرعتهما. لا يمكن لهما رؤيته حتى ذلك الوقت، لأنّه ضفاف النهر التي تظللها أشجار سامقة تتدلى فوق مياهه، كانت تحجب النظر عنهما. غير أنّه كان يُسمع، إن لم يكن حمحمة البخار، فعلى الأقل صوت الصفير الحاد المنبعث من الآلة والذي كان يتباين مع الهدير المستمر للشلال.

لم ينقطع صوت الصفير أبداً. كان الطاقم على هذا النحو يحاول إرسال إشارة تعلن عن حضوره إلى ضفاف المورغيدا. كان هذا هو النداء المتفق عليه.

ردّ الصياد على الإشارة بتفريغ غدارته التي لعلعت رصاصاتها بفعل صدى النهر. أخيراً بان الزورق وشاهد كذلك أولئك الذين يركبونه وليام إميري ورفيقه.

بإشارة من الفلكي دار الزورق حول نفسه وحاذى بهدوء حافة النهر. أُلقي حبل المركب فأمسكه البشماني ولفه حول أرومة مقطوعة.

على الفور وثب رجل طويل القامة إلى الضفة وتقدم نحو الفلكي بينما كان رفاقه ينزلون بدورهم. توجه وليام إميري على الفور نحو الرجل وسأله:



- الكولونيل إفريست؟

- السيد وليام إميري؟ أجابه الكولونيل.

تبادل الفلكي وزميله من مرقب كامبريدج التحية باليد.

- أيّها السادة، قال عند ذاك الكولونيل إفريست، اسمحوا لي أن أقدم لكم المحترم وليام إميري من مرصد كاب تاون، والذي قَبِل مشكوراً أن يسبقنا إلى شلالات مورغيدا.

حيا أربعة مسافرين من الزورق كانوا واقفين قرب الكولونيل إفريست، الفلكي الشاب كلاً في دورة. ورد عليهم التحية بمثلها. ثم قدمهم الكولونيل رسمياً وهو يقول ببروردة يتميز بها الإنكليز:

- سيد إميري، هذا هو السيد جون موراي من مقاطعة دوفو نشير وهو من مواطنيك. السيد مايثو ستروكس من مرصد بولكوفا، السيد نيكولا بالاندر من مرصد هلسينغفورس والسيد ميشيل زورن من مرصد كيّو. ثلاثة علماء روس يمثلون حكومة قيصر في بعثتنا العالمية.

* * *

النقل

بعد أن تم التعارف بين وليام إميري والقادمين، وضع نفسه تحت تصرفهم. إنّ مركزه كعالِم بسيط في مرقب الكاب يجعل منه بشكل تسلسلي مرؤوساً لدى الكولونيل إفريست، نائب الحكومة البريطانية الذي يشترك مع ماثيو ستروكس في رئاسة اللجنة العلمية. كما أنّه يعلم أنّه عالِم متميز جداً أهلّته دراساته عن السديم(*) وحساب انخساف النجوم ليكون ذائع الصيت. هذا الفلكي الذي يناهز الخمسين من العمر، رجل هادىء الطباع دقيق السلوك، كان يعيش حياة يُسيرها بشكل دقيق ساعة إثر ساعة. لا حوادث طارئة بالنسبة له. لم تكن دقته في معالجة الأمور جميعها لتقل عن دقة النجوم عند مرورها في الهاجرة. يمكن القول أنّ حياته كلها مضبوطة بمقياس الوقت الكرونومتر. ولِعلم وليام إميري بذلك، لم يشك لحظة واحدة في عدم مجيء البعثة العلمية في اليوم المحدد.

أثناء ذلك، انتظر العالِم الشاب أن يوضح الكولونيل فحوى المهمة التي عليهم انجازها في جنوب افريقيا. لكنّ صمت الكولونيل إفريست استوجب منه عدم السؤال في هذا الخصوص. يحتمل أنّه في تقدير الكولونيل أنّ الساعة التي سيتحدث فيها عن ذلك لم تكن قد حانت بعد.

كان وليام إميري يعرف كذلك الأمر شهرة السيد جون موراي، عالم ثري منافس لجمس روس وللورد إلجين، والذي كان بلا صفة رسمية

(*) - م. (عملية يتم التحقق من خلالها من قيمة النتائج الأولية التي تم الحصول عليها خلال مراقبة الفلك شبيهه بالعمليات الحسابية).

يُشرّف إنكلترا بأعماله الفلكية. والعلم يدين له بتضحيات مالية كبيرة جداً. لقد تبرع بعشرين ألف جنيه استرليني لبناء مرآة عاكسة عملاقة، تنافس تلسكوب بارسون تاون، حُددت عن طريقها عناصر عدد من النجوم الثنائية. إنّه يبلغ الأربعين من عمره على الأكثر، تدل هيئته على أنه سيد عظيم الشأن. لكنّ مظهره الهادىء لم يكن ليكشف للأخرين عن طباعه.

أما الثلاثة الروس، السيد ستروكس والسيد بالاندر والسيد زورن، فلم تكن أسماؤهم غريبة الوقع على مسمع وليام إميري. غير أنّه لم يكن يعرفهم معرفة شخصية. يظهر نيكولا بالاندر وميشيل زورن احتراماً خاصاً لما يثوستروكس. وهذا احترام يبرره المركز الذي يتبوأه، إن لم نجد مزية أخرى.

الشيء الوحيد الذي لاحظه وليام إميري هو أنّ عدد العلماء الإنكليز مساو للروس. ثلاثة انكليز وثلاثة روس. وحتى طاقم السفينة البخارية، المسماة الملكة وقيصر كان يضم عشرة رجال، خمسة منهم من أصل انكليزي وخمسة من أصل روسي.

- سيد إميري، قال الكولونيل إفريست ما أن انتهى التعارف. نحن نعرف بعضنا الآن كما لو أننا قمنا سوية بالرحلة البحرية من لندن إلى رأس فولباس. وأنا زد على ذلك، أقدرك بشكل خاص بسبب أعمالك التي أكسبتك وأنت لا تزال في ريعان الشباب شهرة حقة. لقد اختارتك الحكومة البريطانية بناء على طلبي، لتشارك في العمليات التي سنجريها في جنوب أفريقيا.

انحنى وليام إميري انحناءة شكر وفكر أنّه أخيراً سيعرف البواعث التي دفعت بهذه البعثة العلمية حتى نصف الكرة الجنوبي. غير أنّ الكولونيل إفريست لاذ بالصمت حول ذلك.

- يا سيد إميري، أردف الكولونيل، أريد أن أسألك ما إذا كانت التحضيرات قد أُنجزت.

- بكاملها يا سيدي الكولونيل. أجاب الفلكي. لقد غادرت منذ شهر كاب تاون، بناء على الطلب الموجه إليّ من السيد إيري المحترم. ذهبت إلى محطة لاتاكو حيث جمعت كل العناصر الضرورية لرحلة استكشاف داخل إفريقيا، كالمؤون والعربات والأحصنة ورجال من البشمان. تنتظرك الآن مرافقة من مائة رجل مدرب في لاتاكو، يرأسها صياد ماهر مشهور أرجو أن تسمح لي بتقديمه لك. البشماني موكوم.

- البشماني موكوم! صاح الكولونيل إفريست بنبرة عالية لا تخلو من البرودة مع ذلك. البشماني موكوم، إنّ اسمه معروف تماماً لدي.

- إنّه اسم لافريقي مقدام وماهر! أضاف السيد جون موراي وهو يستدير نحو الصياد الذي لم تكن هيئة هؤلاء الأوربيين الوقورة لتثير الاضطراب في نفسه.

- الصياد موكوم. قال وليام إميري مقدماً رفيقه.

- إنّ اسمك معروف تماماً في المملكة المتحدة أيّها البشماني. رد الكولونيل إفريست لقد كنت صديقاً لاندرسون ودليل داڤيد ليفينغنستون الشهير الذي يشرفني بصداقته. بريطانيا تشكرك باسمي وأهنيء السيد إميري لأنّ اختياره قد وقع عليك لرئاسة القافلة. إنّ صياداً مثلك لا مناص أن يكون هاوياً للأسلحة نحن نملك منها ترسانة مكتملة العدد. أرجو أن

تختـار من بينهـا السـلاح الذي يناسبك. نحـن على ثقـة أنه سيكون بين أيد أمينة.

رسم البشماني ابتسـامة رضى على شفيته. كـان صدى خدماته في إنكلتـرا يثيـر مكامن السـعـادة فيـه إنما أقل حتـمـاً من عـرض الكولـونيل إفريست. فشكره ببضع كلمات مناسبة وتنحى جانباً بينما كان الحوار لا يزال دائراً بين إميري والأوروبيين.

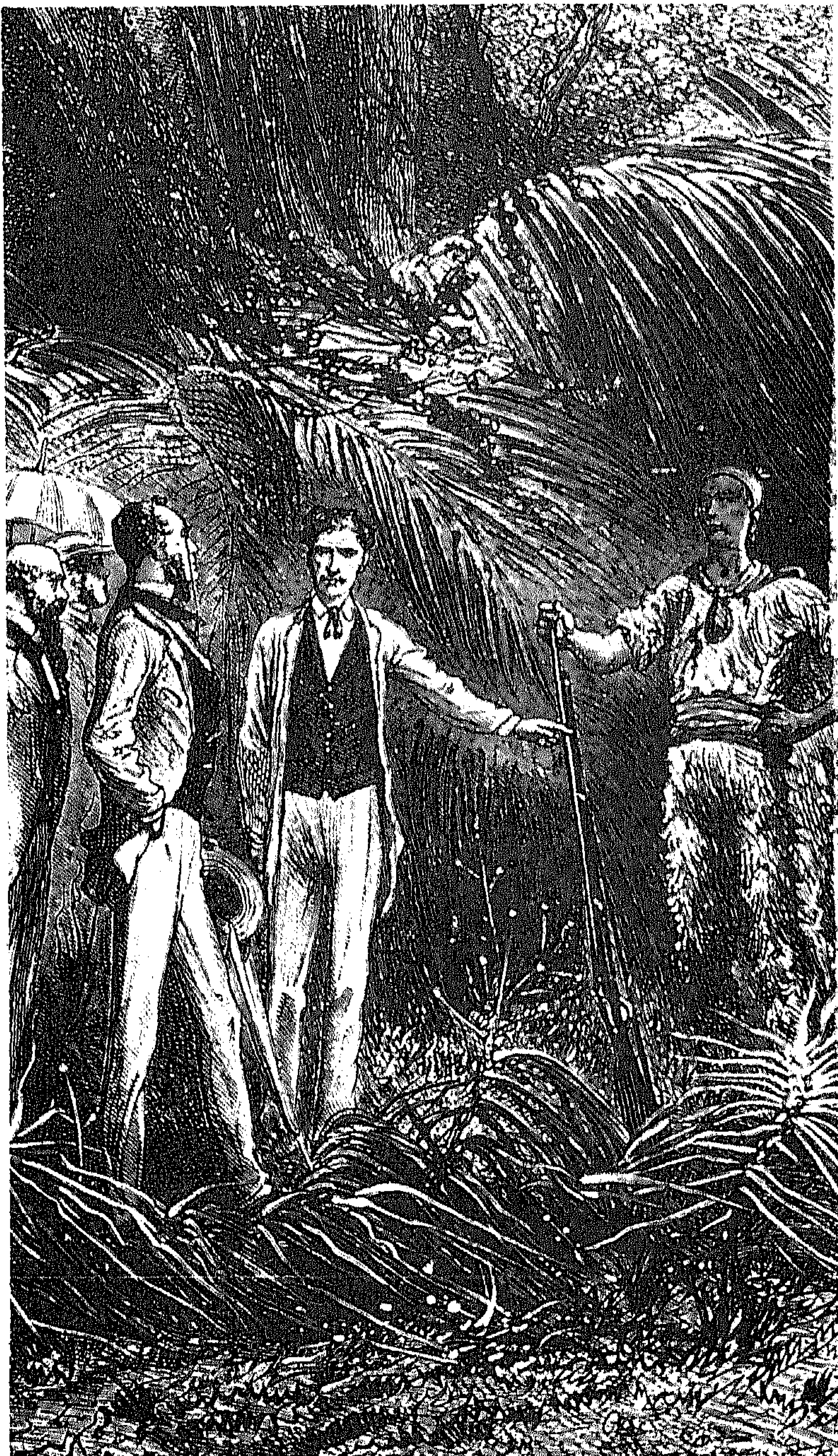
أكـمل الفلكي الشـاب سـرد تفـاصيـل الأعـمـال التي أنجـزها، وبدا الكولونيل إفريست مبتـهجـاً. ينبغي الآن الوصـول إلى مدينة لاتـاكـو في أسـرع وقت. إذ يفترض أن يتـم الرحيل في الأيام الأولى من شهر أذار بعد فصل الأمطار.

- هل تسـمح أن تقرر ياسيدي الكولونيل بأيّة طريقة ترغب الوصـول إلى المدينة. قال وليام إميري.

- عبـر نهـر أورانج وواحـد من روافـده، الكورومـان، الذي يمـر قـرب لاتاكو.

- هذا صـحيح. رد الفلكـي. بيـد أنه مهـمـا كـان سير الزورق سـريعـاً وممتازاً فلن يتمكن من ارتقاء شلال مورغيدا!

- سندور حـول الشـلال يـا سيـد إميري. أجابه الكولونيـل. نستطيع بعد نقل بري لبضعة أميال أن نعاود الإبحار عند عالية الشلال. وإذا لم أكن مـخطئـاً، يكون مـجرى المياه من هذه النقطة وحـتى لاتاكـو صـالحـاً لابحـار زورق يُعتبر مسحوبه قليلاً نوعاً ما.



– دون ريب أيّها الكولونيل. أجاب الفلكي. غير أنّ هذا الزورق البخاري يزن ما مقداره...

– سيد إميري، قاطعه الكولونيل إفريست، يُعد هذا الزورق إنجازاً رائعاً صممته مشاغل ليرد وروسي في ليفر بول. فهو قابل للفك قطعة إثر قطعة ويُعاد تركيبه بسهولة فائقة. لا يحتاج الرجال المكلفين بهذا العمل لأكثر من مفتاح ومسامير كبيرة. هل أحضرت عربة إلى شلالات مورغيدا؟

– أجل يا سيدي الكولونيل. أجاب وليام إميري. لا يبعد معسكرنا من هنا أكثر من ميل.

– هذا حسن. أرجو أن يقود البشماني العربة إلى نقطة الرسو. سوف نُحَمِل منها قطع الزورق ومكنته التي تُفك بدورها، ثم نتجه نحو عالية النهر حيث يعود صالحاً للإبحار.

نفذت تعليمات الكولونيل بحذافيرها، اختفى البشماني في الحال بين الحرجات بعد أن وعد بالعودة خلال أقل من ساعة.

فُرغت أثناء غيابه حمولة الزورق البخاري بسرعة. على أية حال لم تكن الحمولة ضخمة. صناديق أدوات فيزيائية، مجموعة لا يستهان بها من البنادق من صنع بوردي مور من إيد يمبورغ. بضعة براميل من الشراب ومن اللحم المقدد، صناديق كبيرة من الذخيرة، حقائب طويت إلى أصغر حجم ممكن، وقماش خيم مع كامل مواعينها بدت وكأنها خرجت للتو من متجر للسفر. فُلك من الطبرخى طويّ بعناية حتى أنّه لم يأخذ مكاناً أكبر مما يأخذه غطاء محزوم جيداً، بعض الملابس الخاصة بالتخييم و... الخ أخيراً

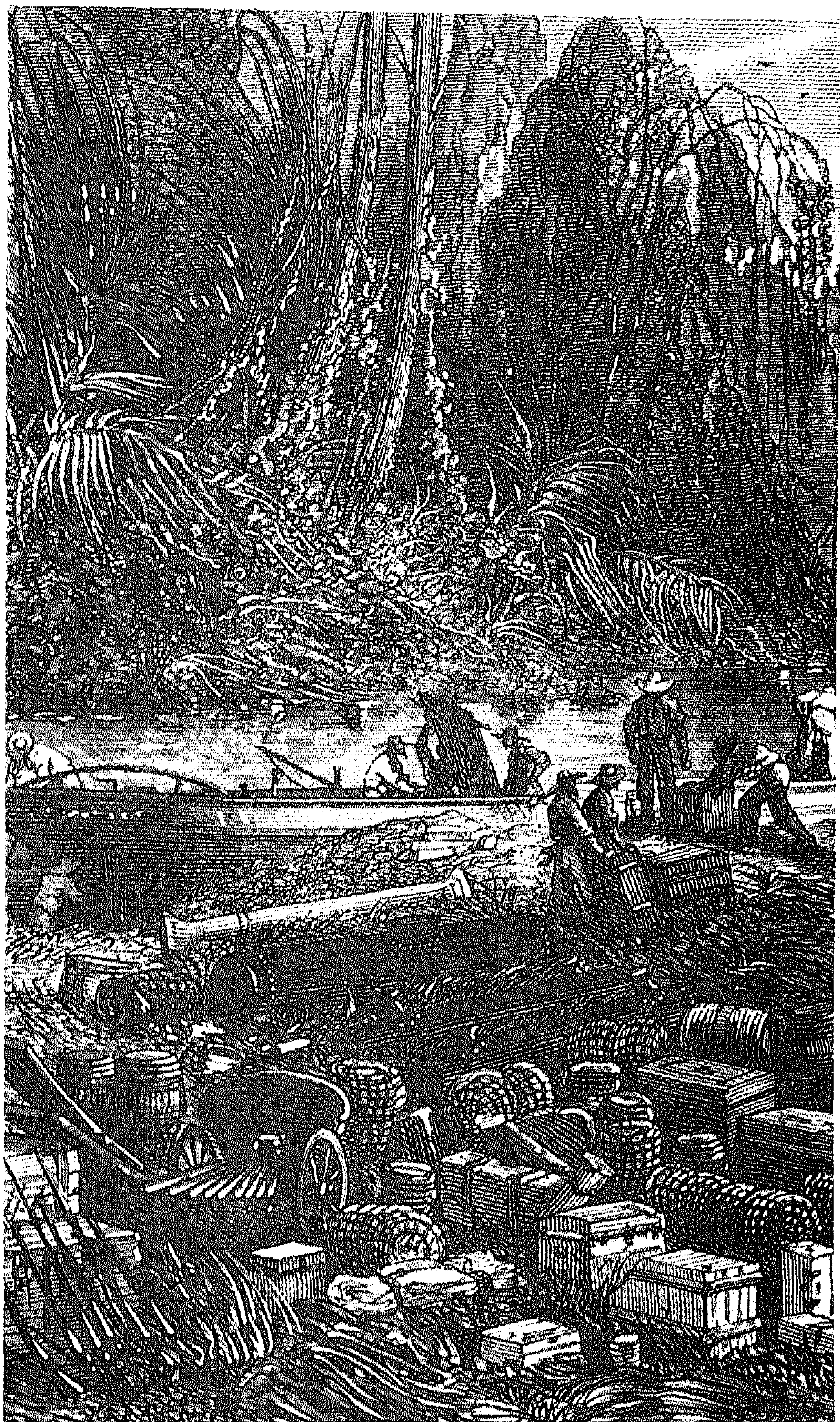
نوع من مصفحة مروحية وهي سلاح لم يطور بعد تماماً، لكنه مرعب جداً بالنسبة للأعداء مهما كان دنوهم من الزورق.

وضعت هذه الأشياء بأجمعها على الجرف ثم فُصلت المكنة التي تبلغ قوتها ثمانية أحصنة وزن الواحد منها مئتان وعشرة كيلو غرام، إلى ثلاثة أقسام، المرجل مع غلاياته، جهاز الألة الذي يفصله عن المرجل دورة مفتاح، والمروحة المربوطة إلى حاملة السُكان المموهة. رفُعت هذه الأقسام بالتتابع تاركة داخل الزورق فارغاً.

يقُسم الزورق خلاف المكان المخصص للمكنة ولعنابر الفحم إلى غرفة أمامية خصصت للطاقم وإلى غرفة خلفية يشغلها الكولونيل إفريست ورفاقه. اختفت الفواصل بلمح البصر ورفُعت الصناديق والأسرّة ولم يبق من الزورق على هذا النحو إلا هيكلاً بسيطاً.

يتألف هذا الهيكل الذي يبلغ طوله خمسة وثلاثين قدماً من ثلاثة أقسام، مثل هيكل ماروبير «Má-Robert» الزورق البخاري الذي وضع تحت تصرف الدكتور ليفينغنستون أثناء رحلته الأولى إلى الزامبيز. صنُع الهيكل من الفولاذ المغطى بطبقة من الزنك الخفيف الوزن والمقاوم في آن معاً. وكانت مسامير كبيرة تربط الصفائح إلى قفص من المعدن نفسه وتؤمن التصاقها ومنع نفاذ الماء إليها.

ذهل وليام إميري فعلاً من سهولة العمل والسرعة التي كان يتم فيها. أضحى الزورق جاهزاً للتحميل بعد ساعة من وصول العربية بقيادة الصياد ورجلي البشمان.



كانت العربة، مركبة بدائية نوعاً ما، تستند إلى أربع عجلات ضخمة، مشكلة مجموعتين منفصلتين الواحدة عن الأخرى بمسافة عشرين قدماً. إنّه «باص» أمريكي بكل معنى الكلمة بسبب طولها. وكان يجر هذه الآلة الثقيلة المصرصرة عند المحاور، ستة ثيران أليفة مربوطة كل اثنين معاً ومتجاوبة تماماً مع منخس السائق الطويل. يقتضي الأمر فعلاً مثل هذه المجترات لدفع العربة عند تحركها بحمولتها القائمة. ورغم مهارة السائق كان يغوص في وحل المستنقعات مرة إثر مرة.

انشغل طاقم الملكة وقيصر في تحميل العربة بطريقة تكون فيها متوازنه في كل أقسامها. وكان المثل يُضرب بمهارة البحارة. تعد عملية رص البضائع داخل العربة مجرد لهو بالنسبة لهؤلاء الرجال المهرة. وضعت القطع الضخمة للزورق مباشرة فوق المحاور في النقطة الأكثر صلابة من العربة وبينها وجُدت بسهولة أمكنة للصناديق الكبيرة والصغيرة، وللبراميل والرزم الأخف وزناً والسريعة العطب. أما المسافرون بالمعنى الحرفي للكلمة، فلم يكن مسير أربعة أميال بالنسبة لهم سوى نزهة.

عند الساعة الثالثة مساء انتهى التحميل تماماً، وأعطى الكولونيل إفريست إشارة الرحيل. سار هو ورفاقه تحت قيادة وليام إميري في المقدمة، بينما تبعهم البشماني ورجال الطاقم وسائقا العربة بخطوات أبطأ.

تم المسير بسير وسهولة. كانت المنحدرات الكثيرة المحاذية للمجرى الأعلى لنهر أورانج والمفضية إليه تُسهل الأمر.

وهذا ظرف جيد بالنسبة للعربة ذات الحمولة الثقيلة، بذلك ستبلغ هدفها حتماً خلال بعض الوقت.

أما أعضاء اللجنة العلمية على اختلافهم، فكانوا يرتقون جانب التل بخفة. كانت مناقشة عامة تدور بين الجميع غير أنّ ذكر هدف الإستكشاف لم يأت على لسان أحدهم. أُعجب الأوربيون بشدة بهذه المناظر الرائعة التي كانت تنبسط على مدّ نظرهم. كانت هذه الطبيعة الفسيحة الأرجاء الجميلة جداً بتوحشها تسحرهم مثلما سحرت من قبل الفلكي الشاب. لم تضجرهم رحلتهم بعد بمرأى الجمال الطبيعي لهذه المنطقة الإفريقية. كان الإعجاب يعتري نفوسهم. إنما هو إعجاب داخلي مثل الإنكليز الذين ينفرون من كل ما هو غير لائق. لربما كان الذوق السليم يفرض عليهم أن يصفقوا للشلال بأطراف أناملهم، إنما بشكل معبر. لم يكن شعارهم دائماً الإعجاب بالأشياء.

من جهة أخرى، كان وليام إميري يعتبر ضرورياً أن يسرد على ضيوفه أمجاد جنوب أفريقيا. فهي الآن في منزلة وطنه ومثل بعض البرجوازيين المتحمسين جداً لم يعفهم من سماع سرد تفيصلي عن حديقته الإفريقية.

نحو الساعة الرابعة والنصف انتهى الإلتفاف حول شلالات مورغيدا. شاهد الأوربيون عند وصولهم إلى الهضبة المجرى العلوي للنهر ينساب أمامهم إلى ما وراء حدود النظر. فعسكروا لبعض الوقت على الضفة انتظاراً لوصول العربة.

لاحت العربة على قمة التلة نحو الساعة الخامسة. تمت الرحلة دون منغصات وباشر الكولونيل إفريست على الفور تفريغ العربة معلناً أنّ الرحيل سيكون في اليوم التالي عند الفجر.

وظُف الليل كله لأعمال مختلفة. إنّ ضبط قفص الزورق في أقل من ساعة ووضع آلة المروحة في مكانها ونصب الحواجز المعدنية بين الغرف، وتركيب عنابر الفحم، وتحميل الرزم المختلفة بترتيب، كل هذه التدابير التي جرت بسرعة فائقة اثبتت مهارة طاقم الملكة وقيصر. كان أولئك

الإنكليـز والروس أناس مـختـارين . ، رجـالاً منظمين ومـهرة يمكن تمامـاً الاعتماد عليهم .

في اليـوم التـالي ، الأول من شبـاط ، كـان الزورق منذ الفـجـر جـاهزاً لاستقبـال المسافرين . ها هو الدخان الأسود يتصاعد مزوبعاً في المدخنة . كان الميكانيكي طلباً لزيادة السرعة ينفث عبر هذا الدخان أبخرة بيضاء . ولأنّ الآلة بلا مكثف وفي ضغط مرتفع ، كانت تفقد بخارها عند كل ضربة للمكبس حسب النظام المطبق في الآلات البـخـارية . أمـا المرجل المجـهـز بغلايات وضعت ببراعة والتي توفر مساحة تحمية(*) كبيرة ، فلم يلزمه أكثر من نصف ساعة حتى ينفث ما يكفي من الأبخرة . خُزنت كمية لا بأس بها من خشب الآبنوس والغـاياك(*) التي تتوافـر بكثرة في الأنحـاء . ثمـة نار ضخمة من هذه الأخشاب الثمينة توفر الدفء لهم .

في السادسة صباحاً أعطى الكولـونيل إفريست إشارة الرحيل . صعد المسافرون والبحارة إلى ظهر الملكة وقيصر بينما تبعهم على الضفة الصياد الذي كـان معتاداً على طريق النهر ، تاركاً للبشـمانيين مهـمـة ، إعادة العربة إلى لاتاكو .

عندما أرخى الزورق قلوسه ، قال الكولونيل للفلكي :

– بالمناسبة يا سيد إميري ، هل تعلم ماذا جئنا نفعل هنا؟

– ليس لديّ أدنى فكرة عن ذلك يا سيدي الكولونيل .

– هذا بسيط للغاية يا سيد إميري . لقد أتينا لنقيس قوس الهاجرة(*) في جنوب إفريقيا .

(*) – م . (قسم أسفل من المرجل متصل اتصالاً مباشراً بالنار) .

(*) – م . (شجر أمريكي من فصيلة القديسيّات) .

(*) – م . (خط منتصف النهار) .

بضع كلمات عن المتر

يمكن لنا التأكيد أنّه في أي وقت، كانت فكرة قياس عالمي لا يتغير، تزود الطبيعة ذاتها التقدير الدقيق له قد خطرت في ذهن الإنسان. وكان من المهم في الحقيقة، أن يوجد هذا القياس بدقة مهما تكن الكوارث التي تشكل الأرض مسرحها. وفكر القدماء دون ريب على هذا النحو، بيد أنّ الوسائل والأدوات كانت تعوزهم لتنفيذ هذه العملية بقيمة تقريبية كافية.

في واقع الأمر، كانت أفضل طريقة للحصول على قياس ثابت هي عزوه إلى شبه الكرة الأرضية التي يمكن اعتبار محيطها ثابتاً وبالنتيجة قياس كامل المحيط أو جزء منه بشكل رياضي.

بحث القدماء في تحديد ماهية هذا القياس. كان أرسطو جرياً على عادة العلماء في عصره، يعتبر أن الغلوة[1] أو الذراع المصري على زمن الفراعنة، تشكل جزءاً من المئة على الألف من القطب إلى خط الاستواء.

أما ايراتوسين[2]، الذي عاصر بطليموس وخلفائه فقد حسب بطريقة تقريبية نوعاً ما قيمة الدرجة على طول نهر النيل بين أسوان والإسكندرية. غير أنّ بوسيدونيوس[3] وبطليموس لم يتمكنا من الحصول على دقة كافية للعمليات الجيودوزية[4] التي باشراها في هذا الصدد وكذلك خلفائهما.

(١) - م. (وحدة قياس قديمة للطول).

(٢) - م. (رياضي وفلكي وفيلسوف اغريقي من مدرسة الكسندر).

(٣) - م. (مؤرخ وفيلسوف وكيمائي يوناني ولد سنة ٢٣٥ ق.م).

(٤) - م. (علم مساحة الأرض).

لقد كان بيكار لأول مرة في فرنسا، الذي بدأ بتنظيم الوسائل الموظفة لقياس الدرجة. وفي عام ١٦٦٩ استطاع بعد أن حدد طول القوس السماوي والقوس الأرضي بين باريس وآميان حساب قيمة الدرجة بسبع وخميسن ألفاً وستين قامة.

وتابع دومينيك كاسيني ولا هير قياس بيكار حتى دانكرك وكوليور على جبال البيرنه الشرقية من عام ١٦٨٣ حتى عام ١٧١٨، وتحقق منه عام ١٧٣٩ من دانكرك حتى بير بنيان فرانسوا كاسيني ولا كاي. ثم مدد ميشان قياس قوس هذا الخط حتى برشلونة في اسبانيا. وبموت ميشان - انهار بفعل الأعمال المضنية التي تسببها هذه العملية - لم يُستأنف قياس خط الهاجرة في فرنسا إلا عام ١٨٠٧ بفضل آراغو وبيّو. لقد تبع هذان العالمان الخط حتى جزر باليار[٥] ومُدد القوس على هذا النحو من دانكرك حتى فورما نتيرا[٦]: كان الخط الشمالي الخامس والأربعون الذي يبعد المسافة نفسها عن القطب وخط الاستواء يقطع القوس في وسطه. وفي هذه الظروف لم يكن ضرورياً الأخذ بالحسبان تسطح الأرض لحساب قيمة ربع خط الهاجرة. وكانت نتيجة القياس سبع وخمسين ألفاً وخمسة وعشرين قامة كقيمة وسطية لقوس «درجة» في فرنسا.

حتى ذلك الحين كان العلماء الفرنسيون بشكل خاص من يهتم بهذا التحديد الدقيق. كذلك كانت الجمعية المؤسسَة، عام ١٧٩٠، وبناء على اقتراح تاليراند، أول من أصدر مرسوماً يُحَمِّل أكاديمية العلوم مسؤولية الوصول إلى نموذج ثابت للقياسات والأوزان جميعها. واقترح في ذلك

---

(٥) - م. (جزر اسبانيه في غرب البحر الأبيض المتوسط).
(٦) - م. (جزيرة في المتوسط).



الوقت التقرير الذي وقع عليه كل من الأسماء الشهيرة التالية : بوردا، لاكرانج، لابلاس، مونج، كوندورسيه، لقياس بطول متعارف عليه، جزء من العشرة على المليون لربع خط الهاجرة، ولتقدير ثقل الأجسام كلها بما فيها الماء المقطر، اعتماد النظام العشري لربط القياسات كلها بين بعضها البعض.

وفي وقت لاحق، تمت عمليات تحديد قيمة الدرجة الأرضية في أماكن مختلفة من الأرض، لأنّ شكل الأرض اهليجلي أكثر منه كروي، مما أوجب إجراء عمليات عديدة للتأكد من قياس تسطحها عند القطبين.

في عام ١٧٣٦، حسب كل من موبيرتويس، كليرو، كامو، ليمونيه والسويدي سيليسيوقوساً شمالياً في لابوني(*). وكان القياس سبع وخمسين ألفا وأربعمئة وتسع عشرة قامة لطول قوس درجة.

في عام ١٧٤٥، سجل لاكوندامين، بوغير وغودان يساعدهم الإسبانيان خوان وانطوانيو أولوا ستة وخمسين ألفاً وسبعمئة وسبع وثلاثين قامة لقيمة القوس في البيرو. في عام ١٧٥٢، وجد لاكاي أنّ قيمة الدرجة في خط الهاجرة عند رأس الرجاء الصالح هي سبع وخمسين ألفاً وسبع وثلاثين قامة.

في عام ١٧٥٤، حصل الأباء مير وبوسكوير على ست وخمسين ألفاً وتسعمئة وثلاث وسبعين قامة لقيمة القوس بين روما وريميني.

(*) - م. (أكثر منطقة شمالية في أوروبا، شمال المدار القطبي موزعة بين النروج والسويد وفلندا والاتحاد السوڤيتي).

في عـام ١٧٦٢ و١٧٦٣ ، خـمن بيكاريا الدرجـة في بيـمـونتـه بسبع وخمسين ألفاً وأربعمئة وثمان وستين قامة .

في عـام ١٧٦٨ ، وجـد الفلكيـان مـاسـون وديكسـون في أمـريكا الشمالية ، على تخوم ماريلاندوبنسلفانيا أنّ قيمة الدرجة الأمريكية هي سته وخمسون ألفاً وثمانمئة وثمانون قامة كما قيست أعداد أخرى من الأقواس منذ القرن التاسع عشر ، في البنغال وجزر الهند الشرقية وفلندا وليتوانيا وألمانيا وبروسيا الشرقية والدانمارك . غير أنّ اهتمام الإنكليز والروس لهذه التحديدات العسيرة كان أقل فعالية من الشعوب الأخرى . وباشر اللواء روي العملية الرئيسية الجيودوزية(*) التي قاموا بها عام ١٧٨٤ ، بهدف ربط القياسات الفرنسية بالقياسات الإنكليزية .

نستخلص من القياسات جمعيها التي سردت أعلاه أنه يمكن تقدير الدرجة الوسطية بسبع وخمسين ألف قامة أي ما يعادل خمسة وعشرين فرسخاً قديماً في فرنسا . وبضرب هذه القيمة الوسطية بالثلاثمئة وستين درجة التي يشكلها محيط الأرض ، نجد أن قياس محيط الأرض يصل إلى تسعة آلاف فرسخ .

ومع أننا نستشف من الأرقام المنوه عنها أعلاه أن قياسات الأقواس المختلفة التي تم الحصول عليها في أماكن مختلفة من الكرة الأرضية لا تتطابق إطلاقاً مع بعضها البعض ، إلا أننا نستخلص من هذا المعدل المؤلف من سبع وخمسين ألف قامة الذي يشكل قياس درجة ، قيمة «المتر» أي جزء من العشرة على المليون لربع خط الهاجرة الأرضي الذي يعادل ٠,٥١٣٠٧٤ أي ثلاثة أقدام وأحد عشر خطاً ومائتان وستة وثمانون ملمياً من الخيط .

(*) م . (علم مساحة الأرض) .

في الحقيقة لا يعد هذا الرقيم دقيقاً تماماً. إذ تقدر الحسابات الجديدة التي تأخذ بعين الاعتبار تسطح الأرض عند القطبين الذي يعادل ١/٢٩٩,١٥ وليس ١/٣٣٤ كما كان متعارفاً عليه سابقاً، أنّ قياس ربع الهاجرة ليس عشرة ملايين متراً، وإنما عشرة ملايين وثمانمئة وستة وخمسين متراً. هذا الفرق بثمانمئة وستة وخمسين متراً، مستساغ نوعاً بالنسبة لهكذا طول. مع ذلك إذا اعتبرنا الناحية الرياضية. علينا أن نقول أن المتر، كما هو متعارف عليه، لا يمثل بدقة جزء من العشرة على المليون من الهاجرة الأرضية ثمة خطأ بحوالي جزئين من العشرة على المليم في السطر على الأقل.

وحتى عند تحديد قياس المتر على هذا النحو، لم تتبناه الأمم المتقدمة كلها. لقد وافقت عليه مباشرة بلجيكا وإسبانيا وبيمون واليونان وهولندا والمستعمرات الإسبانية القديمة وجمهوريات الإكوادور وكولومبيا وكوستاريكا. غير أن إنكلترا كانت قد رفضت حتى ذلك التاريخ النظام المتري رغم تفوقه الأكيد على بقية الأنظمة الأخرى.

ربما لو لم تواكب التعقيدات السياسية نهاية القرن الثامن عشر، لكان ممكناً أن تقبل بهذا النظام شعوب المملكة المتحدة. عندما أصدرت الجمعية المؤسسة يوم ٨ آذار ١٧٩٠ مرسومها، دُعي العلماء الإنكليز من المجتمع الملكي للإنضمام إلى العلماء الفرنسيين. لقياس متر، كان ينبغي تقرير ما إذا كان سيُعتمد على أساس طول الساعة العادية التي تدق الثانية الستونية، أم ستكون وحدة الطول جزءاً من الدوائر الكبرى للأرض. لكنّ الأحداث حالت دون تحقيق الإجتماع المأمول.

وبقي الأمر على هذه الحال حتى قررت إنكلترا أن تتبناه عام ١٨٥٤ بعد أن كانت قد أدركت مزايا النظام المتري منذ زمن طويل، ووجدت من ناحية أخرى أنّ مجتمعات العلماء والتجار تميل لنشر هذا التعديل.

بيد أنّ الحكومةالبريطانية رغبت أن تكتم هذا القرار حتى اللحظة التي تسمح فيها العمليات الجيودوزية الجديدة تلك التي ستقوم بها بنفسها بالتحقق من قيمة دقيقة أكثر للدرجة الأرضية.

مع هذا، وجدت الحكومة البريطانية في هذا الصدد أنّه من المناسب التفاهم مع الحكومة الروسية التي كانت تميل مثلها لتبني النظام المتري.

على هذا النحو اختيرت لجنة مؤلفة من ثلاثة علماء فلك انكليز وثلاثة علماء فلك روس؛ من بين الأعضاء الأكثر شهرة في المحافل العلمية. وكما شهدنا وقع الإختيار على الكولونيل إفريست والسيد جون موراي ووليام إميري من انكلترا. والسيد ماتيو ستروكس ونيكولا بالاندر وميشيل زورن من روسيا.

قررت هذه اللجنة العلمية، التي اجتمعت في لندن أن تباشر بادىء الأمر قياس قوس الهاجرة في نصف الكرة الجنوبي. ومن ثم قياس قوس جديد للهاجرة في نصف الكرة الشمالي. ومن مجموع هاتين العمليتين آملوا استخلاص قيمة دقيقة سترضي شروط البرنامج كلها.

بقي عليهم الاختيار بين المستعمرات الإنكليزية المختلفة الواقعة في نصف الكرة الجنوبي، بين مستعمرة والكاب استراليا ونيوزيلاندا. غير أنّ استراليا ونيوزيلاندا الواقعتين في أجزاء متقابلة من الكرة الأرضية مع

أوروبا سترغمان البعثة العلمية على القيام برحلة طويلة، زد على ذلك أن الحرب الطاحنة التي تدور رحاها بين سكان استراليا ونيوزيلاندا الأصليين مع المستعمر سيجعل العملية المرجوة شائكة للغاية.

بينما توفر مستعمرة الكاب مزايا حقيقية:

١ - إنها تقع تحت نفس خط الهاجرة الذي تقع فيه بضع أجزاء من روسيا الأوروبية، وبعد قياس قوس الهاجرة في أفريقيا الجنوبية، يُمكن قياس قوس ثان لنفس الهاجرة في مملكة قيصر مع الاحتفاظ بالسرية المطلقة للعملية.

٢ - إن الرحلة إلى المستعمرات البريطانية في أفريقيا قصيرة نسبياً.

٣ - أخيراً، سيجد هناك العلماء الإنكليز والروس فرصة ثمينة للتدقيق في أعمال الفلكي الفرنسي لاكاي بقيامهم بالعمليات في الأماكن نفسها التي عمل فيها، والتحقق ما إذا كان محقاً بتقديمة الرقم التالي سبع وخمسين ألفاً وسبعه وثلاثون قامة لقياس درجة الهاجرة في رأس الرجاء الصالح.

وعلى هذا النحو قُررت العملية الجيودوزية في الكاب ووافقت الحكومتان على قرار اللجنة الإنكليزية الروسية وفُتحت اعتمادات كبيرة وصُنعت كامل الأدوات الضرورية لعملية التثليث بشكل مزدوج. ودُعي وليام إميري للقيام بالتحضيرات لبعثة في أفريقيا الجنوبية. وأصدرت الأوامر للحرّاقة أوغستا من البحرية الملكية بنقل إلى مصب نهر أورانج أعضاء اللجنة ومرافقيهم.

ومن المناسب أن نضيف أيضاً أنّه إلى جانب القضية العلمية، ثمة قضية لكبرياء وطني كانت تثير حماسة أولئك العلماء المجتمعين في مهمة مشتركة. فالقضية كانت التفوق على فرنسا في تقديراتها الرقمية والانتصار بدقة على أعمال أشهر علمائها وذلك في مجاهل بلد وحشي معروف بالكاد. لهذا قرر أعضاء اللجنة الانكليزية الروسية أن يضحوا بكل غال حتى بحياتهم للحصول على نتيجة لصالح العلم وفي الوقت نفسه مشرّفة لبلادهم.

وهكذا كان الفلكي وليام إميري في الأيام الأخيرة من شهر كانون ثاني من عام ١٨٥٤ عند شلالات مورغيدا على ضفاف نهر أورانج.

ضيعة هوتنتوتية

تمت الرحلة على المجرى الأعلى للنهر بسرعة. ومع أنّ الطقس ما لبث أن أضحى ماطراً إلاّ أنّ المسافرين الذين استقروا مرتاحين في غرفة الزورق، لم يعانوا قط من وابل الأمطار الشائعة جداً خلال هذا الفصل. كان زورق الملكة وقيصر يسير بأقصى سرعته دون أن يصادف في طريقه شلالات كما لم يكن المجرى قوياً لدرجة يضطر فيها إلى تخفيف سرعته.

كانت شواطىء نهر أورانج تواصل عرض المناظر الفاتنه نفسها. إذ كانت غابات الأنواع المختلفة تتتابع على ضفتيها وعالم كامل من الطيور يسكن قممها الخضراء. هنا وهناك تتجمع أشجار تعود إلى عائلة البروطية(*) وبشكل خاص أشجار «الڤاغينبوم» Wagenboom ذات القشرة المرقطة المائلة للحمرة والتي كانت تثير الغرابة بنصاعة أوراقها الزرقاء وبالصفرة الشاحبة لأزهارها الكبيرة.

وكذلك أشجار «الزوارتيباست» Zwartebast ذات القشرة السوداء. وأشجار «الكاري» Karrees بأوراقها الغامقة ذات الخضرة الدائمة. ثمة أيضاً بضعة أدغال تمتد لمسافة أميال عديدة وراء ضفاف النهر تظللها في كل الأنحاء أشجار الصفصاف الباكية. كانت أراضي واسعة مكشوفة تبين فجأة. إنّها سهول شاسعة تغطيها أعداد لا تحصى من نباتات الحنظل وتقطعها «أدغال السكر» التي تشكلها نباتات العسل(*) حيث كانت تحلق

(*) – م. (نباتات يمتص النحل رحيقها لصنع العسل).

مجموعات من الطيور الصغيرة ذات الشدو الناعم يلقبها المستوطنون في الكاب بـ «سويكرڤوغليز» Suiker-Vogels.

إضافة لذلك كان عالم الطيور يقدم نماذج متنوعة جداً. أحب البشماني أن يلفت نظر السيد جون موراي إليها، كونه هاوياً عظيماً لفرائس الوبر والريش. وبذا توطد نوع من الإلفة بين الصياد الإنكليزي وموكوم بعد أن نفذ مرافقه الكريم وعد الكولونيل إفريست وقدم له كهدية بندقية ممتازة من نظام بولي ذات مدى بعيد. وعبثاً نستطيع وصف شعور الرضى الذي ملأ نفس البشماني وهو يرى نفسه مالكاً لهذا السلاح الرائع.

كان الصيادان متفاهمين جداً. ومع كون السيد جون موراي عالماً متميزاً إلاّ أنّه يُعد واحداً من ألمع صيادي الثعالب في اسكتلندا. كان يصغي باهتمام جمّ وبرغبة واضحة لسرد البُشماني فقد كانت عيناه تتقدان عندما كان الصياد يكشف له عن بعض الحيوانات المجتُرة الوحشيه المختبئة تحت غطاء الغابات. زراف بمجموعات من خمسة عشر إلى عشرين فرداً. وثيران يبلغ ارتفاعها ستة أقدام وتتسلح بقرون حلزونية سوداء على رؤوسها. وأبعد بقليل أبقار الوحش بأذيال الخيل. وفي موضع آخر مجموعات من «الكاماس» Caamas وهي نوع من الآيائل الضخمة السمراء اللون، ذات عيون متقدة وقرون على شكل مثلث تهدد بها عدوها.

في الأرجاء كلها، في قلب الغابات الكثيفة كما في وسط السهول الجرداء أنواع لا تعد ولا تحصى من الظباء التي تتكاثر بسرعة في جنوب أفريقيا، مثل ظباء الجبل الهجينة، المها، الغزال، تيس الأدغال، التيس

القافر... أفلا يوجد هنا ما يغري غرائز صياد، وهل يمكن لصيد الثعالب في أراض اسكتلندا أن ينافس الأعمال الباهرة لبالدوين(*) واندرسون(*)؟

الجدير بالذكر أنّ رفاق السيد جون موراي كانوا أقل تأثراً بمرأى هذه النماذج الرائعة من الفرائس البرية. كان وليام إميري يراقب زملائه باهتمام ويحاول سبر غور طباعهم تحت مظهرهم البارد. الكولونيل إفريست وماثيو ستروكس، كلاهما من نفس العمر تقريباً كانا متحفظين ومنطوين على نفسيهما ومتمسكين بالشكليات بالقدر نفسه. هما يتحدثان ببطء موزون، ونكتشف في كل صباح جديد أنهما يبدوان منذ اليقظة وحتى الليل وكأنّهما لم يلتقيا بعد. لذا لا يجوز لنا أن نحلم أنّ ألفة من أيّ نوع يمكن أن تقوم بين هاتين الشخصيتين الهامتين. من المؤكد أنّ شخصين باردين لا رابط بينهما سينتهي بهما المطاف إلى الإندماج، إنما لا يحدث ذلك البتة مع عالمين يتبوأ كل منهما مكانة علمية مرموقة.

كان نيكولا بالاندر، الذي يبلغ الخامسة الخمسين من عمره، واحداً من أولئك الرجال الذين لم يكونوا شباباً في يوم ولن يصبحوا عجائز البتة. يمكن لعالِم الفلك من هلسينغفور الغارق أبداً في حساباته أن يكون آلة منظمة بشكل يثير الإعجاب. بيد أنّه يبقى مجرد آلة، عبارة عن لوحة بيانية أو عدّاد عالمي. هذا العالِم الذي يعد كآلة حاسبة في اللجنة الإنكليزية. الروسية، لم يكن إلاّ واحدٌ من هؤلاء «العباقرة» الذين يحسبون في أذهانهم عمليات ضرب من خمسة أرقام.

(*) - م. (عالم أمريكي في العلوم النفسية والاجتماعية).

(*) - م. (فيزيائي أمريكي اكتشف الالكترون الايجابي).

أما ميشيل زورن، فكان بعمره وطباعه الحماسية وبشاشة وجهه قريب الطباع من وليام إميري. غير أنّ صفاته المحببة تلك لم تكن لتعيقه عن أن يصبح عالماً فلكياً ذا مقدرة كبيرة وله شهرة ذائعة الصيت قد بكرت عن أوانها. إنّ الإكتشافات التي قام بها وتحت إشرافه في مرقب كيو، بخصوص المرأة المُسلَسْلَةَ(*) كان لها أكبر الصدى في محافل أوروبا وفوق ذلك كله كان يتمتع بتواضع عظيم وينزوي بنفسه في كل فرصة.

لا بدّ أن يصبح وليام إميري وميشيل زورن صديقين! إذ انّ الميول نفسها والتطلعات نفسها تجمعهما. لذا كانا يتحدثان معاً في أغلب الأحيان. وخلال ذلك الوقت كان الكولونيل إفريست وما ثيوستروكس ينظران إلى ببعضهما ببرود شديد. بينما بالاندر يستخلص ذهنياً الجذور التكعيبية دون أن يلاحظ المناظر الساحرة على الضفة.

ويبقى السيد جون موراي والبُشماني يخططان لمشاريع صيد جماعي.

لم يعكر صفو هذه الرحلة في عالية نهر أورانج أيّ حادث طارىء. أحياناً تبدو الجروف ذات الضفاف الغرانيتية التي كانت تحصر سرير النهر المتعرج، مغلقة لكل مخرج. وغالباً ما كانت جزر مشجرة نثرت في مجرى النهر، تجعل الطريق الواجب سلوكه محفوفاً بالخطر.

(*) - م. (نجمة لولبية فوق نصف الكرة الشمالي تمثل صورة امرأة ممدودة الذراعين مقيدة الرسغين).

بيد أنّ البُشماني لم يكن ليتردد البتة. وتتمكن الملكة وقيصر من اجتياز الطريق المفضل أو تخرج دونما تأخير من مُدرج الجروف. بهذا لم يشعر النوتي لمرة واحدة بالندم على إتباع إرشادات موكوم.

اجتاز الزورق البخاري خلال أربعة أيام المئتين والأربعين ميل التي تفصل شلالات مورغيدا عن كورومان، واحد من الروافد التي ترتقي بشكل خاص مدينة لاتاكو التي يجب أن تبلغها بعثة الكولونيل إفريست. كان النهر لثلاثين فرسخاً عند عالية الشلالات يُشكل عقفة ويحول اتجاهه الغربي الشرقي ويعود إلى الجنوب الشرقي لينحت الزواية الحادة التي تصنعها عند الشمال أراضي مستعمرة الكاب. من هذه البقعة كان ينحرف إلى الشمال الشرقي ويتابع سيره ليتوه على بعدثلاثمئة ميل من هناك في المناطق المشجرة لجمهورية ترانسفال.

وفي الخامس من شباط، خلال الساعات الأولى من الصباح، وتحت وابل من المطر وصلت الملكة وقيصر إلى محطة كلاروتير، قرية من الهوتنتون يصب قريباً منها الكورومان في نهر أورانج. اجتاز الكولونيل إفريست الراغب عن فقد لحظة واحدة القرية بسرعة، وبدفع المروحة بدأ الزورق بارتقاء الرافد الجديد. كان التيار السريع، ؛كما لاحظ ذلك مسافر والملكة وقيصر خاصية فريدة في هذا المجرى المائي. في الحقيقة، كان مجرى الكورومان يتسع جداً عند منبعه ثم يتقلص خلال انحداره بفعل أشعة الشمس. بيد أنّه في هذا الفصل، كان عميقاً وسريعاً بفضل الأمطار وانضمام مياهه إلى رافد موشونا الفرعي. لذا أضرمت النار وارتقى الزورق مجرى الكورومان بمعدل ثلاثة أميال في الساعة.

خلال الرحلة النهرية، أشار البُشماني إلى وجود عدد كبير من أفراس النهر في المياه. هذا الحسئي(*) الضخم الذي كان هولنديوا لكاب يلقبونه بـ«البقرة البحرية» والذي يعد من الحيوانات الضخمة والثقيلة الوزن. ارتفاعها من ثمانية إلى عشرة أقدام، كان دامزاج قليل العداء، تخيفه حمحمة الزورق البخاري وضجيج المروحة. فقد بدا له زورقهم وحشاً جديداً ينبغي له أن يتجنبه، وفي واقع الأمر كانت ترسانة الضفة تعيق بشدة اقتراب الزورق. ورغب السيد جون موراي بتجريب رصاصاته المتفجرة على هذه الكتل اللحمية، بيد أنّ البشماني أكده له أنّ فرس النهر يكثر في مجرى النهر الشمالي وخلص السيد جون موراي إلى انتظار فرص أفضل.

تم اجتياز المئة الخمسين ميل التي تفصل مصب كورومان عن محطة لاتاكو خلال خمسين ساعة. وفي السابع من شباط، عند الساعة الثالثة ظهراً بلغ الزورق نقطة الوصول. وبعد ربط حبل الزورق البخاري إلى الضفة التي تستخدم كرصيف، تقدم رجل يبلغ الخمسين من عمره، تدل هيئته على الوقار والطيبة ومدّيده إلى وليام إميري. قال الفلكي وهو يُعرّف بالقادم الجديد لرفاق السفر:

- المحترم توماس دال من شركة البعثات في لندن ومدير محطة لاتاكو.

حيا الأوربيون توماس دال الموقر الذي رحب بهم ووضع نفسه تحت تصرفهم.

(*) - م. (صفيق الجلد من الثديات كالفيل).

تشكل مدينة لاتاكو أو بالحري ضيعة لاتاكو محطة للمرسلين الأكثر بعداً عن الكاب نحو الشمال. إنّها تقسم إلى لاتاكو القديمة ولاتاكو الجديدة. كان عدد سكان القديمة، المهجورة حالياً والتي وصل إليها منذ برهة زورق الملكة قيصر، يبلغ عند بداية القرن اثني عشر ألف ساكن، ما لبثوا أن هاجروا إلى الشمال الشرقي. هذه المدينة المخلوعة حلت محلها لاتاكو الجديدة التي بنيت أبعد بقليل في سهل كان مغطى في الماضي بنباتات الاكاسيا.

تضم مدينة لاتاكو الجديدة التي أمّها الأوروبيون تحت قيادة توماس المحترم، أربعين مجموعة من المنازل وتضم حوالي خمسة أو ستة الآف ساكن ينتسبون إلى القبيلة الكبيرة بيشوانا.

إنّها المدينة نفسها التي استقر فيها داڤيد ليفنغستون لثلاثة أشهر عام ١٨٤٠ قبل أن يباشر رحلته الأولى إلى الزامبيز، رحلة تطلب الأمر أن تقود المسافر المشهور عبر أفريقيا الوسطى من جون لواندا في الكونغو حتى مرفأ كيلمان على شاطىء الموزامبيق.

وبوصولهم إلى لاتاكو الجديدة، سلّم الكولونيل إفريست إلى مدير المحطة رسالة من الدكتور ليفنغستون الذي يوصي زملاءه في جنوب أفريقيا باللجنة الإنكليزية الروسية. قرأ توماس والي الرسالة بفرح غامر ثم أعادها إلى الكولونيل إفريست قائلاً أنّ الرسالة ربما تكون ذات فائدة خلال رحلته الإستكشافية، إذ أنّ اسم داڤيد ليفنغستون معروف ومُشّرِف في كل هذا القسم من أفريقيا.

أقام أعضاء اللجنة في مؤسسة البعثات، عبارة عن خُص واسع أُشيد على نحو ملائم فوق تلة ويحوطه حاجز غير قابل للإختراق مثل سور محصَن. إنّ استقرار الأوروبيون في هذا السكن سيكون مريحاً أكثر مما لو كانوا قد سكنوا عند قبيلة بيشوانا. ليس لأنّ هذه المساكن لم تكن نظيفة أو مرتبة، على العكس، لم تكن تظهر على الأرض الصلصالية المصقولة ذرة من غبار وصنُع السقف من أعواد قصب طويلة لا يمكن للمطر أن يخترقها، غير أنّه إجمالاً، تبقها هذه المساكن مجرد أكواخ منفذها الوحيد ثقب دائري يمر منه بالكاد رجل واحد. والحياة هناك في الأكواخ مشتركة ولن يكون الإحتكاك المباشر مع البيشوانا ممتعاً بالنسبة لهم.

ظن رئيس القبيلة الذي كان يقطن لاتاكو ويدعى موليباهان أنّ من واجبه زيارة الأوربيين ليقوم بواجباته اتجاههم. إنّه - أيّ موليباهان- رجل جميل الطلعة. لم تَحبْه الطبيعة الشفاه الغليظة للزنوج ولا أنفهم الأفطس، كما أنّ وجهه من الأسفل دائري وليس متطاولاً مثل الهوتنتون. وكان يرتدي معطفاً حيك من عدة جلود بفن كبير، ووزرة تدعى «بوكوج» Pu-koje في لغة بلدهم. إنّه يعتمر قلنسوة من الجلد وينتعل صندلاً من جلد الثور. وتحوط مرفقيه حلقات من العاج. وتتأرجح في كل من أذنتيه صفيحة من النحاس يبلغ طولها أربع بوصات، عبارة عن قرط وتعويذة في آن معاً. وفي أعلى قلنسونه، يتدلى ذيل ظبي. وكانت عصا الصيد تحمل باقة من ريش النعام الأسود الصغير. أما بالنسبة للون الطبيعي لجلد رئيس البيشوانا، فلا يمكن التكهن به تحت الطبقة الكثيفة ذات اللون الأمغر التي دهن بها جسده من القدمين حتى الرأس.



وكانت بضع حزات على الفخذ، أضحت مع الزمن ثابتة لا تزول، تدل على عدد الأعداء الذين قتلهم موليباهان.

هذا الرئيس الوقور الذي يتمتع بمكانة مرموقة لا تقل عن مكانة ماثيوستروكس نفسه. اقترب من الأوروبيين وسلم عليهم تباعاً بالأنف. ترك الروس أنفسهم يفعلون ذلك بجدية. بينما كان الإنكليز متحفظين أكثر. مع ذلك كان ذلك التزام احتفالي حسب العادات الإفريقية في تأدية واجبات الضيافة للأوروبيين.

ومع انتهاء هذا التعارف انسحب موليباهان دون أن يتفوه بكلمة واحدة.

- «والآن بما أننا تأقلمنا مع البشوانا، قال الكولونيل إفريست -لنهتم بشؤوننا دون أن نضيع يوماً أو ساعة واحدة».

لم يضع هباء يوم واحد ولا ساعة واحدة، مع ذلك -لفرط ما يتطلب تنظيم هذا الإستكشاف من العناية والتدقيق- لم تجهز اللجنة للرحيل قبل الأيام الأولى من شهر آذار. وهو التاريخ الذي كان قد عينه الكولونيل إفريست. في ذلك الوقت يكون فصل الأمطار قد انتهى والماء المحفوظ في ثنيات الأرض، يمكن أن يوفر منبعاً ثميناً لمسافري الصحراء.

حُدد إذن يوم الرحيل في الثاني من آذار. في ذلك اليوم كانت القافلة التي وضعت بأكملها تحت تصرف موكوم قد أضحت جاهزة. ودع الأوروبيون المرسلين في لاتاكو وغادروا الضيعة عند الساعة السابعة صباحاً.

«إلى أين نحن ذاهبون؟ سأل وليام إميري في اللحظة التي انعطفت فيها القافلة عند آخر كوخ في المدينة.

- إلى الأمام، سيد إميري، أجاب الكولونيل، حتى نجد موقعاً مناسباً لإقامة قاعدة!».

اجتازت القافلة في الساعة الثامنة الروابي المسطحة والمغطاة بشجيرات قزمه كانت تحوط ضيعة لاتاكو. وعلى الفور تجلت الصحراء بأخطارها ووعثائها ومصادفاتها أمام أقدام المسافرين.

* * *

عندما ينتهي التعارف

كان الموكب تحت إمرة البشماني يتألف من مائة شخص أولئك السكان الأصليين كانوا جميعاً من البشمان. رجال مجدون نادراً ماينفعلون أو يتشاجرون، قادرون على تحمل أشد أنواع الأعمال الجسدية المضنية. في السابق، وقبل وصول أفواج المرسلين، كان أولئك البشمانيون الكاذبون وغير المضيافين، لا يجيدون سوى القتل والنهب. وعادة ما كانوا يستغلون نوم أعدائهم ليقتلونهم. غير أنّ المرسلين استطاعوا إلى حد ما تغيير طبائعهم البربرية. مع ذلك يُعد هؤلاء السكان ممن ينهبون المزارع ويخطفون المواشي.

كانت عربات عشر شبيهة بعربة البشماني التي قادها إلى شلالات مورغيدا تشكل العتاد الناقل للبعثة. اثنتان من العربات عبارة عن بيت متجول يوفر الراحة والإقامة للأوروبيين.

وعلى هذا النحو كانت تتبع الكولونيل إفريست ورفاقة عربة سكن خشبية ذات أرضية جافة، مغطاة جيداً بقماش لا ينفذ منه الماء، ومجهزة بأنواع مختلفة من الأسرّة وأدوات الزينة هكذا يوفرن في أماكن التخييم الوقت الذي يهدر في نصب الخيمة، لأنها تكون منصوبة سلفاً.

أُعدت واحدة من العربات للكولونيل إفريست وزميليه السيد جون موران ووليام إميري. والأخرى يقطنها الروس، ماثيوستروكس ونيكولا بالاندرو ميشيل زورن. وأُعدت عربتان أخريان على النحو ذاته للإنكليز الخمسة والروس الخمسة الذين يشكلون فريق الملكة وقيصر.

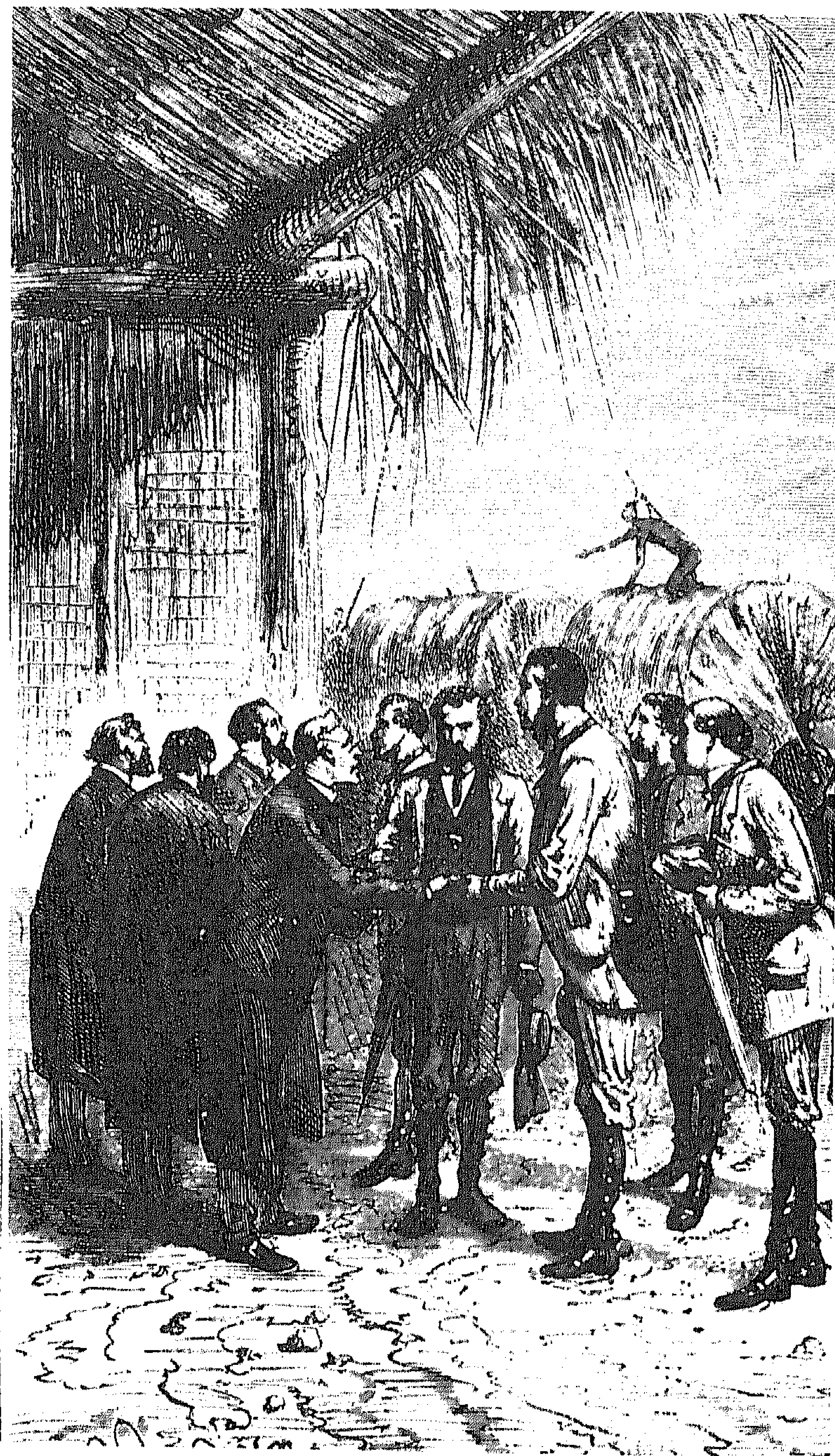
وبديهي عن القول أنّ هيكل وآلية الزورق البخاري بعد أن تم فكهما إلى قطع وحُملا في إحدى عربات البعثة كانا يتبعان المسافرين عبر الصحراء الأفريقية. إنَّ البحيرات كثيرة العدد في هذه القارة، بعضاً منها يقع على المسار الذي كانت اللجنة العلمية قد اختارته لذا سيكون الزورق ذا فائدة كبيرة لهم.

تنقل العربات الباقية الأدوات والمؤن ورزم المسافرين، وأسلحتهم وذخيرتهم والأدوات الضرورية لعملية التثليث(*) التي عزموا القيام بها. أمثال الأعمدة السهلة الحمل وعلامات الإرشاد، والفوانيس والحمالات الضرورية لقياس القاعدة وأخيراً الأدوات المخصصة لمئة رجل من موكب الحراس. كانت مؤونة رجال البُشمان تتكون بشكل أساسي من قديد اللحم، لحوم الظباء والثيران والفيلة، تُقطع إلى أجزاء مستطيلة وتُجفف في الشمس أو تُعرَّض لمصدر حراري بطيء، حتى يُمكن الإحتفاظ بها على هذا الشكل لعدة أشهر كاملة. هذه الطريقة في التحضير توفر استعمال الملح وتُتَبع بشكل واسع في المناطق التي ينقص فيها هذا المعدن المفيد. أما فيما يتعلق بالخبْز، فكان رجال البشمان ينوون تعويضهُ بثمار مختلفة أو بجذور مثل اللوز والفول السوداني وبثرات بعض الأنواع من نبات المُلاّح(*) كالتين البلدي والكستناء التي تحمل بشكل خاص اسم «خبز الكفر»(*). هذه الأغذية المقتبسة من مملكة النباتات يلزم تجديدها أثناء الطريق، أما فيما يخص الطعام من اللحوم، فعلى صيادي الموكب الذين

(*) - م. (عملية مسح الأراضي بالإستعانة بعلم المثلثات).

(*) - م. (جنس نباتات لحمية يزرع لزهره).

(*) - م. (تسمية أطلعتها العرب على تسم من أفريقيا في جنوب خط الاستواء ولا يخص إلا منطقتين من الكاب).



يستعملون بمهارة فائقة أقواسهم من خشب الصَبِر ورماحهم الطويلة أن يجوبوا الغابات والسهول ويمونوا القافلة بها.

كانت ستة ثيران بَلَدية من الكاب، طويلة السيقان، مرتفعة الأكتاف وكبيرة القرون مربوطة إلى مِجرّ كل عربة بقطع من جلد الجاموس. ولا ينبغي لهذه العربات الثقيلة التي تعد بالنسبة، لِنجارة العربات من النماذج الضخمة، أن تهاب الشواطىء أو المستنقعات، بل عليها أن تنتقل بثقة إنْ لم يكن بسرعة، على عجلاتها الضخمة.

أما فيما يخص المطيات المخصصة لخدمة المسافرين، فكانت من تلك الأحصنة القصيرة، من العرق الإسباني، سوداء اللون أو رمادية، تم استيرادها إلى الكاب من أصقاع أمريكا الجنوبية. إنّها حيوانات هادئة وشجاعة ذات قيمة كبيرة. ثمة أيضاً بين قطيع الدواب، نصف دزينة من «الكواغاس» وهي حمير بسيقان دقيقة وأشكال ربلة، يُذكر نهيقها بنباح الكلاب. تؤمن هذه الدواب الخدمة أثناء الإستكشافات الجزئية التي تقتضيها العمليات الجيودوزيه، ونقل الأدوات والمواعين إلى الأمكنة حيث تصعب المجازفة بالعربات الثقيلة.

كان البشماني، استثناء، يمتطي بسهولة ومهارة لافتة للعيان حيواناً رائعاً كان يثير إعجاب السيد جون موراي الضليع في هذه الأمور. إنّه حمار الوحش بفراء مخطط بشرائط سمراء عرضية وعلى جانب فريد من الجمال. كان طوله أربعة أقدام عند غاربِه(*) وسبعة أقدام من الخطم حتى

(*) م. (ما بين العنق والصهوة في الدواب).

الذيل. وبطباعه المحترسة والخبولة لا يقبل أيّ فارس سوى موكوم الذي كان قد سخره لاستعماله الشخصي.

وثمة بضعة كلاب من نوع نصف بري تُعرف أحياناً، خلافاً للأصول، تحت اسم «ضباع قناصة» تركض على جانبي القافلة. إنّها تذكرنا بأشكالها وآذانها الطويلة بالضبوط(*) الأوروبي.

تلك هي القافلة بمجموعها التي كانت تتوغل في صحارى أفريقيا. كانت الثيران تتقدم ببطء يقودها السائقون الذين كانوا يهمزونهامن كشحها. إنّه مشهد مثير للفضول أن تتقدم القافلة على طول التلال سائرة بمثل هذا النظام.

إلى أين كانت البعثة تتجه بعد أن غادرت لاتاكو؟

«لنتجه إلى الأمام» كان الكولونيل إفريست قد طلب.

في واقع الأمر، لم يتمكن الكولونيل وماثيو ستروكس من تحديد وجهة معينة، فما كانا يبحثان عنه قبل بدء عملياتها المثلثاتية، هو أرض واسعة منبسطة تماماً حتى يتمكنان من تحديد قاعدة أول هذه المثلثات التي يتوجب على شبكتها أن تغطي المنطقة الجنوبية من إفريقيا على امتداد عدة درجات.

شرح الكولونيل إفريست للبشماني ماهية الأمر. وباعتداد عالِم يأتلف مع اللغة العلمية تحدث الكولونيل إلى الصياد عن المثلثات والزوايا المتجاورة والقواعد وقياس الهاجرة والمسافات السمتية ... الخ. تركه

(*) م. (كلب صيد قصير الوبر مبقع الجلد مشهور بدقة ضبطه للطريدة).

البشماني يسهب في كلامه لعدة لحظات ثم قاطعة بحركة تنم عن نفاذ صبره.

- سيدي الكولونيل، أنا لا أفهم شيئاً في زواياكم وقواعدكم وخطوطكم. حتى أنني لن أفهم بأيّ صورة من الصور ماذا ستفعلون في الصحراء الإفريقية. غير أنّ هذا الأمر يعنيكم وحدكم. ماذا تطلب مني بالضبط؟ أرض منبسطة واسعة مستقيمة تماماً ومنتظمة تماماً؟ حسن، سوف أبحث عن مبتغاكم.

تحت إمرة موكوم، اتجهت القافلة التي كانت قد تجاوزت تلال لاتاكو نحو الجنوب الغربي. هذا الإتجاه كان سيعيدها أبعد بقليل إلى جنوب الضيعة - أي إلى المنطقة من السهل التي يسقيها نهر كورومان. كان البشماني يأمل العثور عند مستوى هذا الرافد على سهل ملائم لمشاريع الكولونيل.

منذ ذلك اليوم اعتاد الصياد على السير في مقدمة القافلة. وكان السيد جون موراي ممتطياً صهوة حصانه بمهارة لا يفارقة البتة. من وقت لآخر، كان دويّ الرصاص يعلن لزملاء السيد جون أنّه يقوم بالتعارف مع الفرائس الإفريقيه. أما الكولونيل المستغرق تماماً في شؤونه، فكان يترك العنان لحصانه ويفكر بمصير هذه البعثة التي يصعب بحق قيادتها وسط المناطق البرية.

أما ماثيوستروكس، تارة على صهوة حصانة وتارة في العربة، تبعاً لطبيعة الأرض، فكان غالب الأمر لا ينبس ببنت شفة- بينما كان نيكولا بالاندر، كأسوأ ما يمكن أن يكون عليه الفارس، يمشي على قدميه في غالب



الأحيان، أو ينفرد داخل عربته، هناك يغرق في أصعب أنواع مجردات الرياضيات الحديثة.

إذا كان وليام إميري وميشيل زورن، كلٌّ في عربته الخاصة أثناء الليل، فأنهما على أيّة حال يلتقيان أثناء سير القافلة - إنّ هذين الشابين يرتبطان في كل يوم جديد بعرى صداقة ستوثق حوادث الرحلة من عراها أكثر فأكثر. إنّهما من محطة لأخرى يمتطيان معاً. حصانيهما ويتجاذبان أطراف الحديث أو يتناقشان. يبتعدان في غالب الأحيان، إما إلى جنبات القافلة أو يتقدمانها بعدة أميال عندما يكون السهل مترامياً أمامهما على مدّ البصر. حينئذ يكونان أحراراً ويبدوان كتائهين وسط هذه الطبيعة الوحشية. يتناقشان بكل الأمور ما عدا العلم! متناسين الأرقام والمشاكل والحسابات وعمليات الرصد. لم يعودا على هذا النحو علماء فلك أو متأملين للقبة السماوية البراقة، بل شابان هاربان من المدرسة، سعيدان باجتياز الغابات الكثيفة والركض في السهول المترامية الأطراف، وبتنشق الهواء المتضوع بأريج الأزهار العبق، يضحكان، أجل يضحكان كما يضحك إنسان فان وليس مثل إنسان رصين عادة ما تشكل المذنبات والكواكب الأخرى محور حياته. لا يضحكان من العِلم البتة فهما يبتسمان أحياناً عندما يفكران بهؤلاء العلماء المتزمتين اللذين لا يربطهما أية صلة بهذا العالم ولم يكن في تصرفهما هذا أيّ خبث. لأنّهما من ذات الطبيعة الرائعة المتفتحة والودودة والمتفانية والمتناقضة بشكل خاص مع طبيعة رئيسيهما المتصلبة أكثر منها عنيدة، الكولونيل إفريست وماثيو ستروكس.

وتحديداً كان موضوع ملاحظاتهما هو هذان العالمان إذ بدأ وليام إميري بفضل صديقه ميشيل زون بمعرفة شخصيتهما.

- أجل، قال في ذات يوم ميشيل زورن، لقد قمت بمراقبتهما جيداً أثناء رحلتنا على متن الأوغستا. وأنا أرى نفسي لسوء الحظ مجبراً على الإقرار بذلك. كل واحد منهما يشعر بالغيرة إزاء الآخر. فإذا بدا للكولونيل إفريست أن يكون رئيساً لبعثتنا، عزيزي وليام، فإنّ ماثيو ستروكس لا يقل عنه قدراً في هذا الصدد. إذ حددت الحكومة الروسية بشكل واضح مركزه. إنّ رئيسينا متصلفان بالدرجة ذاتهما. بالإضافة لذلك، أكرر على مسامعك، ثمة بينهما غيرة علماء وهي أسوء أنواع الغيرة جميعاً.

- وهي من أكثر أنواع الغيرة التي لا مبرر لها. أجاب وليام إميري. ففي حفل الإكتشافات يشغل الجميع مراكزهم بجدارة ويستفيد الواحد من مجهود الأخرين بيد إذا كانت ملاحظاتك صحيحة وأنا أميل إلى هذا الأعتقاد، عزيزي زورن، سيكون ذلك ظرفاً مزعجاً لبعثتنا. إذ يلزمنا في واقع الأمر تفاهماً مطلقاً حتى تنجح عملية شائقه من هذا النوع.

- دون أدنى شك، رد ميشيل زورن، وأخشى أن يكون هذا التفاهم مفقوداً. تخيل معي الفوضى التي ستعم إذا كانت تفاصيل مثل اختيار القاعدة وطريقة الحساب، ومكان التوقفات والتحقق من الأرقام سيقود في كل مرة إلى مناقشة جديدة! إما أنني مخطىء تماماً أو أتنبأ بمماحكات عندما يتطلب الأمر مقابلة سجلينا، وتسجيل الملاحظات التي ستسمح لنا بتقدير طول يصل حتى أربعمئة ملم من القامة(*).

(*) - جزءان من المئة من الملم.

- أنت تخيفني، عزيزي زورن، قال وليام إميري. إنّه لمن الصعب في الحقيقة المجازفة بأنفسنا في مكان ناء كهذا ومن ثم الفشل لعدم الإلفة بين الأشخاص في مشروع من هذا النوع. فَلْنَدعُ الله إلا تتحقق مخاوفك.

- أتمنى ذلك يا وليام، انبرى الفلكي الروسي الشاب يقول. لكنني أكرر القول. أنّه خلال الرحلة البحرية شهدت بعض المناقشات حول الطرائق العلمية، والتي أثبتت عناداً شنيعاً عند الكولونيل إفريست ومنافسه على السواء. في الحقيقة أستشفُ من ذلك غيرة ميؤوس منها.

- بيد أنّ هاذين السيدين لايفترقان. نوه وليام إميري. فلا نفاجىء أحدهما إلاّ ويكون الآخر معه إنّهما لا ينفصلان وحتى أكثر اتحاداً منا نحن بالذات.

- أجل، أجابه ميشيل زورن. إنهما لا يفترقان البتة النهار بطوله، غير أنّهما لا يتبادلان عشر كلمات بل يراقب كل منهما الآخر وحسب. فإذا لم يتوصل واحدهما إلى السيطرة على الآخر، فسنعمل في ظروف يرثى لها حقاً.

- برأيك، سأل وليام متردداً بعض الشيء، أيّاً من العالمين تتمنى أن ... ؟

- عزيزي وليام، رد ميشيل زورن بصدق كبير. سأقبل بصدق ذاك الذي سيتمكن من فرض نفسه لمهمة الرئاسة. ففي هذه القضية العلمية، لا وجود للانحياز أو للكرامة الوطنية. كلاهما ماثيوستروكس والكولونيل



إفريست متميزان بنفس القدر. ويلزم على انكلترا أو روسيا أن تستفيد أيضاً من نتائج أعمالهما. لذلك لا يهم كثيراً أن يدير هذه الأعمال انكليزي أو روسي. ألست توافقني الرأي؟

- قطعاً ياعزيزي، أجابة وليام إميري. لن نترك أنفسنا عرضة لعبث الانحيازات، بل سنوظف نحن الاثنين وفي حدود قدراتنا جهود نا للصالح العام. لربّما استطعنا أن نحول دون هذه الضربات التي يتقاذفها المتنافسان. من جهة أخرى مواطنك نيكولا بالاندر...

- من! قال ميشيل زورن ضاحكاً. إنّه لن يرى شيئاً ولن يسمع شيئاً ولن يفهم شيئاً إنّه يقوم بالعمليات الحسابية لحساب تيودورس بشرط أن يقوم ذلك. لا هو بالروسي ولا بالإنكليزي ولا بالروسي ولا بالصيني. ولا حتى بساكن للكرة الأرضية. إنّه نيكولا بالاندر وانتهى الأمر.

- لا يختلف الأمر كذلك مع السيد جون موراي. رد وليام إميري. إنّ سيادته لشخصية بريطانية محضة، غير أنّه صياد حازم، يقذف بنفسه إثر زرافة أو فيل بسهولة أكبر مما لو تعرض لمناقشة في الطرائق العلمية. لا يمكننا الاعتماد إلا على أنفسنا، عزيزي زورن لتهدأة الإحتكاك المستمر بين رئيسينا. ومن المفيد الإضافة أنّه مهما يحدث سنكون دائماً وأبداً متآلفين بصدق وأمانة.

- دائماً، مهما يحدث! أجابة ميشيل زورن ماداً يده لصديقه وليام.

أثناء ذلك كانت القافلة التي يقودها البُشماني تتابع الهبوط نحو المناطق الجنوبية - الغربية. وظهر اليوم الرابع من آذار، وصلت القافلة إلى قاعدة التلال الطويلة المشجرة التي كانت تتبعها منذ لاتكو. لم يخطىء

لم يكن لأيّ حادث أن يغيّر من رتابة النزهة، لو لم يقتل السيد جون موراي برصاصة، من مسافة ألف ومئي مترٍ حيواناً عجيباً له خطم ثور وذيل أبيض طويل ويتسلح في جبينه بقرون مدببة. إنّه النوّ بقر وحشي، ولقد أصدر أنيناً أصماً عند سقوطه.

ذهل البشماني من رؤيته الحيوان يقع جثة هامدة وقد أُصيبه بدقة بالغة رغم المسافة البعيدة. عادة ما يوفر هذا الحيوان الذي يصل ارتفاعه إلى حوالي خمسة أقدام، كمية تستحق الذكر من اللحم الممتاز حتى أنّ هذا النوع من البقر كان يُطلب بشكل خاص من صيادي القافلة.

نحو الظهر تم بلوغ الموقع الذي أشار إليه المزارع. إنّه مرج واسع بلا حدود ويقع في الشمال وذو أرض مستوية تماماً. لا يمكن تخيل أرض أكثر ملائمة لقياس القاعدة. بعد أن أنهى البشماني فحص المكان عاد نحو الكولونيل إفريست وقال له:

- السهل المطلوب يا كولونيل.

* * *

قاعدة المثلث

كما هو معلوم، العملية الجيودوزية التي كانت البعثة ستباشرها هي عملية التثليث التي تهدف إلى قياس قوس الهاجرة. والحال هذه، يكون قياس الدرجة أو عدة درجات مباشرة، بوساطة مساطر معدنية توضع رأساً لرأس، عملاً غير قابل للتطبيق مطلقاً بالنسبة لدقة القياس الرياضي.

كما لايمكن من جهة أخرى لأي أرض، في أية نقطة من الكرة الأرضية، أن تكون مستوية لعدة مئات من الفراسخ لدرجة تكفي لصلاحها بشكل فعال لتنفيذ عملية معقدة كهذه. لحسن الحظ، يمكن أن نباشر العملية بطريقة دقيقة أكثر، بتقسم كامل الأرض التي ينبغي أن يجتازها خط الهاجرة إلى عدة مثلثات «هوائية»، تكون عملية تحديدها أسهل نسبياً.

ويمكن الحصول على هذه المثلثات بالتسديد عن طريق أدوات بعينها، المزولة(*) أو الدائرة المكررة(*) على علامات طبيعية أو اصطناعية، مثل الأجراس والأبراج والفوانيس والأوتدة. يبلغ المثلث كل علامة من هذه العلامات وتحسب الزاويا عن طريق الأدوات المذكورة سابقاً بدقة رياضية. . في واقع الأمر، يمكن لمراقب جيد أن يحدد أشياء معينة كالجرس في النهار أو الفانوس في الليل بدقة كبيرة، عن طريق التسديد بمنظار يقسم

(*) م. (مقياس الأبعاد).

(*) م. (آلة تستخدم في الفلك لحذف الخطأ في تقدير الزوايا).

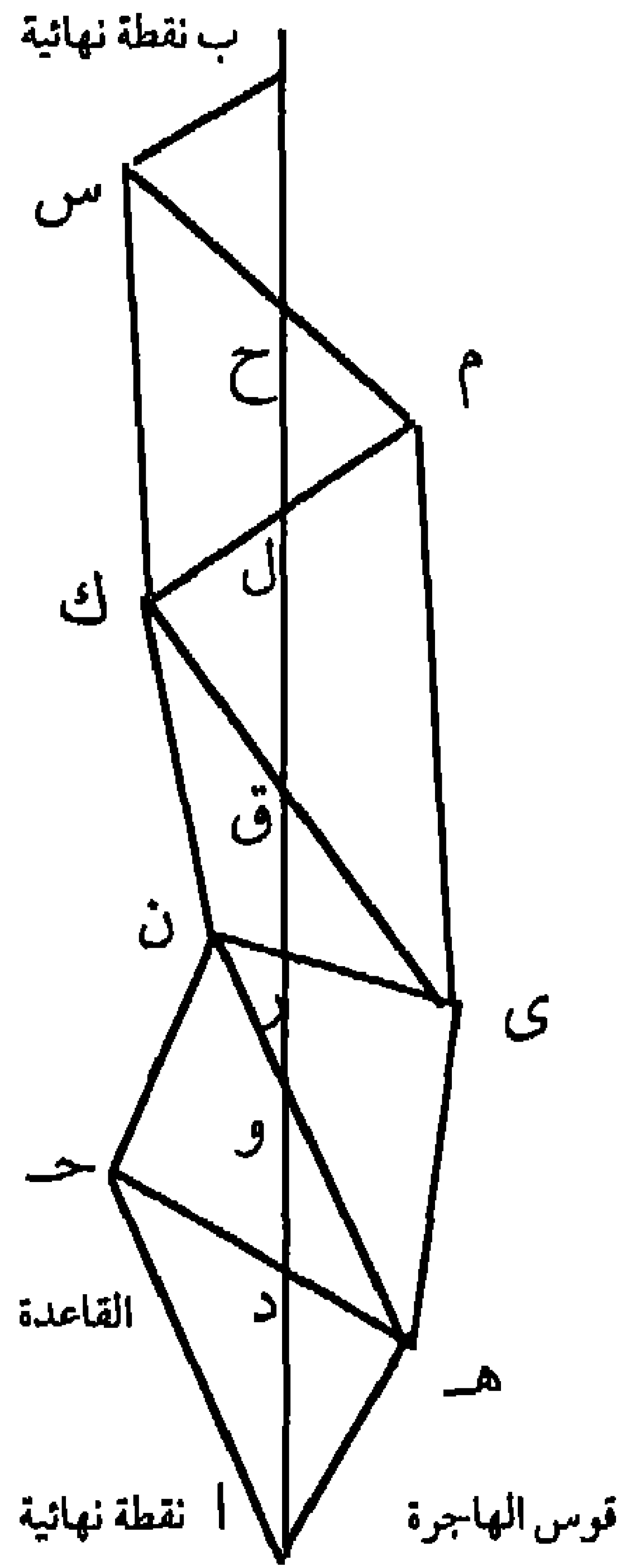
مداه خطوط الشبكية البصرية(*). فنحصل على هذا النحو على مثلثات يصل طول أضلاعها في أغلب الأحيان إلى عدة آلاف وحدة. بهذه الطريقة ضم أراغو(*) شاطىء فالانس في اسبانيا إلى جزر باليار بمثلث واسع وصل طول أحد أضلاعه. إلى اثنين وثمانين ألفاً وخمسمائه وخمسين قامة أي ما يعادل ١٦٠٠ كم أو ٤٠ فرسخاً.

والحال هذه، حسب مبدأ في الهندسة، يمكن الحصول على مساحة مثلث ما عند ما نعرف طول أحد أضلاعه وزاويتين منه. إذ يمكن استنتاج قيمة الزاوية الثالثة وطول الضلعين الآخرين مباشرة. وهكذا يؤخذ ضلع من المثلثات التي تم تشكيلها ليكون قاعدة لمثلث جديد، وبقياس الزوايا المتجاورة لهذه القاعدة، نحصل على هذا النحو على مثلثات أخرى ستقودنا بالتتابع إلى حدود القوس الواجب قياسه. بهذه الطريقة نحصل على أطوال الخطوط المستقيمة كلها المحصورة في شبكة المثلثات، وبسلسلة من الحسابات المثلثاتيه، نستطيع بسهولة تحديد طول قوس الهاجرة الذي يجتاز الشبكة بين النقطتين النهائيتين.

يمكن للشكل التالي أن يوضح سير العملية كاملة والتي تدعى التثليث. ليكن قوس الهاجرة هو المستقيم ا–ب. يتم تحديد بدقة متناهية طول القاعدة ا–حـ التي تبدأ من النقطة ا إلى أول محطة حـ. ثم يتم اختيار محطات أخرى من جهتي القوس ولتكن هـ، ن، ي، ك، م، س. تُقاس بالمزولة زوايا المثلثات احـ هـ، حـ هـ ن، ن ن ي ك ... الخ. فنحصل على طول القطعة هـ حـ لمعرفتنا طول ا حـ والزوايا. وبنفس الطريقة نحصل على

(*) – م. (شبكة خطوط أو نقط في عينية الآلة البصرية).

(*) – م. (فلكي وفيزيائي فرنسي شهير ولد سنة ١٧٦٦).



أطـوال الـقـطـع هــ ن، ن ي، ي ك، ك م، م س. بعـد ذلك تُقـاس الزاوية د ا حـ فنحـصل في المثلث ا حـ د على الضلع ا حـ والزوايا المتجاورة، فنحـصل على القطة ا د من قـوس الهـاجـرة. وتُحسب في نفس الوقت الزواية د والضلع حـ د فنحـصل في المثلث د هـ و على الضلع هـ د = حـ هـ- حـ د والزوايا المتجاورة فنحصل على القطعة الثـانيــة من القــوس د و. وهكذا دواليك يتم الحصول على أطوال الأضلاع و ر، ر ق، ق ل، ل ع، ع ب ويجـمع الأطوال نحـصل على طول قوس الهاجرة ا ب.

ولقد نوهنا سابقاً أنّه يمكن معرفة مساحة مثلث بمعرفة ضلع وزاويتين منه ويتم الحصول على هذه الزوايا عن طريق المزولة أو الدائرة المكررة. لكنّ الضلع الأول - قاعدة العملية برمتها - يلزم أولا «قياسه مباشرة على الأرض» بدقة متناهية للغاية. وهذا هو العمل الأكثر مشقة في عملية التثليث كلها.

عندما قاس دولامبير وميشان قوس الهاجرة في فرنسا من دانكرك حتى برشلونة، اعتمدا كقاعدة لعملية التثليث الخط المستقيم للطريق المؤدي من ميلون Melun حتى ليوسان Lieusaint في مقاطعة سين إي مارن Seine-et-Marne.

وصل طول هذه القاعدة إلى اثني عشر ألفاً ومئة وخمسين مترٍ. ولَزِمُ لقياسها أكثر من خمسة وأربعين يوماً. ما هي الطريقة التي لجأ إليها العالمان ليحصلا على دقة رياضية، هذا ما سوف تكشفه عملية الكولونيل إفريست وماثيوستروكس، اللذين سيحذوان حذو عالمي الفلك الفرنسيين، وسيعرفان إلى أي مدى كانت عملية ذنيك الآخرين دقيقة.

بدأت الأعمال الجيودوزية الأولية يوم الخامس من آذار ترافقها دهشة رجال البشمان الذين لم يتمكنوا قط من استيعاب الأمر برمته. كان قياس الأرض بمساطر طول الواحدة منها ستة أقدام موضوعة رأساً لرأس، يبدو للصياد مجرد تسلية علماء. على أيّة حال، لقد قام بواجبه خير قيام، إذا طلبوا منه سهلاً منبسطاً وقد عثر على بغيتهم.

في الواقع كان اختيار الموقع صائباً لقياس القاعدة مباشرة. يمتد السهل المكسو بالعشب الجاف المنبسط إلى ما وراء الأفق متتبعاً سطحاً ممهداً بشكل واضح. حقاً لم تكن شروط العمل في طريق ميلون مناسبة مثلما هي الحال عليه هنا. كان خط التلال التي تشكل التخم الأقصى الجنوبي لصحراء كالاهاري يتماوج في الخلف. في الشمال فضاء لا حدود له. ونحو الشرق تتلاشى بانحدارات بسيطة سفوح الأعالي التي تشكل هضبة لاتاكو. أما في الغرب، يتحول السهل بانحداره المتواصل إلى مستنقعات تخوض فيها مياه آسنة تغذي روافد كورومان.

- أظن ياكولونيل، قال ماثيوستروكس بعد أن لاحظ الغطاء العشبي. أظن أنّه بعد أن نُعدِ قاعدتنا نستطيع هنا تحديداً أن نعين النقطة النهائية للهاجرة.

- أنحو نحوك سيد ستروكس، أجاب الكولونيل إفريست. ما أن نحدد بدقة هذه النقطة، لزام علينا في الحقيقة أن نعلم، باستنادنا إلى الخريطة، ما إذا كان قوس الهاجرة يلتقي في هذا المسار، بعوائق يتعذر اجتيازها، ويمكن أن توقف سير العملية الجيودوزية.

- لا أظن ذلك. أجاب الفلكي الروسي.

- سنرى هذا الأمر. رد الفلكي الإنكليزي. لنقُس أولاً القاعدة في هذا المكان لملائمته لهذه العملية، وسنقرر بعد ذلك ما إذا كان مناسباً وصلها بسلسلة من المثلثات الإضافية إلى شبكة المثلثات التي تجب أن تجتاز قوس الهاجرة.

عند هذا الحد خَلُص الاثنان إلى الشروع دونما تأخير في قياس القاعدة. بالطبع ستستغرق العملية وقتاً أطول لأنّ أعضاء اللجنة الإنكليزية - الروسية يرغبون القيام بها بدقة لامتناهية. إذ يستلزم الأمر أن يحطموا الرقم القياسي للقياسات الجيودوزية التي تمت في فرنسا على قاعدة مليون، وهي مع ذلك قياسات شديدة الدقة، لم تدل قاعدة جديدة تم قياسها بعد ذلك قرب بربينيان، في الجنوب الأقصى من عملية التثليث والمستهدفة للتحقق من حسابات مثلثات لقاعدة ميلون، لم تدل هذه القاعدة الجديدة إلا على اختلاف بأحدى عشرة بوصة لمسافة مائه وخمسة وسبعين فرسخ بين القياس الذي تم الحصول عليه مباشرة والقياس الذي تم حسابه فقط.

وهكذا أُعطيت الأوامر للتخييم. وتم إعداد دون سابق تحضير قرية بشمانية في السهل. جُهزت العربات كمنازل حقيقية. وقسمت الضيعة إلى حي إنكليزي وحي روسي ترفرف فوق كل منهما الراية الوطنية. في الوسط

امتدت ساحة مشتركة. وراء الخط الدائري للعربات كانت الخيول والثيران ترعى تحت قيادة سائقيها. أثناء الليل. كانت تُساق إلى داخل النطاق الذي شكلته العربات خوفاً عليها من ضراوة الحيوانات المفترسة المنتشرة بكثرة في جنوب افريقيا.

أخذ موكوم على عاتقه تأمين رحلات الصيد المخصصة لتموين الضيعة. واهتم بشكل خاص السيد جون موراي الذي لم يكن حضوره ضرورياً لقياس القاعدة بمجال المؤونة. في الواقع كان مهماً إعداد اللحوم المحفوظة وتزويد القافلة يومياً بالمعتاد من لحوم الطرائد الطازجة. وبفضل براعة موكوم ومزوالته الصيد بشكل مستمر ومهارة رفاقه لم تكن الفرائس لتنقطع البتة. إنهم يجوبون السهول والتلال على بعد عدة أميال حول المخيم ويلعلع دويّ رصاص الأسلحة الأوروبية في كل وقت.

بدأت الأعمال الجيودوزية يوم السادس من آذار. وكُلِف العالمان الأكثر شباباً من اللجنة بالأعمال التمهدية.

- هيا بنا يا صديقي، قال بمرح ميشيل زورن لوليام إميري. ولتّساعدنا آلهة الدقة!

ترتكز العملية الأولى على رسم خط مستقيم على الأرض في الجزء الأكثر انبساطاً واستواء منها.

كان اتجاه هذا المستقيم بالنسبة لحالة الأرض يبدأ من الجنوب الشرقي إلى الشمال الغربي. حددت استقامته بوساطة أوتاد تغرز في الأرض على مسافات قصيرة وتُشكل أيضاً شخوصاً. كان ميشيل زورن المزود بمنظار

يتحقق من وضع هذه الأوتاد ويتأكدمن صحتها، عندما كان الخيط العمودي للشبكية البصرية يقسم صورها المحرقية كلها إلى أجزاء متساوية.

تم رفع هذا الخط المستقيم لمسافة تسعة أميال تقريباً، وهو الطول المفترض الذي كان الفلكيان يقدر انه لقاعدتهما. وزُود كل وتدفي أعلاه بعلامة تسديد تحديد بسهولة مكان المساطر المعدنية. يستدعى هذا النوع من العمل عدة أيام حتى تأتي نتيجته مثمرة. ولقد قام به الشابان بدقة لا تضاهى.

بعد ذلك يلزم وضع المساطر المخصصة مباشرة لقياس قاعدة أول مثلث رأساً لرأس. تبدو هذه العملية في ظاهرها بسيطة جداً بينما هي تتطلب أكبر قدر ممكن من التنبه والأحتراس، وعليها يعتمد نجاح القسم الأكبر من عملية التثليث.

هذه هي التدابير التي تم اتخاذها لوضع المساطر التي نحن بصددها والتي سيأتي وصفها لاحقاً.

أثناء الفترة الصباحية من اليوم العاشر من آذار، وُضعت دكات خشبية على الأرض حسب الخط المستقيم الذي تم تحديده. كانت هذه الدكات الاثنتا عشرة تستند من الأسفل على ثلاثة براغي حديدية تمنعها من الانزلاق وتُثبتها في مكان لا يتغير بفضل التحامها.

وفوق الدكات توضع قطع صغيرة من الخشب منتصبة تماماً، الغاية منها دعم المساطر واحتوائها داخل حاضنات خاصة. هذه الأخيرة تحدد اتجاه المساطر دون أن تعيق تمددها المتغير حسب درجة الحرارة والذي يجب أخذه بعين الاعتبار أثناء سير العملية.

عندما ثُبتت الدكات الاثنتا عشرة وغطيت بالقطع الخشبية، إنشغل الكولونيل إفريست وماثيو ستروكس بوضع المساطر بدقة متناهية. وشارك في العملية الشابان، بينما كان نيكولا بالاندر، القلم في يده، جاهزاً لتسجيل الأرقام المذكورة أمامه على سجل مضاعف.

عدد المساطر ستة وبطول ثم تحديده مسبقاً بدقة مطلقة. لقد تم مطابقتها مع القامة الفرنسية القديمة التي كانت تعتمد بشكل عام في القياسات الجيودوزية.

يبلغ طول المساطر قامتين وعرضها ستة أسطر بثخانة سطر واحد. وكان المعدن المستخدم في صناعتها هو البلاتين. معدن لا يتغير في العراء في الشروط الاعتيادية، ومقاوم للصدأ تماماً سواء في البرد أم في الحر. غير أنّ هذه المساطر البلاتينية تخضع لتمدد أو تقلص يجب أخذه بعين الاعتبار، بفعل الحرارة المتبدلة. لهذه الغاية تم ابتكار ميزان حرارة خاص تُزود به المساطر وهو ميزان معدني يقوم على الخاصية التي تملكها المعادن في أن تتغير بشكل غير متساو تحت تأثير الحرارة. لهذا السبب غطيت كل واحدة منها بمسطرة أخرى نحاسية يقل طولها قليلاً عن سابقتها، وكانت ورَنْيّة(*) موضوعة على الطرف الأقصى للمسطرة النحاسية، تشير بدقة إلى التمدد النسبي للمسطرة المذكورة، مما يسمح باستنتاج التمدد المطلق للبلاتين. بالإضافة إلى ذلك، ثم حساب تبدلات الورنية بطريقة يمكن بوساطتها تقدير التمدد مهما كان بسيطاً للمسطرة البلاتينية. نستشف من

(*) – م. (مقياس صغير منزلق يستعمل لتقسيم المسافة بين نقاط خط مستقيم أو قوس دائرة وهي باسم مخترعها).

ذلك إلى أيّ حد كانت العملية تتطلب الدقة. من جهة أخرى، كانت الورنية مزودة بمكروسكوب يسمح بتقدير أرباع المئة على الألف من القامة.

على هذا النحو وضعت المساطر فوق القطع الخشبية طرفاً لطرف دون أن تتلامس، إذ يتوجب تجنب الصدمات، مهما كانت خفيفة، التي قد تنتج عن احتكاك مباشر. وضع الكولونيل إفريست وماثيو ستروكس بأنفسهما المسطرة الأولى على القطعة الخشبية باتجاه القاعدة. وعلى بعد مئة قامة تقريباً من هناك، تم وضع علامة تسديد فوق أول وتد، وبما أنّ المساطر كانت مزودة بحرفين عاموديين من الحديد ثُبتا على المحور ذاته، يصبح من السهل وضعها تماماً في الإتجاه المرغوب. في الحقيقة فحص إميري وزورن اللذان تراجعا إلى الوراء وتمددا على الأرض، فيما إذا كان الحرفان الحديديان يظهران ناتئين تماماً في منتصف علامة التسديد. وبإتمام ذلك يمكن الوثوق باتجاه المسطرة الدقيق.

- والآن، قال الكولونيل إفريست، يتحم علينا تحديد وبدقة، نقطة البداية في عمليتنا عن طريق وصل خيط من الرصاص الماسّ إلى الطرف الأقصى من المسطرة الأولى. لا يمكن لأيّ جبل أن يؤثر بجاذبيته على الخيط، وبهذه الطريقة سوف نحدد تماماً طرف القاعدة على الأرض.

- أجل، أجابه ماثيوستروكس. بشرط أن نأخذ بالحسبان نصف ثخانة الخيط في نقطة الإحتكاك.

- أقدر ذلك أيضاً. رد الكولونيل إفريست.

وبتحديد نقطة البداية بشكل دقيق استمر العمل. بيد أنّه لا يكفي أبداً أن توضع المسطرة تماماً في الاتجاه المستقيم للقاعدة، بل يجب أيضاً الأخذ بالحسبان انحرافها بالنسبة للأفق.

- لا أظن أننا مطالبون، انبرى الكولونيل إفريست يقول، بوضع المسطرة في وضعية أفقية تماماً؟

- كلا، أجابه زميله، يكفي أن نحدد بمسواة، الزواية التي تصنعها كل مسطرة مع الأفق وبذلك نستطيع أن نختصر الطول المقاس مع الطول الحقيقي.

وباتفاق العالمين، بوشر العمل في هذا المجال بوساطة مسواة خاصة أُنشأت بشكل خاص لهذه الغاية، وتتألف من عضادة(*) متحركة حول مفصلة وُضعت في أعلى كوس خشبي. وكانت ورينة تشير إلى الانحراف بفضل توافق تقسيماتها مع تقسيمات مسطرة ثابتة تحمل قوساً من عشرة درجات قسم من خمس دقائق إلى خمس دقائق.

طُبقت المسواة على المسطرة وعرفت النتيجة. وبينما كان نيكولا بالاندر يُسجل على دفتره النتيجة بعد أن فحصها على التوالي العالمان. طلب ماثيو ستروكس أن تدور المسواة من طرف إلى طرف حتى يتمكن من قراءة اختلاف القوسين. كان هذا الفرق هو ضعف الإنحراف المطلوب وبذا يكون العمل قدتم التحقق منه. ومنذ ذلك الحين أُتبعت نصيحة الفلكي الروسي في كل العمليات من هذا النوع.

(*) - م. (جزء من أداة لمسح الأراضي).



أثناء ذلك تم رصد نقطتين هامتين. اتجاه المسطرة بالنسبة للقاعدة، والزاوية التي كانت تشكلها بالنسبة للأفق. سُجلت الأرقام الناتجة عن هذا الرصد على سجلين مختلفين، ووقع أعضاء اللجنة الإنكليزية الروسية على هامشهما.

بقي التركيز على عمليتين لا تقلان أهمية عن سابقتها من أجل إنهاء العمل الخاص بالمسطرة الأولى. أولاً اختلاف درجة ميزان الحرارة ومن ثم التقدير الدقيق للطول الذي كانت تقيسه.

بالنسبة للاختلاف الحراري، يتم الحصول عليه بسهولة بموازنة اختلافات الطول بين مسطرة البلاتين ومسطرة التماس. يُشير المكروسكوب الذي رصده على التوالي ماثيوستروكس والكولونيل إفريست إلى الرقم المطلق لاختلاف مسطرة البلاتين. اختلاف سُجل على السجل المضاعف ليتم تخفيضه بعد ذلك إلى درجة حرارة (١٦) درجة مئوية. وعندما حصل نيكولا بالاندر على الأرقام قام الجميع بمقابلة النتائج فوراً.

حينها يجب تدوين الطول المقاس فعلياً، للحصول على هذه النتيجة يلزم وضع المسطرة الثانية على القطعة الخشبية بعد المسطرة الأولى، مع ترك مسافة صغيرة بينهما. توضع الثانية كما وضعت سابقتها بعد أن يتم التحقق بدقة، فيما إذا كانت الحروف الأربعة الحديدية متراصفة تماماً مع منتصف علامة التسديد. لم يبق على هذا النحو إلا قياس المسافة الفاصلة بين المسطرتين. عند طرف الأولى وفي الجزء الذي لم يكن تغطيه مسطرة التماس ثمة لُسين صغير من البلاتين ينزلق باحتكاك بسيط بين مزلاقين. دفع الكولونيل هذا اللسين بطريقة يلامس فيها المسطرة الثانية. وبما أنّ

اللسين المذكور كان مقسماً إلى أجزاء العشرة على الألف للقامة، وأن ورينة حفرت على واحد من المزلاقين ومجهزة بمكروسكوب يعطي أجزاء المئة على الألف، تمكن تقدير بثقة رياضية المسافة المتروكة قصداً بين المسطرتين. سُجل على الفور الرقم على السجل المضاعف وتمت المقابلة بين النتائج.

وللوصول إلى تقدير أكثر دقة. حسب رأي ميشيل زورن، احتاط العلماء من شيء آخر. إنّ مسطرة التماس تغطي مسطرة البلاتين، فيمكن إذن أن يسخن البلاتين المحمي، بفعل تأثير الأشعة الشمسية أبطأ مما يحدث مع النحاس. ولتحاشي هذا الفرق في الاختلاف الحراري: تُغطى المساطر بسقف يرتفع إلى عدة بوصات بطريقة لا يعيق فيها عمليات الرصد المختلفة. أما عند المساء أو الصباح، عندما تلج الأشعة الشمسية المسددة بشكل مائل إلى ما تحت السقف وتبلغ المساطر كانت تُنشر خيمة من جهة الشمس بطريقة تحجب فيها الأشعة.

تلك كانت العمليات التي تم القيام بها بمثل هذا الصبر وهذه الدقة خلال أكثر من شهر. عندما كانت المساطر الأربعة قد وضعت تتابعاً وتم التحقق لكل واحدة منها، من الإتجاه والانحراف والتمدد والطول الفعلي. كان العمل يبدأ من جديد بنفس النظام، عن طريق إعادة الدكات والحوامل وأول مسطرة إلى جانب الرابعة. هذه الأعمال اليدوية كانت تتطلب الكثير من الوقت رغم مهارة من يقوم بها. إنّهم لم يستطيعوا قياس أكثر من مئتين وعشرين إلى مئتين وثلاثين قامة في اليوم.

وكذلك في الأوقات غير المؤاتية عندما كان الهواء يعصف بشدة ويمكن أن يزعزع ثقتهم بثبات الأجهزة كانت العملية تُعلق إلى حين آخر.

في كل يوم، عندما يقبل المساء، قبل ثلاثة أرباع الساعة تقريباً من الوقت الذي يصبح فيها عسيراً قراءة الأرقام من الورنيات، كان العلماء يوقفون أعمالهم ويأخذون الاحتياطات التالية حتى يعيدوا الكرّة صباح اليوم التالي. توضع المسطرة رقم (١) بصفة مؤقتة ويُشار على الأرض إلى النقطة الواجب أن تبلغها. عند تلك النقطة، يتم إحداث ثقب يغرز فيه وتد تُعلق فيه صفيحة من الرصاص. توضع مجدداً المسطرة رقم واحد على هذا النحو في موقعها النهائي بعد تعيين انحرافها واختلافها الحراري واتجاهها. تسجل الاستطالة التي قيست بالمسطرة رقم (٤) ثم بوساطة خيط من الرصاص الماسّ عند الطرف الداخلي للمسطرة رقم (١)، توضع علامة فوق صفيحة الوتد. عند هذه النقطة كان خطان متقاطعان بزاوية مستقيمة، واحد في اتجاه القاعدة والآخر في اتجاه عمودي، يُرسمان بعناية. ولأنّ صفيحة الرصاص كانت تغطيها قبه صغيرة من الخشب، يُسد الثقب ويُدفن الوتد حتى اليوم التالي. على هذا النحو يمكن إذا ما حدث طارىء ما بالنسبة للأجهزة أثناء الليل، لا يكون من الضرورة إعادة العملية من جديد برمتها.

في اليوم التالي، عند العثور على الصفيحة، كانت المسطرة الأولى توضع في نفس المكان الذي كانت فيه بالأمس بوساطة خيط الرصاص الذي يلزم أن تبلغ حافتة تماماً العلامة التي رسمها الخيطان. تلك كانت سلسلة العمليات التي تابعها العلماء خلال ثمانية وثلاثين يوماً على أرض السهل المستو بشكل مناسب. كتبت الأرقام جميعها على سجل مضاعف وتم التحقق منها ومقابلة النتائج وصدّق عليها أعضاء اللجنة.

قليلاً ما كان الكولونيل أو زميله الروسي يتناقشان حول أمر، أحياناً، تقدم أرقام تتم قراءتها عن الورنية، وكانت تُسجل اختلافاً بأربعة أجزاء من

المئة على الألف للقامة، الفرصة لتبادل كلمات مبطنة. لكن باستدعاء باقي الفريق لإبداء الرأي، كان رأي الأغلبية يصبح قانوناً يلزم الانصياع له.

أستدرجت مسألة واحدة المتنافسين الاثنين إلى ردود سريعة لاذعة. مما توجب تدخل السيد جون موراي. وكانت تلك تتعلق بالطول الواجب إعطاءه لقاعدة أول مثلث. من المؤكد أنّه كلما كانت القاعدة طويلة، كانت الزاوية التي تشكل قمة أول مثلث أسهل في القياس نظراً لانفراجها. مع ذلك لا يمكن لهذا الطول في أية حال من الأحوال أن يستمر إلى ما لا نهاية.

كان الكولونيل إفريست يقترح قاعدة بطول ستة آلاف قامة، مساوية تقريباً للقاعدة التي تم قياسها مباشرة على طريق ميلون. بينما كان ماثيوستروكس يرغب بتحديد هذا القياس إلى عشرة آلاف قامة طالما أنّ الأرض تسمح بذلك.

بدأ الكولونيل إفريست في هذه القضية متمسكاً بموقفة إلى أبعد حد. وكان يبدو على ماثيوستروكس عزمه على عدم الخضوع لرأي زميله. وبعد سرد اثباتات مستساغة تقريباً، تورطت الشخصيات بالجدل، مما قد يهدد ببروز قضية الجنسية في أية لحظة. لم يعد الاثنان مجرد عالمين وإنما إنكليزي وروسي واحد بمواجهة الآخر. ولحسن الحظ، توقفت هذه المشادة بعد وقت عصيب دام لعدة أيام. هدأت النفوس وتم الاتفاق بإجتماع الغالبية أنّ قياس القاعدة سيكون بشكل نهائي ثمانية الآف قامة تقريباً مما يقسم موضوع الخلاف نصفين.

بإيجاز تمت العملية بشكل جيد وبدقة لامتناهية. أما بالنسبة للدقة الرياضية فيجب تدقيقها لاحقاً بقياس قاعدة جديدة عند أقصى خط الهاجرة الشمالي.

وكانت نتيجة القاعدة التي قيست مباشرة، ثمانية آلاف وسبعة وثلاثين قامة وخمسة وسبعين جزءاً من المئة. وعلى أساسها سوف تقوم سلسلة المثلثات التي ستغطي شبكتها افريقيا الجنوبية لمسافة عدة درجات.

* * *

خط الهاجرة الرابع والعشرون

تطلب قياس القاعدة عملاً من ثمانية وثلاثين يوماً، ابتداء من السادس عشر من آذار وانتهاء بالثالث عشر من نيسان. وخلُص رئيساً البعثة كيلا يهدر لحظة واحدة إلى الشروع مباشرة بسلسلة المثلثات.

يلزم في بادىء الأمر رفع خط العرض في النقطة الجنوبية التي سيبدأ منها قوس الهاجرة الواجب قياسه، وإعادة العملية نفسها عند النقطة النهائية للقوس في الشمال. وعن طريق الفروق في خطوط العرض يمكن معرفة عدد درجات القوس المقاس.

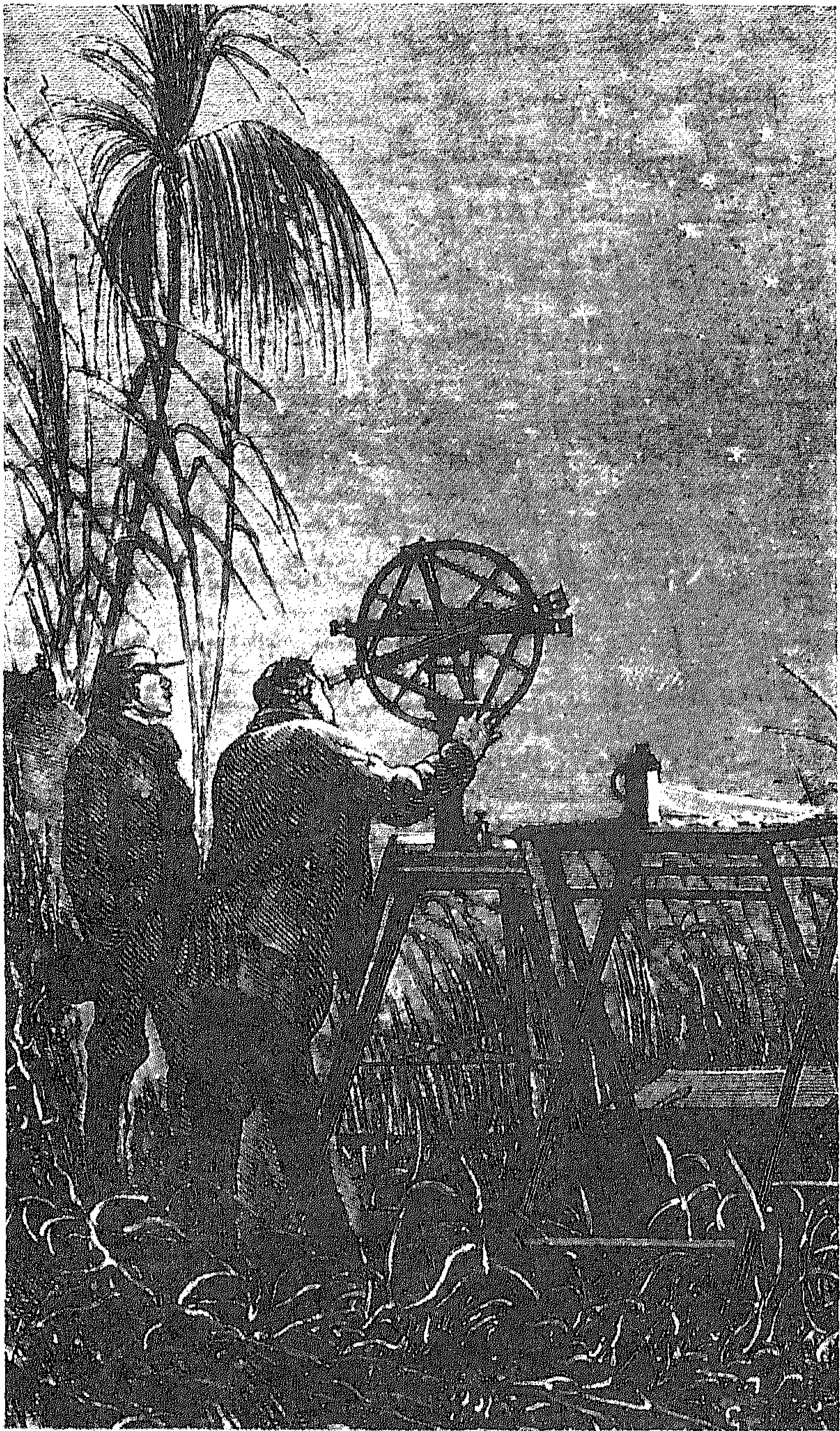
وابتداء من اليوم الرابع عشر من نيسان تم القيام بعمليات الرصد الأكثر دقة، والتي تهدف إلى تحديد خط العرض في مكان توقفهم. لقد حصل منسبقاً وليام إميري وميشيل زورن خلال الليالي السابقة التي تلت توقف عملية القاعدة، على عدة ارتفاعات للنجوم بوساطة الدائرة المكررة من صنع فورتان. وكان الشابان قد لاحظا وبدقة شديدة، أنّ حد الفروقات الأقصى لعمليات الرصد لا يتجاوز حتى الثانيتين في الساعة الستونية. وهي فروقات تعود على الأرجح إلى التغييرات في انكسار الأشعة الناتجة عن تبدل شكل الطبقات الجوية.

من هذه العمليات المكررة بدقة تم حساب خط العرض في النقطة الشمالية من القوس بقيمة تقريبية أكثر من كافية.

يبلغ خط العـرض هذا بدرجـات عـشـرية ٩٥١٧٨٩ , ٢٧ . بعـد الحصول على خط العرض، تم حساب خط الطول ثم الرجوع بالنسبة لهذه النقطة إلى خريطة ممتازة عن جنوب افريقيا أعدت على نطاق واسع . تصور هذه الخريطة الإكتشافات الجغرافية التي تمت حديثاً في هذا الجزء من القارة الإفريقية، وطرق المسافرين وعلماء الطبيعيات أمثال ليڤنيغستون Livingstone، اندرسون Anderson، ماغيارو Magyar، بالدوين Baldwin ڤايان Vaillant بورشيل Burchell وليشتينستان Lichteinstein . بعد ذلك يتم اختيار، من هذه الخريطة، خط الهاجرة الواجب قياس قوس منه بين محطتين تبعد فيه الواحدة عن الأخرى بعدة درجات . بديهي عن القول أنّه كلما كان القوس المقاس طويلاً، كان أثر الأخطاء الممكنة في تحديد خطوط العرض مُخَفَفاً .

وصل طول القوس من دانكرك حتى فورما نتيرا إلى عشرة درجات تقريباً على خط هاجرة باريس وتحديداً ٥٦ , ٩° .

والحال هذه، توجب في عملية التثليت الإنكليزية - الروسية التي سَيُباشر بها، اختيار قوس الهاجرة من ضمن محيط بالغ الكبر، مع الأخذ بعين الاعتبار عدم الاصطدام بعوائق طبيعية مثل الجبال التي يصعب عبورها، والمساحات الشاسعة من المياه التي يمكن أن توقف تقدم عمل المراقبين. لحسن الحظ، كان هذا الجزء من جنوب افريقيا على ما يبدو، ملائماً إلى أبعد حد لعملية من هذا النوع . ثمة بضع ارتفاعات بنسبة متواضعة كما أنّ الأنهار قليلة العدد يمكن اجتيازها بسهولة . لهذا يُرجح مواجهة المخاطر وليس العوائق .



في واقع الأمـر تشـغل صـحـراء كـالاهاري هـذا الجـزء من جنوب افـريقيا. عبارة عن بون شاسع يمتد من نهر أورانج حتى بحيرة نغامي، بين خطي الهاجرة العشرين والتاسع والعشرين. ويشمل عرضها المسافة الواقعة بين الأطلسي في الغـرب وخط الهـاجـرة الخـامس والعـشـرين شـرق خط غرينتش. على هذا الخط تحديداً تتبع عام ١٨٤٩ الدكتور ليڤنيغستون الحد الشرقي للصحراء متقدماً حتى بحيرة نغامي وشلالات الزامبيز. أما فيما يتعلق بالصحراء نفسها، فإنّها لا تستحق هذه التسمية بالمعنى الحرفي للكلمة. فهي ليست أراضي صحراء منبسطة كما يغرينا هذا الإسم بالظن. سهول رملية تخلو من النباتات ويصعب تقريباً عبورها بفعل القحط، وإنّما ينبت في صحراء كالاهاري كم متنوع من النباتات، وتغطي أرضها أعشاب وفيرة وتحوي أدغال كثيفة وغابات من أشجار باسقة، تتكاثر فيها الحيوانات كالفرائس البرية وحيوانات الشُقُر المتوحشة. تقطن فيها قبائل وتجتازها أخـرى مـرتحلة من البُشـمـان والبـاكـالاهـاري. بيـد أنّ الماء يشح في هذه الصحراء في أغلب أوقات العام. بسبب جفاف العديد من مجاري المياه التي تجتازها. ويضحو الجفاف على هذا النحو العائق الحقيقي لاستكشاف هذا الجزء من افريقيا. على أيّة حال. انقضى فصل الأمطار منذ فترة وشيكة العهد، ويمكن إلى حين الاعتماد على المدخرات الهامة من المياه الآسنة التي تحفظها المستنقعات والسبخات أو السواقي.

تلك كـانت المعلومـات التي قـدمـهـا الصـيـاد موكـوم. فـهـو يعـرف كـالاهاري لعبوره إياها عدة مرات، إما كصياد لحسابه الخاص، أو كدليل لإحدى الاستكشـافات الجـغـرافيـة. وعلى هذا اتفق الكولونيل إفـريست ومـاثيـوسـتروكس على أنّ هذا الموقع الشـاسع يوفـر كل الشـروط الملائمـة لعملية تثليث جيدة.

بقي اختيار خط الهاجرة الذي سيتم فيه قياس قوس من عدة درجات. هل يمكن لهذا الخط أن يمر من واحدة من نقطتي القاعدة النهائيتين مما يجنب العلماء إعادة ربط القاعدة إلى نقطة أخرى من كالاهاري بسلسلة من مثلثات إضافية؟

درست هذه الحالة بعناية شديدة، وبعد نقاش تم الإقرار على أنّ النقطة الجنوبية للقاعدة يمكن أن تكون نقطة البداية. وكان خط الهاجرة هو الرابع والعشرون شرق خط غرينتش. إنّه يمتد على مسافة لا تقل عن سبع درجات من الخط العشرين حتى السابع والعشرين دون أن يصادف عوائق طبيعية. هذا على الأقل ما كانت تشير إليه الخريطة. خط الشمال، كان يجتاز بحيرة نغامي في قسمها الشرقي. بيد أنّ هذا لا يعتبر إطلاقاً عائقاً يصعب تذليله. لقد واجه أراغو صعوبات كبيرة مختلفة تماماً عندما ضم بعملية جيودوزية شاطىء اسبانيا إلى جزر باليار.

إذن تم الاتفاق على قياس قوس من خط الهاجرة الرابع والعشرين الذي بامتداده في أوروبا يتيح الفرصة لقياس قوس شمالي على أراضي الإمبراطورية الروسية نفسها.

بدأت العمليات على الفور وانشغل العلماء باختيار النقطة التي ستصل إليها قمة أول مثلث تكون قاعدته هي القاعدة التي قيست مباشرة على الأرض.

اختيرت أول نقطة الى يمين خط الهاجرة. وكانت عبارة عن شجرة وحيدة تقع على بعد عشرة أميال تقريباً على مرتفع من الأرض. لقد كانت

مرئيه بشكل رائع سواء من الطرف الأقصى الجنوبي الشرقي للقاعدة. أو من طرفها الأقصى الشمالي الغربي. نقطتان وضع فيهما الكولونيل إفريست عمودين. كانت قمة الشجرة المنسلة تسمح بتحديد النقطتين بدقة شديدة.

انشغل العلماء في بادىء الأمر بقياس الزواية التي كانت تصنعها تلك الشجرة مع الطرف الجنوبي الشرقي للقاعدة ثم قياس هذه الزواية بالدائرة المكررة من صنع بوردا. والمخصصة لعمليات الرصد الجيودوزية. كان منظاراً الجهاز قد وضعا بطريقة يكون فيها محوراهما البصريان على سطح الدائرة تماماً. سُدد أحدهما إلى الطرف الشمالي الغربي للقاعدة والأخر على الشجرة المنعزلة التي اختاروها في جهة الشمال الشرقي. كان انفراج المنظار ان يشير على هذا النحو، إلى المسافة الزاويّة التي كانت تفصل هاتين المحطتين. وغني عن البيان أنّ هذا الجهاز الفريد من نوعه، والذي تمت صناعته باتقان بالغ، كان يسمح للمراقبين بتقليل أخطاء الرصد قدر ما يشاؤون.

في الحقيقة، عندما تتعدد عمليات التكرار تنتفي الأخطاء وتنعدم. أما بالنسبة للورنيات ومقياسات الأستواء وخيوط الرصاص المخصصة للتأكد من وضع الجهاز المنتظم فكانت هي الأخرى تخلو من أيّ عيب. تملك اللجنة الإنكليزي - الروسية أربع دوائر مكدرة. تستخدم اثنتان لعمليات الرصد الجيودوزية، مثل رفع الزوايا الواجب قياسها. الأخريان، التي كانت دوائرها قد وضعت بشكل عمودي، تسمحان بالحصول على مسافات سميتّة بوساطة آفاق اصطناعية، وبالنتيجة حساب خلال ليلة واحدة فقط خط عرض محطة ما بقيمة تقريبية لا تتعدى الجزء من الثانية.



في الحقيقة. كان يلزم في عملية التثليث العظيمة الشأن تلك، ليس الحصول على قيمة الزوايا التي تؤلف المثلثات الجيودوزية وحسب، وإنما كذلك قياس على عدة مسافات ارتفاع خط هاجرة النجوم، وهو ارتفاع مساو لخط عرض كل محطة.

بوشر العمل يوم الرابع عشر من نيسان. قام الكولونيل إفريست وميشيل زورن ونيكولا بالاندر بحساب الزاوية التي كان طرف القاعدة الجنوبي الغربي يصنعها مع الشجرة، بينما توجه ماثيوستروكس ووليم إميري والسيد جون موراي إلى الطرف الشمالي الغربي لقياس الزاوية التي كانت تصنعها الشجرة مع ذلك الطرف.

خلال هذا الوقت، طويت الخيام وربُطت الثيران. توجهت القافلة بقيادة البشماني نحو المحطة الأولى التي ستكون مكاناً للتوقف. كان اثنان من الأيائل مع سائقيهما اللذين فرزا لنقل الأجهزة، يرافقان المراقبين.

كان الجو صافياً تماماً وملائماً للقيام بالعملية من جهة أخرى قرر العلماء أنّه إذا صدَفُ وأصبح الجو عائقاً أمام عمليات الرفع، يتم القيام بعمليات الرصد خلال الليل بوساطة الفوانيس أو المصابيح الكهربائية التي جُهزت بها اللجنة.

سجلت خلال الليلة الأولى بعد الانتهاء من قياس الزوايتين، نتائج القياسات على سجل مضاعف بعد أن تمت مقابلة النتائج بدقة شديدة. وبحلول المساء تجمع العلماء بكاملهم مع القافلة حول الشجرة التي استخدمت كعلامة تسديد.

إنّها شجرة ضخمة من نوع باأوباب(*) baobab يصل محيط جذعها إلى أكثر من أربعة وعشرين قدماً. كانت قشرتها بلون الصوان تكسبها مظهراً خاصاً. وتحت الأغصان الضخمة لهذه الشجرة العملاقة، التي يحتشد فيها عالم من السناجب الشرهة لهذه الثمار الشبيهة بالبيض وذات اللُّب الأبيض، استطاع أفراد القافلة بكاملهم أن تجدوا مكاناً لهم. جهز طباخ الزورق الطعام للأوروبين، طعام لم يكن لينفذ البتة. لقد جاب صيادو القافلة الأنحاء وقتلوا عدداً من الظباء. لذا عبق الجو برائحة الشواء وأثارت شهية المراقبين التي لم تكن بحاجة لمن يثيرها أصلاً.

بعد هذه الوجبة التي جددت عزائم العلماء، أوى كل واحد منهم إلى عربتة الخاصة، بينما كان موكوم يوزع الحراس على أطراف المعسكر. لبثت نار عظيمة تغذيها الأغصان اليابسة للشجرة الضخمة متقدة الليل بطوله، وساهمت في إبعاد إلى مسافة لابأس بها، الحيوانات المفترسة التي كانت رائحة اللحم المشوي تغريها بالاقتراب.

مع ذلك. أفاق ميشيل زورن ووليم إميري بعد ساعتين من النوم. إذ لم ينتهي عملهما كمراقبين.

كانا يرغبان بحساب عرض هذه المحطة عن طريق رصد ارتفاعات النجوم. كلاهما دون أن ينشغلا بالاً بعناء النهار، جلسا إلى منظاري أجهزتهما. وبينما كان زئير الأسود وعواء الضباع يدوي في السهل المعتم، حددا بدقة الإنتقال الذي طرأ على السمت بمروره من المحطة الأولى إلى الثانية.

(*) م. (قام أداسون بقياس أشجار من هذه الفصيلة يصل قطرها إلى ستة وعشرين متراً في افريقيا الغربية).

قرية (كرال)

في اليوم التالي، الخامس والعشرون من نيسان استمرت العمليات الجيودوزية بلا توقف. إذ قيست بدقة الزاوية التي تصنعها محطة شجرة باأوباب مع الطرفين النهائيين للقاعدة، اللذين تشير إليهما الأعمدة.

كان هذا الرفع الجديد يسمح بالتحقق من المثلث الأول. بعد ذلك، اختيرت محطتان أخريان إلى يمين وإلى يسار خط الهاجرة. كانت أولى المحطات عبارة عن أكمة مرئية تماماً ترتفع ستة أميال في السهل، والأخرى عُيّن اتجاهها بوساطة علامة إرشاد على مسافة سبعة أميال تقريباً.

وعلى هذا النحو جرت عملية التثليث بشكل موفق خلال شهر كامل. وفي الخامس عشر من أيار كان المراقبون قد ارتفعوا درجة نحو الشمال بعد أن قاموا ببناء سبعة مثلثات بطريقة جيودوزية.

خلال السلسلة الأولى من العمليات كان الكولونيل إفريست وماثيوستروكس نادراً ما تقوم بينهما صلة ما. إذ كان توزيع العمل وحساب القياسات يستلزم انفصال العالمين. كانا يعملان كل يوم في محطات تفصل بينها عدة أميال، وهذه المسافة كفيلة بمنع نشوب مشاحنة يكون محورها حب الذات. وعندما يحل المساء، كان كل واحد منها يعود إلى المخيم ويلج مسكنه الخاص. صحيح إنّ بعض النقاشات كانت تدور مرة بعد مرة حول اختيار المحطات الواجب تحديدها بالإجماع، بيد أنّها لم تكن لتقود إلى مشادات جدية. هكذا كان في مقدور ميشيل زورن وصديقه وليم أن

يحلما بمواصلة العمليات الجيودوزية، بفضل انفصال المتنافسين الإثنين، دون أن يؤدي ذلك إلى انفجار غضب يستوجب من بعده الندم.

كما سلف وذكرنا، ارتفع المراقبون يوم الخامس عشر من أيار درجة إضافية ابتداء من النقطة الجنوبية لخط الهاجرة وأصبحوا على خط لاتاكو الموازِ للاستواء. كانت الضيعة الإفريقية تقع على بعد خمسة وثلاثين ميلاً شرق محطتهم.

لقد بُني حديثاً كرال واسع في هذه المنطقة. وهو يعد مكاناً مناسباً للتوقف. وبناء على اقتراح السيد جون موراي، تم الإجماع على أن تستريح البعثة فيه عدة أيام. وتوجب على ميشيل زورن ووليم إميري أن يستفيدا من هذا التوقف لقياس ارتفاعات الشمس. بينما سينشغل نيكولا بالاندو بتخفيض القياسات، بسبب اختلافات مستوى علامات التسديد، بطريقة يعيد فيها هذه القياسات إلى مستوى البحر. أما السيد جون موراي فكان يرغب التملص من واجباته العلمية وينشغل بدراسة حيوانات هذه المنطقة بطلقات بندقيته.

يُسمي سكان جنوب افريقيا الأصليون «كرال» أيّة قرية متحركة، أو ضيعة جوالة تنتقل من مرعى لآخر. إنّها عبارة عن أرض مسورة تتألف من ثلاثين مسكناً تقريباً، يقطن فيها عدة مئات من الأفراد.

تضم القرية التي وصلت إليها البعثة الإنكليزية - الروسية تجمعاً كبيراً من الأكواخ التي صفت بشكل دائري حول ضفاف ساقية، هي رافد لنهر كورومان. هذه الأكواخ المصنوعة من البُسط المستندة إلى قوائم خشبية،



بسط حيكت من نباتات الأسل والمشمعات، كانت تشبة بيوت النحل المنخفضة، حيث يُرغم مدخلها المغطى بالجلد، الساكن أو الزائر على الزحف على ركبتيه. وعبر هذه الفتحة الوحيدة تتصاعد دوامات من دخان لاذع سيجعل من صلاحية سكن هذه الأكواخ لغير البشمانيين أو الهوتنتيين أمراً مشكوكاً فيه.

بوصول القافلة ساد الهرج والمرج بين السكان أجمعهم. أخذت الكلاب التي تحرس الأكواخ تعوي عواء عنيفاً، وتقدم إلى الأمام محاربو القرية المسلحون برماحهم النحيلة وسكاكينهم وهراوتهم تحميهم دروع من الجلد. كان عددهم يقدر بمئتين وهو بذلك يشير إلى مكانة هذه القرية التي لا يقل عدد منازلها عن الستين وربما يصل إلى الثمانين. ويحجز هذه الأكواخ سياج من الأوتاد مزين بنباتات الأغاف agve الشائكة التي يتراوح طولها من خمسة إلى ستة أقدام، بذلك تكون هذه الأكواخ بمأمن من الحيوانات المتوحشة. مع ذلك، ما أن تفوه الصياد موكوم ببضع كلمات إلى واحد من رؤوساء القرية حتى انمحت بسرعة التصرفات الشرسة للسكان الأصليين. وأوكلت إلى القافلة مهمة إعداد المخيم قرب الحظائر على ضفاف النهر، لم يفكر رجال البُشمان في أن يتزاحموا على حصة القافلة من المراعي التي كانت تمتد هنا وهناك على امتداد عدة أميال. بهذا تستطيع الخيول والثيران والحيوانات المجترة الأخرى للبعثة أن تجد قوتها بوفرة دون أن تتسبب بالضرر للقرية الجوالة.

وتحت إمرة وتوجيهات البشماني. نُظِم المخيم على الفور وفق الطريقة المعتادة. إذ تجمعت العربات بشكل دائري وتفرغ كل امرؤ لشؤونه الخاصة.

أما السيد جون موراي فقد ترك رفاقه لحساباتهم وملاحظاتهم العلمية ورحل برفقة موكوم دون أن يهدر من وقته ساعة واحدة. إمتطى الصياد الإنكليزي حصانه المعتاد وموكوم حماره الوحشي.

كانت ثلاثة كلاب تتبعهما متوثبة، وتسلح كل منهما بغدارة صيد ذات طلقات تفجرّية، وهذا ما يشير إلى نيتهما في مهاجمة حيوانات المنطقة المفترسة.

توجه الصيادان إلى الشمال الشرقي، نحو منطقة من الغابات تقع على مسافة عدة أميال من القرية. كان الإثنان يمتطيان صهوة جواديهما الواحد قرب الآخر ويتجاذبان أطراف الحديث.

- آمل يا سيد موكوم، قال السيد جون موراي. أن تفي بما وعدتني به عند شلالات مورغيدا في أن تقودني إلى قلب المنطقة الأكثر تجمعاً للفرائس في العالم. غير أنّه عليك أن تعلم تماماً أنني لم آت إلى جنوب افريقيا لأصطاد أرانباً أو أقتل ثعالباً. فلدينا منها ما يكفي في اسكتلندا. قبل ساعة رغبت أن أرمي أرضاً...

- قبل ساعة! قاطعة البشماني. هل يسمح سيادته أن أقول له أنّه يستعجل الأمور. عليك قبل كل شيء أن تتجمل بالصبر، فأنا لا أتجمل به إلا عندما اصطاد وأعوضُ في هذه الظروف عن كل الأوقات التي كنت فيها نافذاً للصبر في حياتي. إنّك تجهل سيدجون أنّ صيد الحيوانات الضخمة علم قائم بذاته، إذ ينبغي أن تدرس البلد بعناية وعادات الحيوانات، بما في ذلك الأماكن التي تمر منها، ثم أن تدور حولها خلال ساعات مديدة حتى تستطيع أن تتعقبها بفضل رائحتها. هل تعلم أنّه عليك أن تحذر من أن تند عنك صرخة مباغته أو خطوة طائشة أو حتى تلقي بنظرة غير حذرة! لقد

بقيت أنا أياماً بكاملها، أترقب ثوراً أو مهاة، وبعد ستة وثلاثين ساعة من المكر والصبر. صرعت الحيوان. ولا أظنني هدرت وقتي هباءً.

- جيد جداً. يا صديقي، أجابه السيد جون موراي. سأضع تحت تصرفك ما تبغيه من الصبر، لكن لا تنس أن توقفنا لن يستمر إلا لثلاثة أو أربعة أيام. وعلينا ألا نهدر ساعة أو دقيقة من وقتنا!.

- تستطيع ذلك في حسابنا. أجاب البشماني بصوت هادىء جداً حتى أنّ وليام إميري لن يستطيع أن يتعرّف فيه على رفيقه في السفر عند نهر أورانج. سنضع ذلك في حسابنا. ستصطاد ما توفره لنا الظروف سيد جون. نحن لا نختار البتة. ظبي أم أيل، مهارة أو غزال، كلها مناسبة لصيادين ينقصهما الوقت!

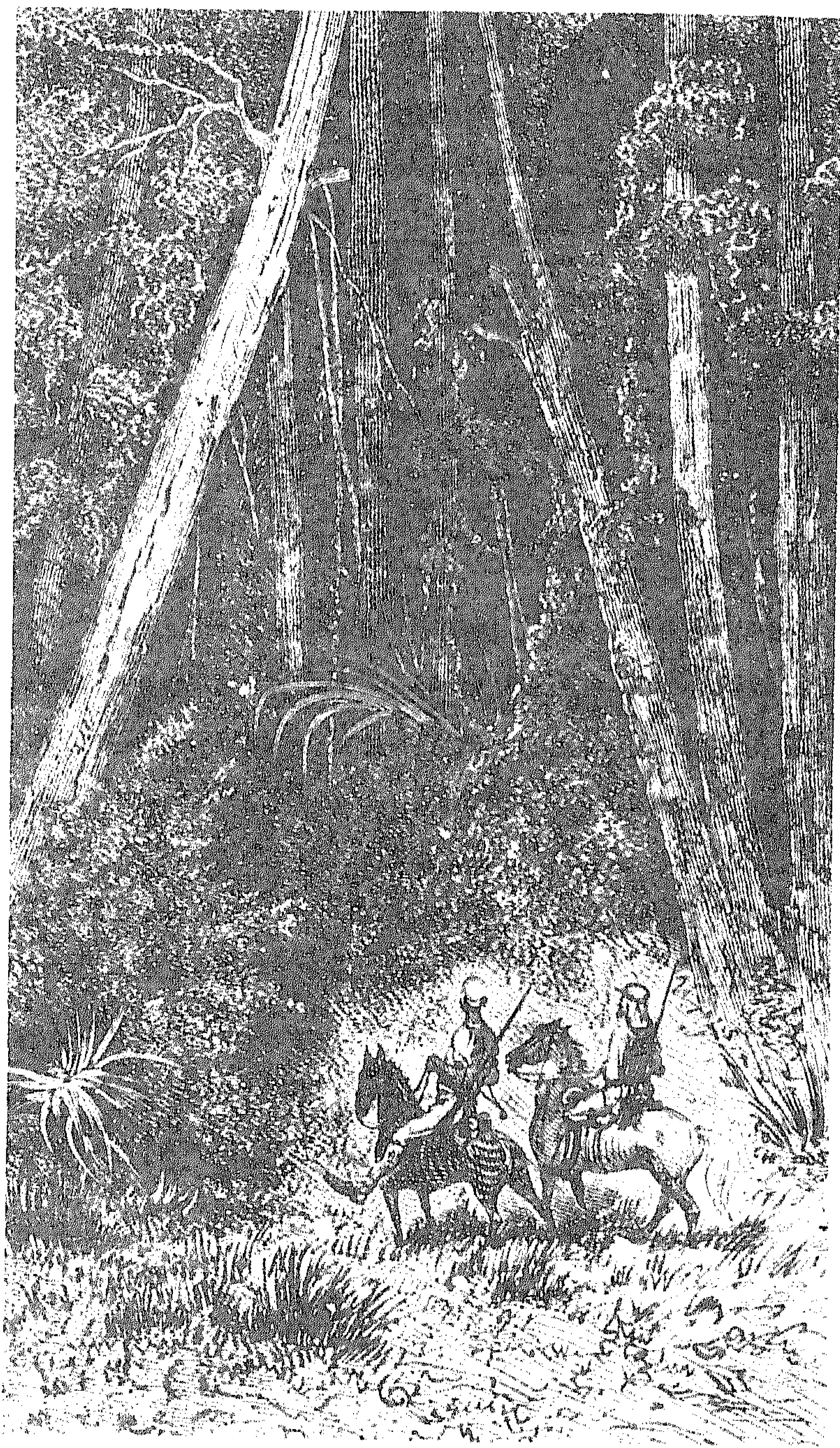
- ظبي أو غزال! صاح السيد جون موراي. أنا لا أطلب أكثر من ذلك كبداية على الأراضي الافريقية. لكن ماذا تأمل أنت أن تقدم لي أيّها البشماني الشجاع؟

رنا الصياد إلى رفيقه بنظرة غريبة ثم قال بصوت ساخر:

- من اللحظة التي تكون فيها سيادتك راضياً، لن يكون عندي ما أقوله. أظن أنك لا تعفيني بأقل من زوج من وحيد القرن أو من الفيلة؟ ...

- سأذهب أنى تقول لي أيها الصياد، رد السيد جون موراي. وسأصطاد ما تأمرني أن أصطاده. هيا، فَلْنسر قدماً ولا نضيع الوقت في اللغو.

عدت الخيول بوثبات سريعة وتقدم الصيادان بعجلة نحو الغابة.



كـان السـهل الذي يجتـاز انه ينحـدر قليـلاً نحـو الشـمـال الشـرقي. وكـانت تنبت فيـه هنا وهناك أدغـال لا تعد ولا تحصى في كـامل ازدهارها، ويسيل منهـا شفـافاً لزجاً راتنج(*) معطر يصنع منهـا المستعـمرون مرهمـاً للجروح. وكانت تنتصب بمجموعـات جميلة جداً أشجارتين فرعون التي كان جذعها العار على ارتفاع ثلاثين إلى أربعين قدماً يحمل مظلة كبيرة من الخضرة. وتقوقاً بين أوراق الأشجار الكثيفة مجموعـات من الببغـاوات الصاخبة التي تستعجل نقر التين المحمض للشجرة. وأبعد قليلاً ثمة نباتات الميموزا ذات العناقيد الصفراء. و«أشجار الفضة» التي تهز باقاتها الناعمة، ونبـاتات الصبر ذات السبلات الطويلة والحمرة القانية التي تشبه التجمع التشجري لنباتات المرجان المنزوعة من أعماق البحار.

كانت الأرض المزينة بنباتات الآمارلسن الرائعة ذات الأوراق الزرقاء تطرح نفسها أمام عدو الأحصنة السريع. وبأقل من ساعة منذ مغادرتهما القرية. كان السيد جون موراي وموكوم قد وصلا إلى أطراف الغابة. إنّها غابة ضخمة من أشجار الآكاسيا التي كانت تمتد إلى عدة أميال مربعة، هذه الأشجار التي يتعذر عدُّها، والتي تنبت بشكل عشوائي، تتشابك أفنادها بشكل يمنع أشعـة الشمس من الوصـول إلى الأرض التي كـانت تغـزوها الأشـواك والأعشـاب الطويلة السـاق. مع ذلك لم يتـردد حمـار موكـوم الوحشي ولا حصـان السيد جون في التقدم تحت هذه القبة الكثيفة، وأن يشقا درباً لهما بين الجذوع المتفرقة بشكل عشوائي. هنا وهناك تتسع بعض الفرجات وسط الحرجات حيث يتوقف الصيادان لمراقبة الأدغال المجاورة.

ولزام القول أن اليوم الأول هذا لم يرق لسيادته. لقد جاب ورفيقه عبثاً قسماً واسعاً من الغابة، ولم يُزعج نوع واحد من الحيوانات والافريقية

(*) - م. (مادة صمغية لزجة تفرزها بعض النباتات لا سيما الصنوبر).

نفسه لاستقبالهما. فكر السيد جون أكثر من مرة بسهولة الاسكتلندية حيث لا تنتظر الطلقة طويلاً لتخرج من مكمنها. ربما كان قربُ القرية قد ساهم بإبعاد الفرائس الحذرة. أما موكوم فلم يَبْد عليه العجب أو الغيظ. بالنسبة له هذا الصيد لم يكن صيداً وإنما سباق عجل عبر الغابة.

نحو الساعة السادسة مساءً، كان عليهما أن يهمّا بالعودة إلى المخيم. غير أنّ السيد جون موراي كان منزعجاً للغاية وغير راغب بالعودة. كيف لصياد مُحنك مثله أن يرجع بخفي حنين كما يقولون! أبداً لن يحدث ذلك. لقد إتخذ قراره بالتسديد على أول حيوان سواء أكان من الطيور أم من ذوات الأربع. طريدة أم حيوان متوحش يمكن أن يمر أمام مرمى بندقيته. ويبدو أنّ القدر قد يسر له ذلك. فما أن أضحت المسافة التي تفصل الصيادين عن القرية تقرب من الثلاثة أميال حتى كان حيوان قاضم من النوع الافريقي الذي يدعى «لوبوس روبيستريس» Lepus rupestris بما معناه أرنب بري، ينسل من دغل على بعد مئة وخمسين قدم من السيد جون. لم يتردد ذلك الأخير وقذف الحيوان المسالم بطلقة من غدارته.

صرخ البشماني ساخطاً. أيُقتَل أرنب بري بطلقة حريّ أن توجه إلى ستة من الأرانب! لكنّ الصياد الأنكليزي كان متشبثاً بطريدته، فعدا بفرسه نحو المكان حيث ينبغي أن يسقط فيه الحيوان.

غير أنّ ذلك كان مضيعة للوقت! لم يُعثر على أثر للأرنب. فقط يضع قطرات من الدم على الأرض دون جلد. كان السيد جون يبحث تحت الأدغال وبين طاقات الأعشاب وفتشت الكلاب دون جدوى عبر الحُرجات.

- مع ذلك لقد أصبته! صاح السيد جون.

- أصبته جداً! رد البشماني بهدوء. عندما نسدد طلقة متفجرة على أرنب يكون من المدهش حقاً أن نعثر على جزء منه!.

وفي واقع الأمر لقد تمزق الأرنب إلى قطع لا يمكن إدراكها باللمس! امتطى سيادته حصانه مغتاظاً للغاية من نفسه وعاد إلى المخيم دون أن ينبس ببنت شفة.

في اليوم التالي، توقع البشماني أن يفاجئه السيد جون موراي باقتراحات جديدة عن الصيد، غير أنّ الإنكليزي الذي عانى جداً من كبريائه تجنب الالتقاء بموكوم. وبدا عليه متناسياً لأي مشروع عن الصيد. وانشغل في فحص الأدوات والقيام بالرصد. وليسيريّ عن نفسه، زار قرية البشمانيين وشاهد الرجال يمارسون استعمال القوس، والعزف على «الكورا» وهي أداة مؤلفة من مصران شدَّ إلى قوس يقوم الفنان بالنقر عليه بريشة من ريش النعام فينشأ الصوت عن الأهتزاز. أثناء ذلك، تفرغت النسوة لشؤونهن المنزلية وهن يدخن الـ «ماتوكوانه» Matokouané وهي نبتة مضرة للصحة من أنواع القنب. يظن القسم الأكبر من السكان الأصليين إنها مجرد تسلية. غير أن بعض المسافرين قد لاحظوا أنّ استنشاق هذا القنب يزيد من القوة الجسدية ويضعف من الطاقة المعنوية. في الواقع كان العديد من البشمانيين يبدون بليدين وسكارى بفعل هذه النبتة.

في اليوم التالي، السابع عشر من أيار، أيقظت السيد جون موراي في الفجر جملة بسيطة لفُظت في أذنه:

- أظن يا سيدي أننا سنكون أوفر حظاً هذا اليوم، لكننا لن نقتل الأرانب بمدافع جبلية.

لم يتردد السيد جون موراي عند سماعه هذه التوصية الساخرة، وأعلن جاهزيته للرحيل إبتعد الصيادان عدة أميال إلى يسار المخيم قبل أن يستيقظ رفاقهما. كان السيد جون يحمل هذه المرة بندقية رائعة عادية من صنع غولدوين. وهي الحق يقال مناسبة أكثر لصيد الآيائل أو الظباء من الغدارة الرهيبة. صحيح أن صفيقات الجلود والكواسر يمكن أن تتواجد في السهل، بيد أنّ قلب السيد جون كان مثقلاً «بانفجار» الأرنب، ويفضل التسديد على أسد بالخردق من أن يعاود ضربة مماثلة لا سابق لها في تاريخ رياضة الصيد.

في ذلك اليوم كما توقع موكوم. آزر القدر الصيادين. لقد قتلا زوجاً من الـ «هاريس بوك» Harrisbucks وهو نوع نادر جداً من الظباء السوداء اللون التي يَصعب قتلها. إنها لحيوانات رائعة، ارتفاعها أربعة أقدام، تحمل قروناً طويلة متشعبة ومستديرة بأناقة على شكل السيوف المعقوفة، خطمها مسترق مضغوط جانبياً. كان الحافر الأسود والجلد الناعم المشدود والآذان الضيقة المقرّنة، والبطن والوجه ذو البياض الناصع، تتناقض مع فراء ظهرها الأسود الذي كان يلامس عُرفُها المتموج. كثيرون هم الصيادون الذين يتفاخرون بهذا التسديد، لأن هذا الظبي كان أمنية كافة أنواع البندقيات، فهو واحد من أروع عينات حيوانات جنوب إفريقيا.

لكنّ ماخفق له قلب الصياد الإنكليزي كانت بضع آثار دل عليها البشماني عند أطراف حرُج كثيف، غير بعيدة عن مستنقع واسع عميق تحيطه نباتات الفريبون الضخمة ويزين سطحه بالكامل تويجات زرقاء لزنابق الماء.

- سيدي قال له موكوم، إذا رغب سيادته أن يأتي في الساعات الأولى للصباح ليتريض في هذه المنطقة فسأنصحة هذه المرة ألا ينسى البتة عذارته.

- ما الذي يجعلك تقول هذا يا موكوم؟ سأل السيد جون موراي.

- هذه الآثار الطرية التي تراها على الأرض الرطبة.

- ماذا؟ أهذه الاثار الضخمة من صنع الحيوانات؟ كيف ذلك والأقدام التي صنعتها يصل محيطها إلى أكثر من نصف قامة!؟

- هذا يثبت بكل بساطة، أجاب البشماني، أن الحيوان الذي يترك آثار كهذه، يصل ارتفاعه على الأقل إلى تسعة أقدام.

- فيل! صاح السيد جون موراي.

- أجل يا سيدي. وإذا لم أكن مخطئاً، هو ذكر يافع بلغ كامل نموه.

- إذن إلى اللقاء غداً أيّها البشماني.

- إلى الغد يا سيدي.

رجع الصيادان إلى المخيم بطريدتهما بعد أن حملاّها على حصان السيد جون موراي. لقد أثارت هذه الظباء الجميلة التي يندر القبض عليها إعجاب القافلة أجمعها. هنأ الجميع السيد جون ما عدا ماثيوستروكس الرصين الذي، في عالم الحيوانات لم يكن يعرف إلا الدب الأكبر وكوكب التنين والفرس الأعظم والظُلمات(*) ونجوم أخرى من الحيوانات السماوية.

(*) م. (كوكبة تُمثّل بشخص مقدمه مقدمّ إنسان ومؤخره مؤخر فرس).

في اليوم التالي نحو الساعة الرابعة صباحاً كان رفيقا الصيد يلبثان بلا حراك فوق صهوة حصانيهما، والكلاب إلى جانبيهما، ينتظران وسط حرجة كثيفة وصول قطيع الفيلة. لقد زاد يقينهما عند رؤويتهم لآثار جديدة، بأن الفيلة كانت تأتي بمجموعات لتشرب من المستنقع، تسلح كلاهما بغدارة مخططة ذات طلقات تفجيريه وأخذا يراقبان الحُرجة منذ ما يقارب نصف ساعة، متسلحين بالهدوء والصمت، عندما شاهدا الكتلة الداكنة. تتحرك على بعد خمسين خطوة من المستنقع.

أمسك السيد جون موراي ببندقيته غير أنّ البشماني أمسك بيده وأشار عليه بالتزام الصبر.

بعد فترة وجيزة بانت ظلال كبيرة. تناهى لسمعهما صوت الأدغال وهي ترزح تحت وطأة ضغط لا يقاوم. كان الخشب يقصف والعليق المسحوق يطقطق على الأرض، ونفس صاخب يتسلل عبر الأفناد. إنّه قطيع الفيلة. كانت نصف دزينة من هذه الحيوانات العملاقة التي تقارب بضخامتها أمثالها الهندية، تتقدم بخطى وئيدة نحو المستنقع.

كان نور الصباح الذي ينبلج شيئاً فشيئاً يسمح للسيد جون أن يبدي إعجابه بهذه الحيوانات القوية ولفت انتباهه على الأخص ذكر بقامة ضخمة. كانت جبهته العريضة والمحدبة تتوسط أذنتين واسعتين تتدليان حتى أسفل صدره. وكان حجمه الضخم يبدو متنامياً أكثر بفعل الظل. إنّه يلوّح بخرطومه فوق الدغل ويضرب بأنيابه المقلوبة الجذوع الضخمة للأشجار التي كانت تئن تحت وطأة الضربات. لربما كان الحيوانات يستشعر خطراً قريباً.

مع ذلك انحنى البشماني على أذن السيد جون وقال له :

– هل يناسبك هذا الفيل؟

أومأ السيد جون بإشارة إعجاب .

– حسن ، أضاف موكوم ، سنقوم بإبعاده عن بقية القطيع .

أثناء ذلك ، كانت الفيلة قد بلغت حافة المستنقع وانغرزت أقدامها الإسفنجية في الوحل الرخو . إنّها تغرف المياه بخرطومها وتمرره في حلقومها الواسع مصدرة بقبقة مدّوية . كان الذكر الأكبر الذي بانت عليه علائم القلق ينظر حوله ويشم بجلبة الهواء حتى يلتقط أيّة رائحة مشكوك فيها .

فجأة ، أصدر البشماني صيحة خاصة . وعلى الفور انسلّت كلابه الثلاثة وهي تعوي عواء قوياً خارج الحُرجة وأسرعت نحو قطيع الفيلة . في الوقت ذاته همز موكوم حماره الوحشي بعد أن قال لرفيقة كلمة واحدة «انتظر في مكانك» واجتاز الغابة لكي يمنع الفيل من الهرب .

على أيّة حال ، لم يكن هذا الحيوان الرائع يرغب الإختفاء عن الأنظار . كان السيد جون يراقبه وأصبعه فوق زناد بندقيته . كان الفيل يضرب الأشجار بخرطومه ويهز بتهيج ذيله ، مشيراً بذلك ليس إلى قلقه وإنما إلى ثورة غضبه . . . كان حتى فترة وجيزة يشعر بعدوه لكنه في هذه اللحظة يراه وينقض عليه .

لبث السيد جون موراي على بعد ستين خطوة من الحيوان وانتظر حتى أصبح على بعد أربعين خطوة منه ثم سدد على كشحه وأطلق النار .

بيد أنّ حركة من الحصان غيرت مسار الطلقة الصحيح ولم تخترق على هذا النحو إلا طبقات اللحم الطرية دون أن تصادف في طريقها عائقاً يكفي لانفجارها.

ضاعف الفيل مهتاجاً من عدوه الذي كان بالحري سيراً يتنامى في سرعته أكثر منه عدواً. لكنّ هذا السير كان كافياً ليتجاوز حصاناً.

رمى حصان السيد جون بنفسه خارج الحرجة بعد أن شبّ مهتاجاً دون أن يتمكن سيده من السيطرة عليه البتة. كان الفيل يلاحقه مُشرّعاً أذنية ومُطلقاً دويّاً بخرطومه شبيهاً بنداء البوق. كان الصياد المحمول على مطيته والذيَ يشد عليها بقدميه القوتيين يحاول أن يزلق خرطوشة في بندقيته.

أثناء ذلك كان الفيل يتجه نحوه وأضحى الإثنان في السهل خارج حدود الغابة. كان السيد جون يمزق بمهمازيه كشحي جواده الذي كان يزداد احتداداً. وكان اثنان من الكلاب يعويان عند أقدامه وقد وليا الأدباربشق الأنفس. لم يكن الفيل في الخلف على مبعدة منهم، فقد كان السيد جون يشعر بتنفسه الصاخب ويسمع أصوات صفير الخرطوم الذي كان يملأ الأجواء. إنّه يتوقع في كل لحظة أن ترفعه عالياً من سرجه هذه الانشوطة الحية.

فجأة انثنى الحصان عند مؤخرته، فقد أصابه الخرطوم بضربة عند كفله. أطلق الحصان صهيلاً موجعاً وابتعد جانباً مما أنقذ السيد جون من موت محقق. وتجاوزه الفيل مسحوباً بسرعته، غير أنّ خرطومه وهو يكتسح الأرض التقط واحداً من الكلاب وأخذ يهزه في الهواء بعنف يتجاوز الوصف.

لم يكن أمام السيد جون أيّ مهرب سوى العودة إلى الغابة وقد حملته إليها غريزة حصانه. وسرعان ما اجتاز حدودها باندفاع كبير.

استعاد الفيل السيطرة على نفسه وعاد لملاحقته ملوحاً بالكلب البائس الذي حطم رأسه في جذع شجرة تين وهو يسرع الخطى نحو الغابة. انسل الحصان في دغل كثيف تنتشر فيه العرائش المجدولة وتوقف هناك.

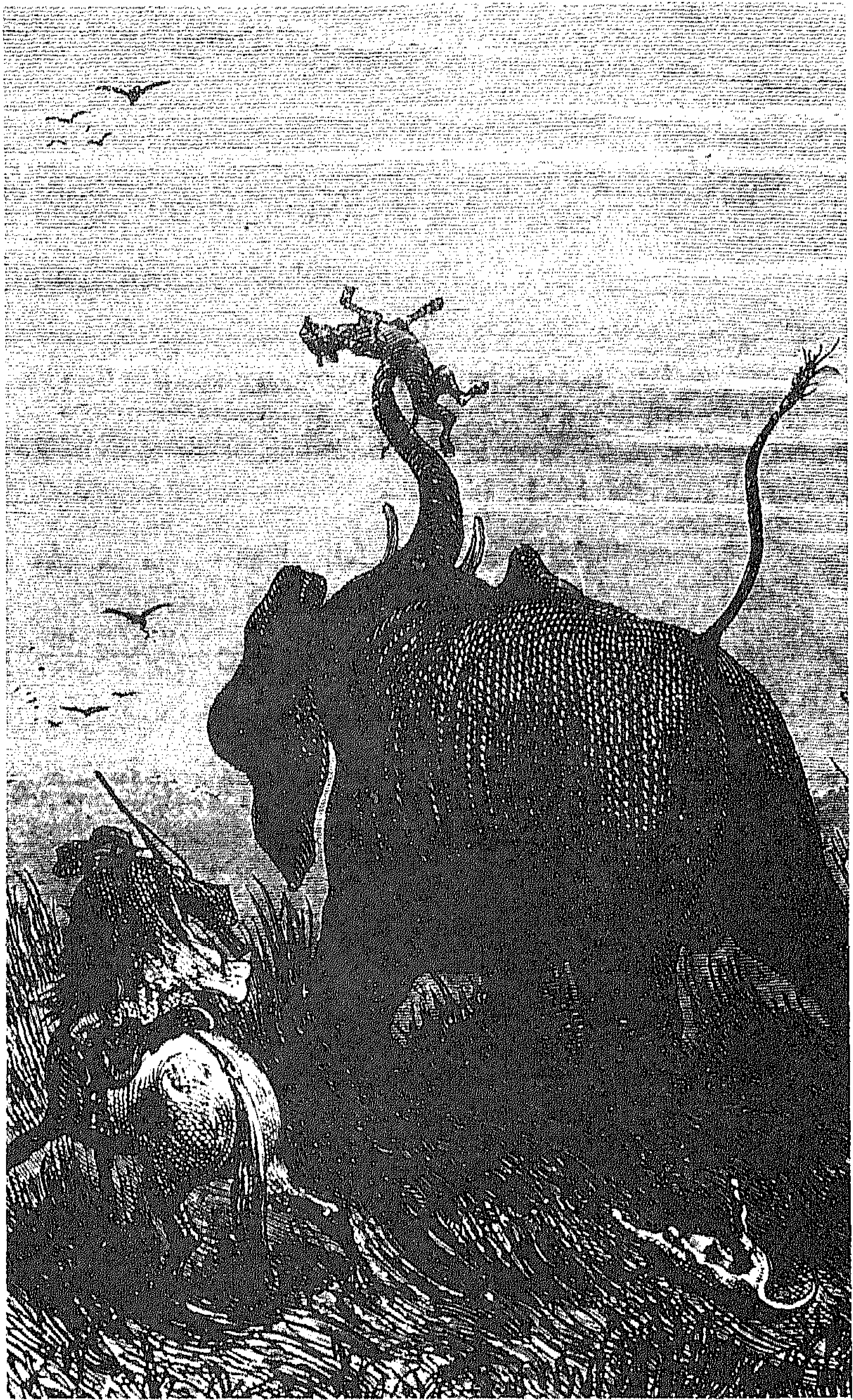
استدار السيد جون وقد مزقت ثيابه وسالت دماؤه. غير أنّه لم يفقد للحظة رباطة جأشه وأسند غدارته بعناية إلى كتفه، مسدداً على الفيل عبر شبكة العرائش. اصطدمت الطلقة بعظمة وانفجرت. ترنح الحيوان وفي اللحظة نفسها تقريباً، أصابته في كشحه الأيسر طلقة أخرى تم تسديدها من طرف الغابة.

جثا الفيل على ركبتيه قرب مستنقع صغير يبين بالكاد تحت الأعشاب. هناك أخذ يروي جراحه وهو يضخ الماء بخرطومه مصدراً صيحات عويل.

في هذه اللحظة ظهر البشماني «إنه لنا، إنّه لنا» صاح موكوم.

في واقع الأمر كانت إصابة الفيل قاتلة. لذا كان يصدر أنيناً موجعاً وتنفسه يخرج كالهاث. ويهتز ذيله بضعف وخرطومه الذي يعيد إلى المستنقع الدماء التي تنزف منه، يصب مطراً أحمر اللون على الحرجات المجاورة. ثم انهارت قواه ووقع صريعاً.

عند ذاك خرج السيد جون موراي من دغل الأشواك يكاد يبدو عارياً. فلم يبق عليه من ملابس الصيد سوى مِزق بالية. غير أنه دفع غالياً ثمن انتصاره كصياد.



– يا له من حيوان رائع أيها البشماني، صاح وهو يتفحص جثة الفيل، إنّه لحيوان رائع غير أنّه ثقيل نوعاً ما بالنسبة لكيس الصياد.

– حسن سعادتك! رد موكوم. سنقوم بتقطيعه في مكانه، ولن نحمل معنا إلا الأجزاء المنتقاة بعناية. لاحظ كيف زودته الطبيعية بأنياب رائعة، زنة الواحد منها على الأقل خمسة وعشرين ليبرة(*) وثمن الليبرة. الواحدة خمسة شلنات وهذا يعتَبر مبلغاً محترماً.

وبينما كان الصياد يتكلم شرع بتقطيع الحيوان. فقطع الأنياب بفأسه واكتفى بأخذ الأقدام والخرطوم التي تعد من اللحوم اللذيذة المذاق وكان يرغب في أن يتذوقها أعضاء البعثة العلمية. استغرقت هذه العملية بعض الوقت ولم يعد مع مرافقه إلى المخيم إلا بعد الظهر.

هناك طبخ البشماني أقدام الحيوان الجسيم حسب الطريقة الأفريقية بادخالها في ثقب مُحمى كالفرن بقطع فحم متوهجة. ومن المسلم به أنّ هذه الوجبة نالت الإعجاب والتقدير حتى من بالاندر اللامبالي، وكان السيد جون موراي جديراً بثناء المجموعة العلمية.

* * *

(*) م. (الليبرة = ٥٠٠غ).

السيل

خلال إقامتهم في قرية البشمانيين، لم يكن أي رابط ليجمع بين الكولونيل إفريست وماثيوستروكس. تمت مراقبة خط العرض دون مؤازرتهما. ولإنهما لم يكونا ملزمين «علمياً» بالتلاقي لم ير واحدهما وجه الآخر إطلاقاً. إنّما أرسل بكل بساطة الكولونيل إفريست، عشية رحيلهم، بطاقته إلى الفلكي الروسي، واستلم بطاقة ماثيوستروكس بالطريقة نفسها.

في التاسع عشر من أيار، رحلت القافلة بأكملها تشق طريقها نحو الشمال. قيست الزوايا المتجاورة لقاعدة المثلث الثامن الذي شُكلت قمته إلى يسار خط الهاجرة، بمساعدة رزّة(*) اختيرت بمهارة على بعد ستة أميال. على هذا النحو لم يبق عليهم سوى الوصول إلى هذه المحطة الجديدة حتى يعاودوا عملياتهم الجيودوزية.

في الفترة الواقعة بين التاسع عشر والتاسع والعشرين من أيار، ربُط الصقع المذكور إلى خط الهاجرة بمثلثين جديدين. وأخذت كامل الاحتياطات الكفيلة بالحصول على دقة رياضية. سارت العملية وفق المراد، ولم تعترضهم مشاكل كبيرة حتى ذلك الحين. بقي الطقس مناسباً لعمليات النهار، ولم تُبد الأرض أيّ عائق يَصعب اجتيازه. على العكس، كان تسطحها الشديد يعيق أحياناً قياسات الزوايا. إنها تبدو كبادية من الخضرة، تقطعها سواق تجري بين صفوف أشجار «الكاري هوت» -Kar-

(*) - م. (مسمار أجوف الرأس).

rée-hout وهو نوع من الشجر يشبه بترتيب أوراقه أشجار الصفصاف، ويستخدم البشمانيون أغصانه لصناعة أقواسهم.

كانت هذه الأرض المزروعة بشظايا الأحجار المتحللة والممزوجة بالصلصال والرمل وجزيئات الحديد تدل في بعض الأماكن عن قحط شديد. هناك كان يختفي أي أثر للرطوبة. وتصبح نباتات المنطقة على هذا النحو لزجة لتقاوم أعلى أشكال الجفاف. غير أنّها لأميال عديدة، لم تكن توفر أية علامة يمكن اختيارها كمحطة طبيعية. وقتها كان يلزم رفع إما علامات إرشاد أو أبراج يتراوح ارتفاعها بين عشرة واثني عشر متراً كي تستخدم كعلامات تسديد. مما يسبب هدر وقت ثمين نوعاً ما ويؤخر عملية التثليث. وعند الانتهاء من الرصد، يتوجب فك البرج وحمله مجدداً من هناك إلى مكان يبعد عدة أميال لتشكيل قمة مثلث جديد. غير أنّ هذا العمل إجمالاً كان يتم دون مشقة. ففريق الملكة وقيصر المهيأ لهكذا أعمال، كان يقوم بها بحذاقة. يعمل أولئك الرجال الحائزون على أعلى درجات العلم بسرعة فائقة. ولا يتطلب الأمر سوى مدح مهارتهم إذا ما بدأ الكبرياء الوطني يزرع أحياناً الشقاق فيما بينهم.

في الحقيقة، كانت هذه الغيرة العصبية عن الغفران والتي تفرق بين الرئيسين، الكولونيل إفريست وماثيوستروكس تحرض في بعض الأحيان أولئك البحارة ضد بعضهم البعض. مما حدا بمشيل زورن ووليم إميري إلى أن يستعينا بكل حكمتهما وحنكتهما لمقاومة هذه النزعة المحزنة. غير أنّهما لم يكونا ينجحان دائماً في مساعيهما. وبسبب ذلك يمكن لهذه المناقشات من جانب رجال خشني الطباع نوعاً ما، أن تتحول إلى هجوم لا يُحمد عقباه. حينئذ كان الكولونيل والعالِم الروسي يتدخلان، إنما بطريقة يلهبان فيها الخصومة إذ ينحاز كل واحد منهما دائماً إلى صف مواطنيه، ويقوم



بدعمهم حتى ولو كانوا على خطأ في موقفهم. وبذلك ينتقل النقاش من المرؤوسين صعوداً إلى الرؤساء وتتنامى حدته بالمقارنة مع ما كانه سابقاً، كما يقول ميشيل زورن. هكذا لم يُحافظ، بعد شهرين من مغادرتهم لاتاكو، سوى الشابان على الوفاق الضروري لنجاح المشروع. وبدأ السيد جون موراي ونيكولا بالاندر، الغارقين تماماً، واحدهما في حساباته والآخر بمغامرات الصيد، بالتدخل بنفسيهما في هذه النقاشات الداخلية. باختصار اشتعل فيتل الشجار ذات يوم وكان من الحدة أنّ ظن ماثيوستروكس أنّه لزام عليه أن يقول للكولونيل:

– سيدي، لا تتحدث بتعجرف إلى علماء ينتمون إلى مرصد بولكوڤا الذي استطاع منظاره القوي إثبات أنّ قرص أورانوس دائري تماماً.

فرد الكولونيل إفريست على هذا، أنّ له الحق أن يكلمه بهذه النبرة المتعالية، عندما يكون له الشرف في الإنتماء إلى مرصد كامبريدج الذي استطاع منظاره القوي أن يصنف نجمة اندروميد(*) السديمية بين النجوم الغير قياسية!

ثم دفع ماثيوستروكس بتجريحاته التي قال فيها أنّ منظار بولكوڤا بعدسيته ذات الأربع عشرة بوصة قد استطاع كشف النجوم من الحجم الثالث عشر، إلى أن يرد عليه بعنف الكولونيل قائلاً أنّ عدسية منظار كامبريدج كانت تقيس تماماً مثل منظاره وأنّه في ليلة الواحد والثلاثين من كانون الثاني من العام ١٨٦٢، استطاع أخيراً اكتشاف الكوكب الغامض الذي يسبب ترجماف نجمة(*) سيريوس(*).

(*) – م. (المرأة المسلسلة).

(*) – م. (اضطراب الجرم السماوي في حركته المدارية).

(*) – م. (نجمة النور التي تنتمي إلى مجموعة نجوم الكلب الكبير وهي الأكثر لمعاناً في السماء).

وبتبادل التحريات بين العالميين على هذا النحو، أضحى واضحاً للعيان أنّ إمكانية عقد أيّ نوع من المصالحة بينهما أصبحت بعد الآن معدومة. وما يخشى عقباه الآن أن يصبح مستقبل عملية التثليث عرضة للخطر بسبب هذه المنافسة المستفحلة. ولحسن الحظ أنه حتى الآن على الأقل، لم تكن تلك المناقشات قد تطرقت إلا إلى أنظمة أو أفعال غريبة عن العمليات الجيودوزية. في بعض الأحيان، تثير القياسات المأخوذة عن الدائرة المكررة أو المزولة بعض الجدل. لكنّه بعيد عن أن ينغص عليهم العملية كان على العكس، يدفعهم لتحديد القياسات بدقة لا متناهية. أما بالنسبة لاختيار المحطات فإنها حتى ذلك التاريخ لم تكن محوراً لأيّ خلاف.

في الواحد والثلاثين من أيار، تغيرّ الطقس فجأة بعد أن كان صحواً ومناسباً بالنتيجة لعمليات الرصد.

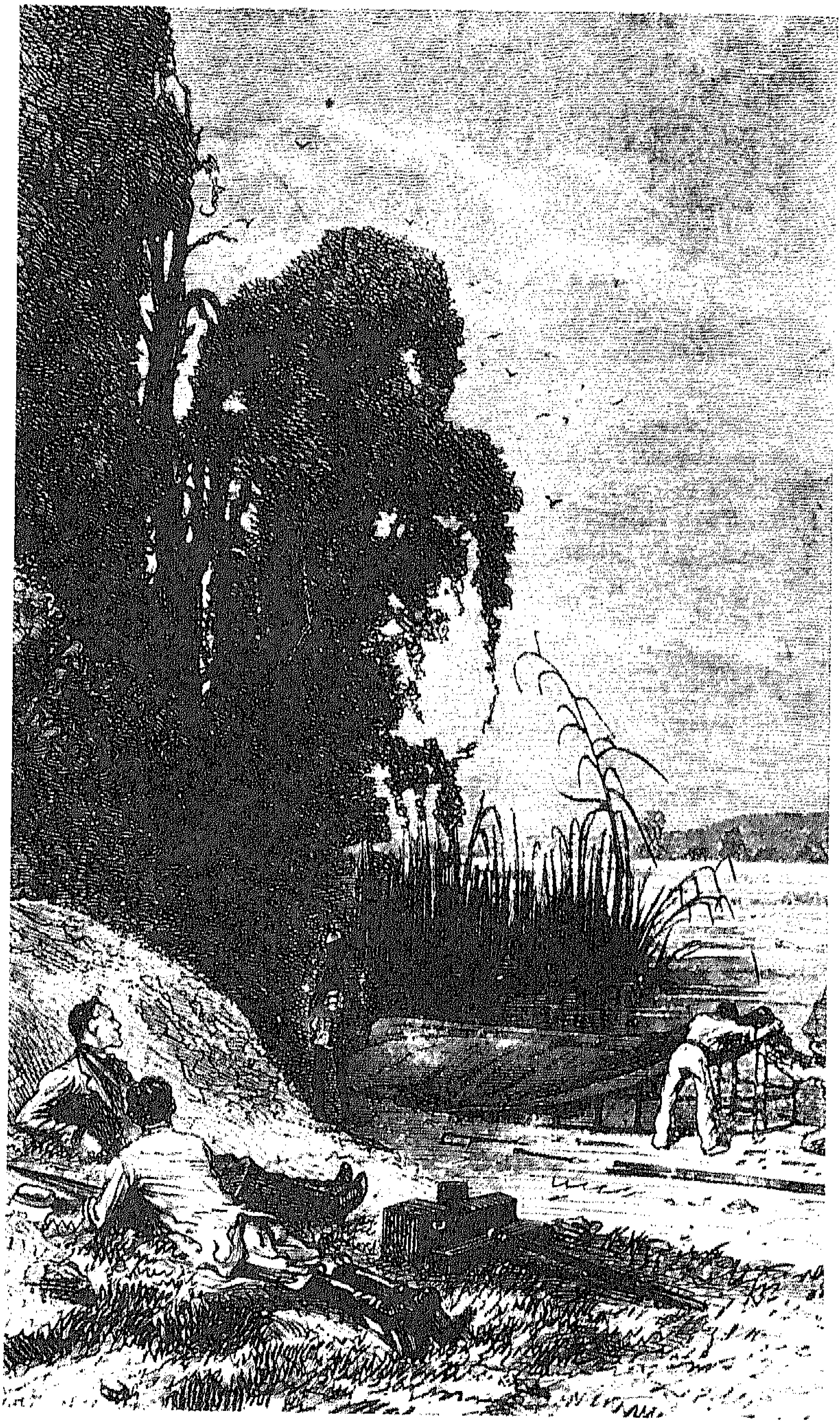
تنبأ العلماء حدوث عاصفة بشكل أكيد، في أيّة منطقة أخرى مصحوبة بأمطار سيلية. تلبدت السماء بالغيوم منذرة بطقس سيء، ولمع البرق في كتلة الضباب دون أن يصحبه الرعد. لكنّ ذلك لم يكن كافياً ليحدث التكاثف في الطبقات العليا للهواء. لذا لم يتلق التراب اليابس جداً أيّة نقطة ماء. كل ما في الأمر أنّ الضباب الذي كان في غير آوانة ظلّ منتشراً لعدة أيام مما أعاق عمليات الرصد. إذ لم تكن العلامات مرئية أبعد من ميل واحد.

مع ذلك قررت اللجنة الإنكليزية - الروسية الراغبة عن هدر الوقت أن تعد علامات بوساطة النار حتى تستطيع العمل أثناء الليل. يلزم فقط تنفيذاً لنصيحة البشماني اتخاذ بعض الإحتياطات لحماية الراصدين.

في واقع الأمر، كانت الحيوانات المتوحشة وقد لفت انتباهها ضوء المصابيح الكهربائية، تتجمع على شكل قطعان حول المحطات. عندها كان العلماء يصغون إلى عواء ابناء آوى والنباح الخشن للضباع الذي يشبه الضحك المميز للزنوج السكارى.

في بداية عمليات الرصد الليلية، كان وجود العلماء وسط حلقة تضج بالحيوانات الكاسرة، والتي من بينها كان زئير رهيب يعلن أحياناً عن وجود أحد الأسود يدفعهم لشرود الذهن قليلاً، مما أثر على سرعة قيامهم بالقياسات إن لم يؤثر على دقتها. تلك العيون المتقدة المحدقة فيهم والتي تخترق الظلام الكثيف تزعجهم قليلاً. في تلك الظروف، كان تحديد الأبعاد السحيقة عن طريق الفوانيس وحساب أبعادها الزاويّة يتطلب رباطة الجأش وامتلاكاً كاملاً للنفس. غير أنّهم لم يفتقروا إلى تلك الصفات فبعد عدة أيام، أصبح العلماء وقد استعادو اثباتهم ورصانتهم، يعملون وسط الحيوانات المتوحشة بصفاء ذهن، كما لو أنهم داخل قاعات المرصد الهادئة. أضف إلى ذلك. أنّ بعض الصيادين المتسلحين ببنادقهم كانوا ينضمون إليهم في كل محطة. وسرعان ما يقع صريعاً عدد من الضباع المتهورة جداً، بفعل طلقاتهم الأوروبية. بديهي عن القول أنّ السيد جون موراي يجد فاتنة هذه الطريقة في تنفيذ عملية التثليث، فبينما كانت عينه مثبتة على عدسة منظاره. تقبض يده على بندقيته. ولقد أطلق النار أكثر من مرة بين عملتي رصد للسمت.

وهكذا، لم تتوقف العمليات الجيودوزية بسبب رداءة الطقس وحتى لم تؤثر على دقتها ولا بأيّ شكل من الأشكال. استمر قياس قوس الهاجرة بشكل منتظم صعوداً نحو الشمال.

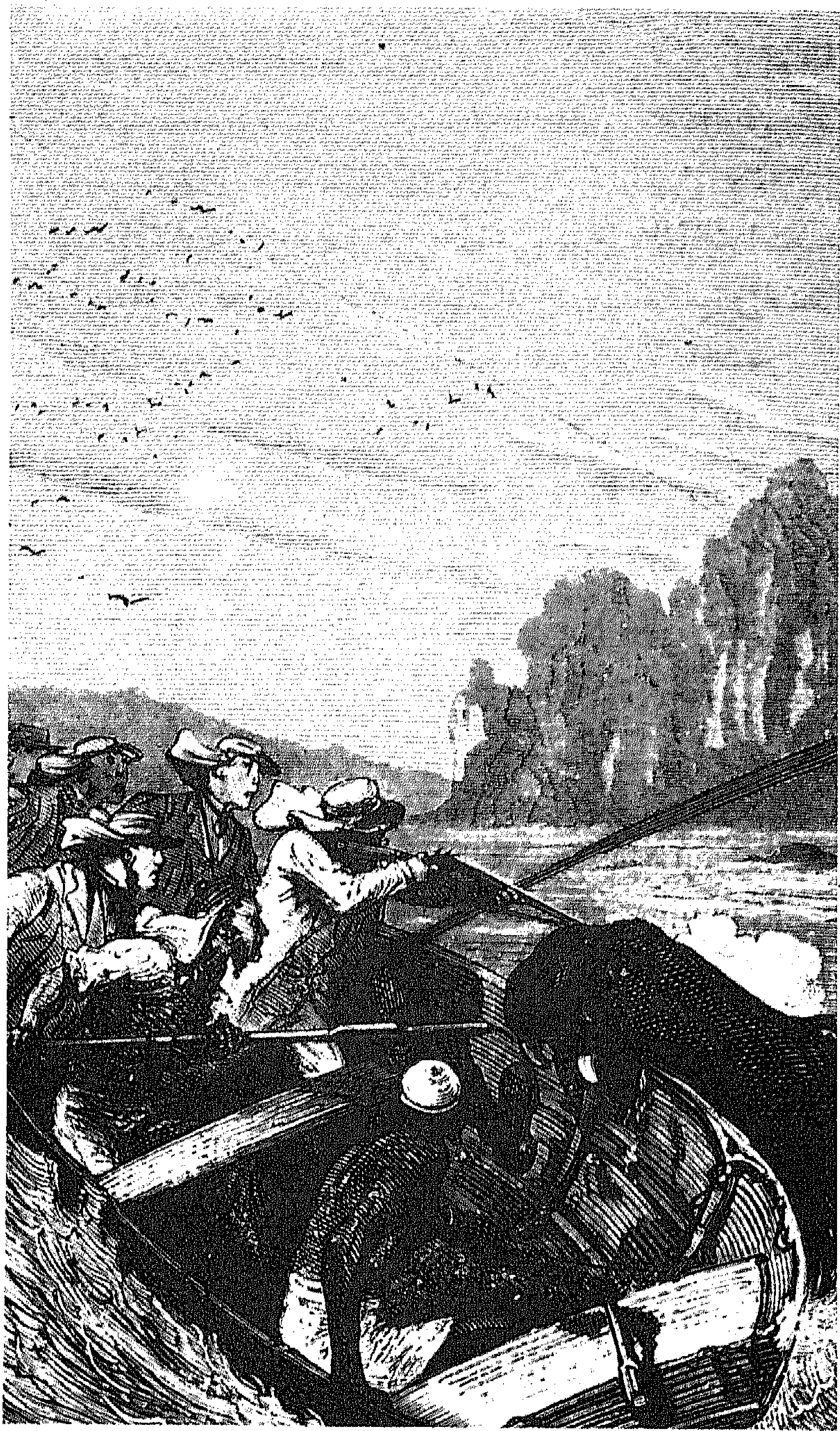


منذ الثلاثين من أيار وحتى السابع عشر من حزيران لم يطرأ أي عارض يستحق الذكر على تتمة العمليات الجيودوزية. بل أعدت مثلثات جديدة بالاستعانة بالمحطات الاصطناعية. وعلى هذا قدر الكولونيل إفريست وماثيوستروكس قياس درجة جديدة من خط الهاجرة الرابع والعشرين قبل نهاية الشهر، إذا لم يظهر أيّ عائق طبيعي يمكن أن يوقف سير عمل المراقبين.

في السابع عشر من حزيران قطع عليهم الطريق بفعل عرض مجراه رافد لنهر أورانج. غيرّ أنّ أعضاء اللجنة العلمية لم يجدوا غضاضة في اجتيازه بأنفسهم. لقد كان في حوذتهم زورق مطاطي مخصص بالتحديد لاجتياز الأنهار والبحيرات الكبيرة نوعاً ما. لكنّ العربات ولوازم القافلة لا يمكنها العبور على هذا النحو مما يوجب البحث عن معبر سواء في عالية النهر أو في سافله.

لذا تم الإتفاق رغماً عن رأيّ ماثيوستروكس، على اجتياز الأوروبيين للنهر مزودين بأدواتهم، بينما ترحل القافلة بزعامة موكوم جنوباً لعدة أميال، إلى حيث يزعم الصياد معرفته بممر يمكن عبوره.

كان عرض رافد نهر أورانج في تلك المنطقة يصل إلى نصف ميل، لهذا كان يشكل تياره السريع، الذي تصطدم به هنا وهناك رؤوس الصخور وجذوع الأشجار المغروزة في الطين، خطراً على زورق خفيف الوزن. قدم ماثيوستروكس بعض الملاحظات بهذا الصدد، غير أنّه تبنى موقفهم خشية أن يبدو جباناً أمام خطر يتجرأ زملاؤه على تصديه.



فقط نيكولا بالاندر عليه أن يرافق بقية البعثة في التفافها حول النهر باتجاه سافلته. ليس لأنّ المحاسب المحترم قد انتابه أدنى شعور بالخوف. إنّه لغارق تماماً في حساباته حتى يشعر بأي خطر، وإنّما لأنّ حضوره لم يكن ضرورياً لسير العمليات. لذا يمكنه دون أيّ مانع أن يفارق زملاءه ليوم أو يومين. من جهة أخرى الزورق صغير جداً لا يستوعب إلاّ عدداً محدداً من المسافرين. والحال هذه، يُفضل أن يعبر الزورق النهر لمرة واحدة ناقلاً الرجال والأدوات وبعض المؤون إلى الضفة اليمنى. ومن الضروري وجود بحارة أكفياء لقيادة هذا الزورق المطاطي. لذا ترك نيكولا بالاندر مكانه لواحد من الإنكليز، من طاقم الملكة وقيصر، ليُستفاد من خبرته في هذه الظروف أكثر من خبرة عالم الفلك المحترم من مرصد هلسينغفور.

تم الاتفاق على موعد في شمال النهر، بدأت من بعده القافلة انحدارها على الضفة اليسرى بقيادة الصياد. وما هي إلا فترة وجيزة حتى اختفت في البعيد آخر العربات. بينما بقي على ضفة نهر النوسوب الكولونيل إفريست وماثيوستروكس وميشيل زورن ووليم إميري وجون موراي وبحاران مع رجل من البشمان يتمتع بكفاءة عالية فيما يخص الملاحة النهرية.

- جميل جداً هذا النهر، لكن يشق على المرء عبوره - قال وليم إميري - تعتبر السيول(*) مجار للمياه تدوم لفترة بسيطة متمتعة بالحيوية. وبعد عدة أسابيع مع قدوم موسم الجفاف. لا يبق في مجرى النهر ما يروي ظمأ قافلة من الماء. أما الآن فهو سيل جارف لا يمكن عبوره إلا بمشقة. إنّه يستعجل الجريان ولسوف ينضب بسرعة! هذا هو يا عزيزي قانون الطبيعة

(*) - م. (السيل فرع من مجرى ماء يتسارع فيه الجريان بسبب انحدار شديد في المجرى).

الفيزيائي والأخلاقي. لكن لا وقت نضيعه في أحاديث فلسفية. لقد جُهز الزورق ولست بمستاء في أن أرى كيف سيتدبر أمره مع هذا السيل.

خلال عدة دقائق، نُشر الزورق وثُبت على هيكله الداخلي ثم ألقي في النهر. إنه ينتظر المسافرين في أسفل جرف ينحدر انحداراً طفيفاً في كتلة من الغرانيت الزهري اللون. في تلك البقعة كان الماء بفعل تيار يحدثه رأس بارز للشاطىء ينساب بهدوء، ويسقي دون خرير القصب المختلط بالأعشاب السرعية(*).

تمت عملية الإبحار بسهولة. وضعت الأدوات في أسفل الزورق فوق طبقة من الكلأ حتى لا تتلقى أيّة صدمة. أخذ المسافرون أمكنتهم بطريقة لا يزعجون فيها حركة المجذافين اللذين سُلما للملاحَين. جلس البشماني في مؤخرة الزورق واستلم المقبض. كان هذا الساكن المحلي بمثابة «الفلوريلوبه» Foreloper أي الرجل الذي يتقدم الصفوف الأولى من الموكب.

لقد منحه الصياد هذا اللقب باعتباره رجلاً ماهراً يملك خبرة عظيمة في السيول الإفريقية. كان هذا الرجل يعرف بعض الكلمات باللغة الإنكليزية، لذا أوصى المسافرين أن يلتزموا الصمت المطلق أثناء اجتيازهم النوسوب.

أُرخي القلس الذي يربط الزورق بالضفة. دُفعت المجاديف خارج الدوامة - بدأ الزورق يتلقى تأثير المجرى الذي كان يتحول أبعده بعدة ياردات إلى سيل جارف. نفذت التعليمات التي وجهها البشماني إلى الربانين بحذافيرها. تارة كان عليهما رفع المجاذيف لتجنب بعض أرومات

(*) - م. (أعشاب ذات أغصان رفيعة كسروع الكروم).

الأشجار التي غمرتها المياه إلى منتصفها، وتارة مقاومة بعض الدرامات التي تحدثها التيارات المعاكسة. وعندما يصبح دفع المياه قوياً جداً، يحافظان على سير الزورق الخفيف فوق المياه دون أيّ تدخل. القبضة في يده، العين ثابتة والرأس جامد بلا حراك هكذا كان البشماني يبدو في مواجهة أخطار العبور. راقب الأوروبيون بقلق شديد هذا الوضع الجديد، فهم يشعرون بأن قوة التيار الصاخب كانت تحملهم دون أيّة مقاومة. الكولونيل وماثيوستروكس بتبادلات النظرات دون أن ينبسا بحرف. السيد جون موراي البندقية لا تفارق يده، يفحص الطيور العديدة التي كانت تلمس بأجنحتها صفحة نهر النوسوب. أما الفلكيات الشابان فكانا دون أن يجابنا الحذر أو ينشغلا بالاً يراقبان بإعجاب الضفاف التي كانت تهرب بسرعة تبعث على الدوار.

وسرعان ما وصل الزورق الخفيف الوزن إلى السيل الفعلي الذي يلزم عليهم قطعه بشكل مائل حتى يتمكنوا من الوصول إلى الجرف المقابل حيث المياه أكثر سكوناً. استند البحار ان بقوة أكثر على مجذافيهما تلبية لأمر البشماني. غير أنّ الزورق المُسيّر دون أدنى مقاومة، أخذ الاتجاه الموازي للضفاف وانحدر نحو سافلة النهر. لم يعد لمقبض الدفة أيّ تأثير عليه ولا حتى المجاذيف تستطيع أن تعدل من مساره. أضحى الموقف محفوفاً بالمخاطر لأنّ الاصطدام بصخرة أو جذع شجرة كفيل لا محالة أن يقلب الزورق.

شعر المسافرون بالخطر يحدق بهم بيد أنّ واحد منهم لم ينبس ببنت شفة.

عدّل البشماني من جلسته وأخذ يراقب الزورق الذي لم يستطع أن يخفف من سرعته فوق المياه، التي جعلت عمل الدفة معدوماً نظراً لسرعتها التي تعادل سرعة الزورق تحديداً.

كانت تنتصب أبعد بمئي ياردة عن الزورق جزيرة صغيرة من الحجارة والأشجار خارج مجرى النهر. ولأنه من المستحيل تجنبها سيبلغها الزورق خلال عدة لحظات ويتمزق فوقها حتماً.

في الحال وقع الاصطدام لكنّه كان أقل وطأة مما توقعوه. مال الزورق ودخلت فيه بعض المياه، غير أنه المسافرين تمكنوا من المحافظة على أماكنهم. إنهم ينظرون أمامهم... فالصخرة السوداء التي اصطدموا بها كانت تبدل موضعها وتتحرك وسط جيشان المياه.

تلك الصخرة هي وحيد قرن ضخم جداً قد سحبه المجرى إلى الجزيرة الصغيرة ولا يجرؤ أن يخاطر بنفسه بالسباحة في المجرى السريع، كي يصل إلى واحدة من ضفاف النهر. وعندما شعر باصطدام الزورق، رفع رأسه وأخذ يهزه بشكل أفقي ناظراً حوله بعينين بليدتين. يملك ذاك الحيوان الجسيم الذي يصل ارتفاعه إلى ستة أقدام، جلداً صفيفاً أسمر اللون خال من الوبر. إنّه يفتح خطمه مظهراً قواطع عليا وأنياباً نامية للغاية. على الفور هرع نحو الزورق وأخذ يشده بحنق شديد حتى كادت أسنانه أن تمزقه.

لكن السيد جون موراي كان هناك ولم يكن ليفارق رباطة جأشه. أسند بندقيته بهدوء على كتفه وسدد رصاصة على الحيوان بالقرب من أذنه. لم يفلت وحيد القرن بل أخذ يهز الزورق كما يفعل كلب بأرنب بري.

فألقم السيد جون بندقيته مرة أخرى وأصابه مجدداً في رأسه. كانت تلك الإصابة قاتلة هذه المرة لأن الكتلة اللحمية بأكملها انهارت على الفور بعد أن دفعت الزورق إلى عرض الجزيرة بما تبقى لديها من قوة أثناء نزاعها.

وقبل أن يقدر المسافرون ما جرى، استعاد الزورق المدوّم مثل البلبل(*) اتجاه السيل سائراً بانحراف في عرض النهر. كانت عقفة مفاجئة للنهر، إلى الأسفل بعدة أمتار تقطع مجرى النهر. بلغها الزورق خلال عشرين ثانية ثم توقف إثر صدمة عنيفة. أما المسافرون فقد وثبوا سالمين معافين إلى الجرف بعد أن سحبهم النهر لمسافة ميلين عن نقطة إبحارهم.

* * *

(*) م. (لعبة للأطفال).

حيث نعثر على نيكولا بالاندر

بوشرت الأعمال الجيودوزية مجدداً، فقد صلُحت محطتان تم اختيارهما وضمهما بالتتابع إلى المحطة الأخيرة الواقعة إلى جانب النهر، لإنشاء مثلث جديد. نفذت العملية بيسر وسهولة، غير أنّه توجب على العلماء أن يحذروا الثعابين التي كانت تغزو المنطقة. إنها من نوع «مامبا» mambas السام جداً التي يتراوح طولها من عشرة إلى اثني عشر قدم وتعد لدغتها من اللدغات المميتة.

بعد أربعة أيام من اجتيازهم لنهر النوسوب، أي في الواحد والعشرين من حزيران، وجد العلماء أنفسهم وسط بلد مُشّجر. لكن الحرجة التي كانت تغطيه والمكونة من أشجار فتية، لم تكن لتعيق عملية التثليث.

في كل نقاط الأفق تصلح تلال جليّة تماماً تفصل بينها أميال عدة لإعداد الأبراج ورفع الفوانيس، يعد هذا الصقع بالنسبة لمستوى الأرض الطبيعي وعلى نحو ظاهر منخفضاً وواسع الامتداد وبالنتيجة رطباً وخصيباً. تعرف وليم إميري فيه على آلاف من أشجار التين التي تشتهر بها الهوتنتوت، والتي تعد ثمارها ذات الطعم الحامض من الفاكهة المفضلة عند البشمانيين. كانت السهول، المنتشرة على مد النظر بين الحرجات، تنشر عطراً حلواً بسبب تكاثر عدد لا يحصى من الجذور البصلية الشبيهة بنباتات السورنجان(*). تعلو هذه الجذور ثمرة صفراء اللون يتراوح طولها من

(*) م. (جنس نباتات عشبية بصلية من الفصيلة السورنجانية).

بوصتين إلى ثلاث تنشر أريجها العبق في الأثير. إنّها تدعى «كوكوما كراتني» kucumakranti التي تتميز بها منطقة جنوب إفريقيا ويحبها حتى الشراهة أطفال السكان المحليين بشكل خاص. في هذه البقعة التي تنساب فيها مياه المناطق المجاورة بانحدارات طفيفة للغاية، تظهر من جديد حقول الحنظل، وحواف نبات النعنع الكثيرة العدد التي نجحت بشكل باهر عملية زراعتها في انكلترا.

غير أنّ قبائل البدو نادراً ما كانت تتردد على هذه المنطقة الاستوائية على الرغم من خصوبتها وملاءمتها لكثير من العمليات الزراعية المتطورة. إذ لا نرى أي أثر للسكان المحليين أو لقرية أو حتى لنار مخيم- مع أنّ المياه لم تكن لتنقصها أبداً حتى أنها تشكل في عديد من المناطق سواقي ومستنقعات وبحيرات مالحة واسعة نوعاً ما. ثمة نهرين أو ثلاث أنهر سريعة الجريان تصب ولا شك في عديد من روافد نهر أورانج.

في ذلك اليوم توقف العلماء عن متابعة السير انتظاراً لوصول القافلة. لقد أوجزت المدة التي حددها الصياد على الإنقضاء، وإذا لم يكن مخطئاً في تقديراته عليه الوصول في هذا اليوم تحديداً بعد تمكنه من اجتياز المجرى السفلي لنهر النوسوب.

مع ذلك انقضى النهار ولم يظهر أيّ بشماني. هل واجهت البعثة بعض الصعوبات التي تمنعها من ملاقاتهم يا ترى؟ فكر السيد جون موراي أن يكون اجتياز النهر في ذلك الوقت من العام صعباً حيث لا يزال مخزون المياه وفيراً. لذا توجب على الصياد التوغل إلى الجنوب أكثر بحثاً عن ممر

يمكن عبوره. في الواقع يُرجح هذا السبب. فقد كانت الأمطار غزيرة للغاية خلال الموسم الأخير، ولا بد أن تسبب فياضانات غير مألوفة.

لبث العلماء ينتظرون. لكن بانقضاء اليوم الثاني والعشرين من حزيران أيضاً دون أن يظهر أيّ رجل من رجال موكوم، بدأ القلق يساور الكولونيل إفريست. فهو لا يستطيع متابعة السير نحو الشمال بينما تنقصه لوازم البعثة. وإذا طال هذا التأخير فإنه سيهدد نجاح العملية برمتها.

عند ذاك نوه ماثيوستروكس، أنّه كان من رأيّه مرافقة القافلة بعد ربط المحطة الأخيرة الواقعة إلى جانب النهر مع المحطتين الأخريين الواقعتين إلى الجانب الآخر. وأنّه لو تم تبني هذا الرأي لما كانت البعثة تتخبط في هذا الإرتباك. وأنّه إذا تهدد مصير عملية التثليث بسبب هذا التأخير، فستقع المسؤولية على عاتق أولئك الذين ظنوا... الخ..

كما نعلم حق العلم، إحتج الكولونيل على هذه الإفتراءات مذكراً أن القرار قد أُخذ بالإجماع، غير أنّ السيد جون موراي تدخل وطالب بإنهاء هذه المناقشة العقيمة فوراً. فما حصل قد حصل وكل اعتراضات الدنيا لن تغير شيئاً من هذا الوضع. اقترح فقط في حال عدم انضمام قافلة البشمانيين إلى الأوروبيين حتى اليوم التالي، أن يذهب وليم إميري وميشيل زورن، اللذين طلبا ذلك، للبحث عنها متوجهين صوب الجنوب الغربي تحت قيادة الفوريلوبيه. أثناء غيابهما يلزم الكولونيل إفريست وزملاؤه المخيم منتظرين عودتهما لاتخاذ القرار.

وبالإتفاق على ذلك ابتعد المتنافسان الواحد عن الآخر خلال بقية النهار. أمضى السيد جون موراي وقته يجوب في الحرجات المجاورة. غير

أنّه لم يعثر على أثر لفرائس الوبر، أما بالنسبة للطيور التي اصطادها فلم يكن راضياً تماماً عن مذاقها كونه صياداً محترفاً، غير أنّ ولعه بالتحنيط الذي طغى على شخصية الصياد فيه جعله راضياً تماماً. لقد أصاب برصاص بندقيته نوعين رائعين من الطيور. الأول طير الدُرّاج الجميل، يصل طوله إلى ثلاث عشرة بوصة، قصير الرسغ، ظهره رمادي اللون غامقه، أحمر المنقار والقدمين، ويتفاوت لون ريشه الكبير بألوان غامقة. إنّه بحق نموذج رائع عن طيور الحجَل. الطائر الآخر الذي أصابه السيد جون بطلقة مدهشة تنم عن مهارته، ينتمي إلى رتبة الجوارح. إنّه واحد من أنواع الصقور التي تتميز بها منطقة جنوب إفريقيا فهو ذو عنق أحمر وذيل أبيض وهو بحق يستحق الذكر لجمال تكوينه، سلخ الفوريلوبيه بمهارة جلدا الطائرين بطريقة يبقيا فيها سليمين تماماً.

مرت الساعات الأولى من اليوم الثالث والعشرين ولم تلح في الأفق أيّة إشارة عن القافلة.. ولحظة تأهب الشابان للرحيل أوقفتهما أصوات نباح قادمة من البعيد. بعد هينهة، لاح عند منعطف حرجة نباتات الصبَرْ الواقعة إلى يسار المخيم، الصياد موكوم ممتطياً حصانه بأقصى ما لديه من سرعة.

لقد كان البشماني يسبق القافلة ويقترب بسرعة من الأوروبيين.

- تقدم أيها الصياد الشجاع، صاح بفرح السيد جون موراي. لقد يأسنا فعلاً من عودتك. هل تعلم أنه لا شيء أبداً يؤاسيني عن عدم رؤيتك ثانية. يبدو أن الفرائس تلوذ بالفرار عندما لا تكون إلى جانبي. هيا تعال لنحتفل بقدومك بكأس من الشراب الاستكتلندي الطيب المذاق.

غير أن موكوم لم يجب بحرف على كلمات الترحيب الودية التي وجهها إليه السيد جون المحترم. كان يتفرس في وجوه الأوروبيين ويحصيهم الواحد تلو الآخر وقلق جارف يرتسم على محياه.

انتبه الكولونيل للأمر على الفور، فتوجه نحو الصياد الذي كان قد ترجل عن حصانه وسأله:

– عمن تبحث ياموكوم؟

– عن السيد بالاندر. أجاب موكوم.

– ألم يتبع قافلتك؟ ألم يكن معك؟ سأله الكولونيل إفريست.

ـ لم يعد هناك! أجاب موكوم. كنت آمل أن ألتقيه في مخيمك! لقد تاه!

على إثر كلمات موكوم الأخيرة، تقدم ماثيوستروكس بسرعة قائلاً:

– لقد تاه نيكولا بالاندر! صرخ يقول. عالمٌ كُلِفتَ برعايته، فلكي ضمنت سلامته ولم تعدبه! هل تعلم أيّها الصياد أنك مسؤول عن شخصه وأنّه لا يكفي البتة أن تقول أن السيد نيكولا بالاندر قد تاه.

أخرجت كلمات الفلكي الصياد عن طوره، فكونه ليس في الصيد ليس مضطراً لأن يحتفظ برباطة جأشه:

– هه! هه! على رسلك يا مُنَجمِ روسيا كلها. أجابه بصوت حانق. ألا تنتبه لكلماتك؟ هل أنا مكلف بحماية صديقك الذي يجهل حتى كيف يحمي نفسه! تهاجمني وأنت مخطىء في ذلك هل تسمعني؟ إذا كان السيد

بالاندر قدتاه فذلك بسببه هو! لقد ضبطته أكثر من مرة غارقاً في أرقامه مبتعداً عن قافلتنا. حذرته أكثر من مرة وأعدته إلينا. غير أنّه اختفى أول أمس عند هبوط الظلام ورغم بحثي المتواصل عنه لم أعثر له على أثر. فلتكن أكثر مهارة، إذا استطعت ذلك ما دمت تعرف تماماً كيف تدير منظارك، وحاول أن تكتشف بنفسك مكان صديقك!

لولا أن السيد جون موراي قد تمكن من تهدئة الصياد الحانق، لكان البشماني بلا ريب، سيتابع على هذا النحو مواجهة غضب ماثيوستروكس الشديد، الذي فاغراً فمه، لم يتمكن من التفوه بكلمة.

ولحسن حظ العالِم الروسي توقفت المشادة بينه وبين البشماني. غير أنّه انقضى بتلميحات لا أساس لها من الصحة على الكولونيل إفريست الذي لم يكن ليتوقع ذلك.

– على أيّة حال، قال فلكي مرصد بولكوڤا بنبرة جافة، لا أظن أنني سأترك صديقي البائس في هذه الصحراء. فما أكثر ما يعنيني أن أبذل قصارى جهدي في العثور عليه. لو كان السيد جون موراي أو السيد وليم إميري هما المعنيان في هذا الأختفاء، فلن يتردد الكولونيل إفريست كما أتصور عن توقيف العمليات الجيودوزية ليهبَّ إلى نجدة مواطنيه. والحال هذه. لا أعلم لماذا يكون سعينا في البحث عن عالِم روسي أقل مما نبذله في البحث عن عالِم انكليزي.

عندها، لم يستطع الكولونيل إفريست أن يحتفظ بهدوء أعصابه المعتاد بعد أن شتمه ماثيوستروكس على هذا النحو.

- سيد ماثيوستروكس، صاح فيه مكتوف اليدين مثبتا ناظريه في عيني منافسه، هل هي عادة لديك أن تستبق الأمور وتشتمني مجاناً؟ من تظننا نحن، نحن الإنكليز! من أعطاك الحق في أن تشكك بمشاعرنا فيما يتعلق بمسألة إنسانية بحتة؟ من أعطاك الحق أن تفترض عدم ذهابنا لنجدة ذلك المحاسب الأخرق...

- يا سيد... رد بحدة الروسي على ذلك النعت الذي وُصف به نيكولا بالاندر.

- أجل، أخرق. ردد الكولونيل إفريست وهو يشدّد على مقاطع هذا النعت. ولأعود إلى ما كنت تنوه عنه بطرف خفي منذ هينهة، أضيف في حال فشل عملياتنا بسبب هذا الحادث ستقع المسؤولية على عاتق الروس وليس على الإنكليز.

- أيّها الكولونيل. صاح ماثيوستروكس وقد لاح الشرر في عينيه، كلماتك...

- أني أتكلم برزانة أيّها السيد، وقد قلتها وانتهى الأمر. نحن متفقان أنّه ابتداء من هذه اللحظة وحتى اللحظة التي سنعثر فيها على محاسبك ستتوقف كامل العمليات! هل أنت جاهز للرحيل؟

- إنني جاهز حتى قبل أن تلفظ كلمة واحدة! أجاب بحدة ماثيوستوكس.

وعلى هذا، عاد المتنافسان كلٌّ إلى عربته لأنّ القافلة قاربت على الوصول.

لم يستطع السيد جون موراي الذي رافق الكولونيل إفريست أن يمنع نفسه عن القول:

- إنّه لأمر حسن أنّ ذلك الأرعن لم يأخذ معه السجل المزدوج للقياسات.

- هذا ما فكرت فيه. رد ببساطة الكولونيل.

عند ذاك أخذ الإنكليزيان يسألان الصياد موكوم. فأخبرهم أن نيكولا بالاندر قد اختفى منذ يومين. لقد رآه للمرة الأخيرة يسير إلى جانب القافلة على مسافة اثني عشر ميلاً من المخيم. وأنّه أيّ موكوم، بعد اختفاء العالِم فوراً قد سارع بالبحث عنه مما أخرّه عن الحضور. وعندما لم يعثر عليه، أراد التأكد فيما لو أن هذا «المحاسب» قد انضم ولو صدفة، إلى رفاقه عند شمال النهر. وعليه، وبما أنّه لم يكن هناك، اقترح أن يوجه بحثه نحو الشمال الشرقي، في الجزء المشجر من البلد. مضيفاً أنه يجب ألا يهدروا ساعة واحدة فيما لو أرادوا العثور على نيكولا بالاندر حياً.

عليهم الإسراع بالفعل إذ منذ يومين يهيم العالم الروسي على وجهه، في منطقة تجو بها بكثرة الحيوانات المفترسة. ليس هو على الإطلاق بالرجل الذي ينجو بنفسه من المواقف الحرجة، لأنّه يحيا أبداً في عالم الأرقام وليس في العالم الحقيقي. وبينما يجد أيّ إنسان غيره ما يسد به الرمق، نجد المسكين ميتاً حتماً من الجوع. لذا يستدعي الأمر أن يهبو لنجدته في أسرع وقت ممكن.

خلال ساعة من الزمن، كان الكولونيل إفريست والسيد جون موراي والعالمان الشابان يغادرون المخيم يقودهم الصياد. امتطى الجميع جياداً سريعة. حتى العالِم الروسي الذي تعلق بمطيته بطريقة مضحكة وهو يدمدم

متذمراً من ذلك التعس بالاندر الذي كلفه هذا العناء. كان زملاؤه، رجال رصينون كما ينبغي لهم أن يكونوا، يغضون الطرف عن الوضع المضحك الذي اتخذه عالِم مرصد بولكوفا فوق صهوة حصانه، حيوان سريع العدو والإستجابة للعِنان.

قبل مغادرة المخيم، طلب موكوم من الفوريلوبيه أن يعطيه كلبه. إنّه حيوان أريب وذكي، ماهر في البحث والتفتيش يقدره البشماني حق قدره. انسل ذلك الكلب بعد أن اشتم قبعة تعود لنيكولا بالاندر متوغلاً نحو الشمال الشرقي، بينما كان موكوم يحثه بصفير خاص. تبعت المجموعة الصغيرة الحيوان على الفور وسرعان ما اختفت عند أطراف حرُجة كثيفة.

تبع الكولونيل إفريست ورفاقه خلال النهار بأكمله روحات وغدوات الكلب. فذلك الحيوان اللبيب قد فهم تماماً ما كان مطلوباً منه لكنه لم ينجح بعد في الوقوع على آثار العالِم التأبه. فهو لم يستطع اقتفاء أي أثر له بدقة وتأكيد. كان الكلب محاولاً التعرف على فوح الروائح في الأرض يذهب إلى الأمام، غير أنّه سرعان ما يعود بعد برهة دون أن يقع على أثر أكيد.

أما العلماء، لم يتوانوا من جهتهم عن استعمال أيّة طريقة تشير إلى وجودهم في هذه المنطقة النائية. كانوا ينادون ويطلقون العيارات النارية من بنادقهم، متأملين أن يسمعهم نيكولا بالاندر مهما كان شارداً أو غارقاً فيما هو فيه - على هذا النحو، كان العلماء قد جابوا أرباض المخيم في دائرة نصف قطرها خمسة أميال، عندما أقبل المساء واضطرهم لوقف عمليات البحث. لذا توجب عليهم معاودة الكرة في اليوم التالي عند الصباح الباكر.

خلال الليل، قبع الأوروبيون تحت مجموعة من الأشجار أمام نار من أغصان الشجر قام البشماني بالعناية بها جيداً. ثمة صياح للحيوانات المتوحشة يُسمع من البعيد. لم يكن وجودها بالطبع ليطمئن عن مكان نيكولا بالاندر، ذلك البائس الذي أضناه التعب والجوع، ويرتعد برداً من قرِّ تلك الليلة، والمُعرض لهجوم الضباع المنتشرة بكثرة في تلك البقعة من إفريقيا. فهل يمكن بعد ذلك أن يراودهم بصيص أمل في إنقاذه! هذا كان شاغل الجميع وعلى هذا أمضى زملاء التعِس ساعات طويلة يتناقشون ويضعون الخطط، ويبحثون عن وسيلة تقودَهم إلى مكانه. أظهر الإنكليز في هذا الظرف إخلاصاً كبيراً أجبر ماثيوستروكس على التأثر به مهما كانت طبيعته. لقد تم الإجماع على إيجاد العالم الروسي حياً أو ميتاً ما دامت العمليات المتعلقة بحساب المثلثات قد لزم تعليقها إلى أجل غير مسمى.

أخيراً لاح نور الصباح بعد ليل مرت ساعاته كأنها قرون. سُرجت الخيول على عجل واستكملت أعمال البحث على نطاق أوسع. كان الكلب يسير في المقدمة بينما تقتفي المجموعة الصغيرة أثاره.

اجتاز الكولونيل إفريست ورفاقه منطقة رطبة للغاية بتقدمهم نحو الشمال الشرقي. رغم تعدد مجاري المياه إلا أنها كانت قليلة العمق لذا كانوا يجتازونها بسهولة ويسر، متحاشين التماسيح التي كان السيد جون موراي يرى أول نماذجها. إنّها زواحف كبيرة الحجم، يتروواح طول بعضها بين خمسة وعشرين إلى ثلاثين قدماً. بالإضافة لكونها حيوانات مخيفة بنهمها الشديد، ويَصعُب الإفلات منها فوق مياه البحيرات أو الأنهار. ولأنّ البشماني كان راغباً عن إضاعة الوقت في قتل هذه العظائيات، كان يحيد عنها متجنباً إياها ويمنع السيد جون موراي المتهيأ أبداً لاطلاق النار عليها.

عندما كان واحد من هذه الوحوش يظهر بين الأعشاب الطويلة، كانت الخيول التي تعدو متوثبة تتهرب من ملاحقته بسهولة. يرى المشاهد دزينات منها وسط السبخات الواسعة التي تشكلت من فائض مياه الأمطار، تلتهم فرائسها على طريقة الكلاب وتنهشها بلقيمات صغيرة بفضل فكها القوي.

مع ذلك، تابعت القافلة الصغيرة بلا أمل بحثها، طوراً تحت الأدغال الكثيفة التي يصعب التنقيب فيها، وطوراً في السهل وسط شبكات مجاري المياه يفحصون ويرفعون أي أثر مهما كان تافهاً. هنا غصن مكسور على ارتفاع قامة إنسان، وهناك باقة من الأعشاب وطأتها قدم إنسان حديثاً، وأبعد بقليل علامة بالكاد بقي أثر لها. مع ذلك لم يقع الباحثون على أيّ أثر لذلك التعس بالاندر.

حتى ذلك الحين، كانوا قد تقدموا في سيرهم نحو الشمال لمسافة عشرة أميال عن أخر مخيم، وبناء على طلب الصياد كانوا سينحرفون صوب الجنوب الغربي عندما أعطى الكلب بغتة علامات اهتياج. إذ كان ينبح ويهز ذيله بجنون. يبتعد لعدة خطوات وقد لامس أنفه الأرض، نافخاً الأعشاب الجافة في الدرب الضيق، ثم يقفل عائداً إلى المكان نفسه تجذبه رائحة بذاتها.

- أيها الكولونيل، صاح عند ذاك البشماني - لقد اشتم الكلب شيئاً! آه، ياله من حيوان ذكي! لقد وقع على آثار الطريدة، عفواً، العالِم الذي نرغب باصطياده. فَلْندعه يقوم بعمله النْدعه يفعل!

- أجل. ردد السيد جون موراي وراء صديقه الصياد. لقد وقع على الأثر المطلوب. اصغوا لذلك النباح! يُقال أنّه يتحدث إلى نفسه ويحاول أن يُكوِن رأياً. أقدم خمسين ليرة عن مثل هذا الحيوان إذا قادنا إلى المكان الذي يرقد فيه نيكولا بالاندر.

لم يقف ماثيو ستروكس عند الطريقة التي يتحدثون فيها عن مواطنه، فما كان يهمه قبل كل شيء هو العثور عليه. لذلك تهيأ كل واحد منهم للعدو خلف آثار الكلب حالما يصبح ذلك الأخير واثقاً من طريقة.

لم يتأخر الكلب في ذلك كثيراً، فبعد نباح صاخب، اختفى الحيوان في عمق الحرجة قافزاً فوق سياج من دغل يابس الأغصان.

لم تتمكن الأحصنة من ملاحقته عبر هذه الغابة لتعذر المرور فيها، مما اضطر الكولونيل إفريست ورفاقه للالتفاف حولها متتبعين نباح الكلب البعيد، يراودهم بصيص أمل في ذلك الحين. لقد وقع الكلب بلا ريب على آثار العالِم التائه فإذا لم يفقد أثره سيصل لا محالة إلى هدفه.

سؤال واحد فقط كان يراودهم. أحيٌّ نيكولا بالاندر أم ميت؟

أضحت الساعة الحادية عشرة صباحاً. لعشرين دقيقة مضت لم يَعدُ يُسمع نباح الكلب الذي يقود الباحثين.

هل هو البعد أم أن الكلب قد ضل طريقه؟ بدأ القلق الشديد يساور السيد جون والبشماني اللذين يسيران في المقدمة، وعندما لم يعودا يعرفان في أيّ اتجاه يقودان رفاقهما، دوى نباح الكلب من جديد على بعد نصف ميل تقريباً باتجاه الجنوب الغربي، إنما من خارج الغابة. في الحال همزُت الجياد للسير في ذلك الإتجاه.



ما هي إلا بضع وثبات، حتى كانت المجموعة قد وصلت إلى قطعة من الأرض مستنقعية للغاية. كان نباح الكلب يُسمع بوضوح غير أنهم لم يتمكنوا من رؤيته. فلقد كانت نباتات القصب الطويلة التي يتراوح ارتفاعها من أثنى عشر إلى خمسة عشر قدماً تسد عليهم الطريق.

وبناء عليه توجب على الفرسان أن يترجلوا ويربطوا أحصنتهم إلى جذع شجرة، ومن ثم ينسلوا بين أعواد القصب يرشدهم نباح الكلب إلى الطريق الصحيح.

بعد برهة تمكنوا من اجتياز تلك الشبكة المتراصة من الأعواد والمعرقلة جداً للسير. انكشفت أمام ناظرهم فسحة كبيرة مغطاة بالمياه والنباتات المائية. كانت بحيرة مالحة واسعة، يمتد طولها إلى نصف ميل تبسط مياهها السمراء في أكبر منخفض أرضي.

كان الكلب يقف على الضفاف الموحلة للبحيرة نابحاً نباحاً جنونياً.

- ها هو! ها هو. صاح البشماني.

بالفعل على بعد ثلاثمئة قدم عند أطراف ما يمكن تسميته تجاوزاً بشبه جزيرة، كان نيكولا بالاندر هناك جالساً على أرومة بسكون، لا يرى شيئاً ولا يسمع شيئاً، القلم بيده ودفتر صغير مسند إلى ركبتيه، يراجع حساباته دون أدنى شك.

- لم يستطيع رفاقه أن يمنعوا أنفسهم عن الصياح، إذ كانت مجموعة من التماسيح على بعد عشرين خطوة منه على الأكثر، تكمن له ورأسها



فوق المياه. بينما هو لا يلحظ حتى وجودها. كانت الحيوانات المتوحشة تلك تتقدم رويداً رويداً، وبذا تستطيع ابتلاعه بلمح البصر.

- فلنسرع! قال الصيات بصوت منخفض. لا أعرف ماذا تنتظر هذه التماسيح حتى تنقض عليه!

- عساها تنتظر أن يصبح لحمه نتناً!

لم يتمكن السيد جون من منع نفسه عن الرد. ملمحاً إلى ما كان يلحظه سكان البلد حول هذه الزواحف التي لا تقتات اللحم الطازج البتة.

أوصى البشماني والسيد جون رفاقهما بالانتظار في ذلك المكان ودارا حول البحيرة بطريقة يبلغان فيها البرزخ الضيق الذي سيقودهما قرب نيكولا بالاندر.

لم يوشك الاثنان على قطع مئتي خطوة عندما بدأت التماسيح تاركة وراءها المياه العميقة، بالزحف نحو اليابسة متجهة قدماً نحو فريستها.

لم يكن العالِم ليرى شيئاً. عيناه لا تفارق دفتره الصغير ولا تزال يده تخط الأرقام.

- علينا برباطة الجأش والتسديد الصحيح وإلا فقدناه. همس الصياد في أذن السيد جون.

عند ذاك جثا الاثنان أرضاً وسددا على الزواحف الأكثر قرباً ثم أطلقا النار. دوى انفجاران انقلب على إثرهما اثنان من التماسيح في الماء وقد كُسر عمودهما الفقري. أما بقية التماسيح سرعان ما اختفت في لمح البصر تحت سطح المياه.

أخيراً رفع نيكولا بالاندر رأسه على صوت الأسلحة النارية . فشاهد رفاقه وركض باتجاههم وهو يهز بجنون دفتره :

- لقد وجدته! لقد وجدته . كان يصيح بأعلى صوته .

- ما الذي وجدته يا سيد بالاندر؟ سأله السيد جون .

- وجدت خطأ عشرياً في اللغاريتم المئوي الثالث من لائحة جيمس ولستون .

بالفعل لقد وجد ذلك الخطأ الرجل المحترم! اكتشف خطأ في اللغاريتم! وله الحق في جائزة المئة الليرة التي يقدمها الناشر جيمس ولستون! ومنذ أربعة أيام كان يهيم فيها على وجهه وحيداً، هذا ما كان يُمضي فيه وقته العالِم المشهور من مرصد هلسينغفور!

* * *

محطة تلائم السيرجون

أخيراً تم العثور على المحاسب الروسي. عندما سُئل كيف تدبر أموره خلال الأيام الأربعة الفائتة، لم يحر جواباً. هل كان يدرك الأخطار التي أحدقت به؟ هذا احتمال بعيد... فعند ما قص عليه رفاقه حادثة التماسيح، لم يشأ أن يصدقهم واعتبر القصة مجرد دعابة لا أكثر. هل كان يشعر بالجوع؟ ليس كثيراً. فهو يقتات على الأرقام ويتغذى جيداً حتى تمكن من اكتشاف ذلك الخطأ في قائمة اللغاريتمات.

لم يرغب ماثيوستروكس بدافع كبرياء وطني، أن يوجه اللوم إلى نيكولا بالاندر بحضور زملائه. لكننا نميل إلى الاعتقاد، أنّ العالم الروسي قد تلقى، على انفراد، توبيخاً عنيفاً من رئيسه، وأنّه قد طلب منه عدم الانغماس ثانية في دراساته اللغاريتمية.

بوشرت الأعمال فوراً وخلال عدة أيام سارت الأمور على أفضل ما يرام. الجو صحو وصاف، مناسب بالتالي لعمليات الرصد سواء لقياسات زوايا المحطات أو لقياس المسافات السمتية. أُضيفت مثلثات جديدة إلى الشبكة وحُددت زواياها بدقة شديدة بفضل عمليات رصد متكررة.

في الثامن والعشرين من حزيران، حصل علماء الفلك وعن طريق علم المساحة، على قياس قاعدة المثلث الخامس عشر. حسب تقديراتهم، يشمل هذا المثلث الجزء من خط الهاجرة الذي يمتد بين الدرجة الثانية والثالثة. بقي عليهم، للانتهاء منه، قياس الزوايا المتجاورة بتسديدهم على محطة تقع عند قمة هذا المثلث.

عند ذاك برز عائق طبيعي. كان البلد غير مناسب على الإطلاق لإعداد علامات الإرشاد، نظراً للأدغال التي كانت تغطيه على مدى النظر - فانحداره العام، الواضح تماماً للعيان من الجنوب حتى الشمال يشكل عائقاً ليس لنصب الأبراج وإنما لإمكانية رؤيتها.

نقطة واحدة يمكن أن تخدمهم لإعداد الفانوس. لكنها تقع على مسافة كبيرة منهم. إنّها قمة جبل يتراوح ارتفاعه من ألف ومئتي قدم إلى ألف وثلاثمئة قدم، ويقع على بعد ثلاثين ميلاً تقريباً نحو الشمال الغربي. في هذه الظروف، ستتجاوزاً أطوال أضلاع المثلث الخامس عشر العشرين ألف قامة. أطوال يمكن لها في بعض الأحيان أن تتضاعف أربعة مرات أيضاً، في قياسات مثلثاتية مختلفة، غير أنّ أعضاء اللجنة الإنكليزية - الروسية لم يقوموا بقياسها بعد.

بعد نقاش مدروس، قرر العلماء تركيب فانوس كهربائي على ذلك العلو، وخلصوا إلى أخذ استراحة إلى أن يتم نصبه. عيّن تحت إمرة الفوريلوبه كلٌّ من الكولونيل إفريست ووليم إميري وميشيل زورن يصحبهم ثلاثة من البحارة واثنين من البشمانيين، للذهاب إلى المحطة الجديدة لإعداد علامة تسديد ضوئية تيتح القيام بعملية رصد ليلي. كان البون شاسعاً حقاً حتى يُمكن المجازفة بالرصد نهاراً دون أن يساورهم الشك في دقة العملية.

في صبيحة اليوم الثامن والعشرين من حزيران، رحلت القافلة الصغيرة وقد أُمدت بالأدوات والأجهزة على ظهر البغال، كما زودت بالمؤن. لا يتوقع الكولونيل إفريست الوصول إلى سفح الجبل قبل اليوم

التالي، مهما كانت قليلة الصعوبات التي ستواجههم أثناء عملية التسلق، لا يمكن للفانوس أن يُجَهز قبل ليلة التاسع والعشرين وصباح الثلاثين من حزيران في أسرع وقت. لذا توجب على الراصدين الذين لبثوا في المخيم ألا يبدأوا البحث عن القمة المضيئة لمثلثهم الخامس عشر قبل ستة وثلاثين ساعة على أقل تقدير.

أثناء غياب الكولونيل إفريست، انشغل ماثيوستروكس ونيكولا بالاندر باهتماماتهما المعتادة. بينما جاب السيد جون موراي والبشماني أنحاء المخيم وقتلا بضعة أفراد من الظباء المتنوعة جداً في مناطق أفريقيا الجنوبية.

زد على ذلك، أضاف السيد جون لمفاخرة الباهرة في الصيد، عملية «قسر» لزرافة، وهي حيوان جميل المظهر نادر الوجود في المناطق الشمالية لكنه شائع في سهول المناطق الجنوبية. المهتمون بصيدالزرائف يقدرون هذه الرياضة الجميلة حق قدرها. وقع السيد جون والبشماني على قطيع من عشرين فرداً، نفور جداً حتى أنهما لم يتمكنا من الاقتراب منه لأكثر من خمسمئة ياردة. مع ذلك، قرر الصيادان اصطياد زرافة أنثى انفصلت عن القطيع. لقد هربت من القطيع تمشي خبباً متجهة نحوهما راضية. لكن عندما اقترب جوادا السيد جون والبشماني إلى حد كبير منها، فتلت الزرافة ذيلها وولت الأدبار بسرعة هائلة. ظلا يلحقان بها لأكثر من ميلين. أخيراً رمتها أرضاً على كشحها رصاصة أطلقها السيد جون من بندقيته.

إنّها نموذج رائع من الزرائف «لها رقبه حصان، وأقدام وسيقان ثور، ورأس جمل» كما يقول الرومانيون في وصفها، خاصة بجلدها المائل

للاحمرار والمبقع بالأبيض. كان هذا المجتر الفريد من نوعه، لا يقل طوله عن أحد عشر قدماً ابتداءً من منبت الحافر حتى نهايات فروته الصغيرة والمغطاة بالجلد والوبر.

خلال الليلة التالية، أخذ عالما الفلك الروسيان بضعة ارتفاعات للنجوم تفيدهما تماماً في تحديد خط عرض المخيم.

انقضى يوم التاسع والعشرون من حزيران دون حوادث تذكر. إنّهم ينتظرون الليلة القادمة متلهفين لتمديد قمة المثلث الخامس عشر. أقبل الليل وكان بلا قمر أو نجوم، غير أنّه كان صافياً لا يكتنفه الضباب وبالتالي ملائماً لعملية تحديد علامة تسديد بعيدة.

جُهزت الترتيبات التمهيدية بكاملها. على عدسة الدائرة المكررة، المصوبة خلال النهار ونحو قمة الجبل، أن تكشف المصباح الكهربائي بسرعة، عندما يضحو غير مرئي بالعين المجردة بفعل المسافة.

على هذا، كان ماثيوستروكس ونيكولا بالاندر والسيد جون موراي، خلال الليلة التاسع والعشرين إلى الثلاثين من حزيران، يتناوبون العمل أمام عدسة الجهاز. غير أنّ قمة الجبل ظلت غير مرئية ولم يلمع أي ضوء عند قمته.

خلَص الراصدون إلى أن عملية تسلق الجبل كانت محفوفة بمخاطر حقيقية وأن الكولونيل إفريست لم يتمكن من بلوغ قمته قبل نهاية النهار. فأجلوا عمليات رصدهم إلى الليلة القادمة دون أن يعتريهم أدنى شك في أنّ الجهاز الضوئي سينَصُب خلال النهار.

كم كانت المفاجأة صاعقة عندما لاح في المخيم الكولونيل إفريست وزملاؤه نحو الساعة الثانية ظهراً من اليوم الثلاثين دون سابق إنذار .

إتجه السيد جون نحوهم متقدماً زملاءه .

– أنتم سيدي الكولونيل؟ صاح قائلاً .

– نحن بذاتنا يا سيد جون .

– هل كان الجبل وعراً إذن؟

– بل على العكس يمكن تسلقه بسهولة كبيرة . أجاب الكولونيل– لكن رداً على سؤالك أقول أنه محروس جيداً . لذا أتينا لطلب العون .

– ماذا! هل هم من السكان المحليين؟

– نعم! سكان بأربعة أقدام ولبدة سوداء قاموا بالتهام واحد من جيادنا .

قص الكولونيل ببضع كلمات على زملائه تفاصيل رحلتهم التي سارت بشكل موفق حتى سفح الجبل . الذي لم يكن سهل العبور إلا من خاصرة(*) تقع إلى الجنوب الغربي . والحال هذه، أقام قطيع من الأسود قريته، حسب تعبير الفوريلوبه، في الممر الوحيد الذي يفضي إلى هذه الخاصرة . حاول عبثاً الكولونيل إفريست طرد هذه الحيوانات الرهيبة، غير أنّه اضطر لعدم تسلحه بشكل كاف لأن يعود القهقرى بعد أن أصاب أسد عظيم بمخلبه واحداً من الجياد في حقويه .

(*) – م . (ملتقى قمة متوسطة الارتفاع بقمه رئيسية) .

معلوم أن سرداً كهذا لا يمكن له إلا أن يثير حماسة السيد جون والبشماني. فهذا «الجبل من الأسود» يعتبر محطة يلزم غزوها وهو من جهة أخرى محطة ضرورية قطعاً لمواصلة الأعمال الجيودوزية. الفرصة سانحة تماماً لأن يواجها أكثر أفراد العرق السنوري إرهاباً، فكيف لا يستغلانها- لذلك نُظمت البعثة على الفور.

كان جميع العلماء الأوروبيون، حتى بالاندر المسالم، يرغبون المشاركة فيها، غير أنّ الضرورة تحتم بقاء عدد منهم في المخيم لقياس الزوايا المتجاورة لقاعدة المثلث الجديد. بقي الكولونيل مرغماً في المخيم بصحبة العالمين الروسيين وقد تفَهم أهمية وجوده أثناء مراقبة العملية. من جهة ثانية، لا يمكن لأي بسبب أن يردع السيد جون موراي عن الرحيل. بناء عليه، عُهدت مهمة فتح منافذ الجبل إلى السيد جون ووليم إميري وميشيل زورن، وذلك بعد إلحاحهما الشديد الذي دفع رئيسيهما إلى الأذعان صاغرين إلى طلبهما، والبشماني الذي لم يمكن ليدع شخصاً آخراً يحل مكانه. أخيراً ثلاثة من السكان المحليين الذين يشهد لهم موكوم بالشجاعة ورباطة الجأش.

غادر الأوروبيون الثلاثة المخيم نحو الساعة الرابعة مساء، بعد أن صافحوا زملاءهم، متوغلين بين الأدغال باتجاه الجبل. شقت الجياد الطريق بسرعة. وعند الساعة التاسعة مساءً. كانوا قد قطعوا مسافة ثلاثين ميلاً.

عندما أضحوا على مسافة ميلين من الجبل ترجلوا أرضاً ليُعدو منامتهم. لم تُوقد النار لأنّ موكوم لم يرد جذب انتباه الحيوانات التي يرغب في مصارعتها في الصباح الباكر، وبذلك لا يثيرون هجوماً ليلياً.

أثناء الليل كان زئير الأسود يدوي بلا انقطاع تقريباً. فهذه الضواري المرعبة تغادر عرينها ليلاً، وتبدأ البحث عن الغذاء. لم ينم واحد من الصيادين دقيقة واحدة، انتهز البشماني هذا السهاد ليقدم لهم بضع نصائح دلت تجربته على أهميتها.

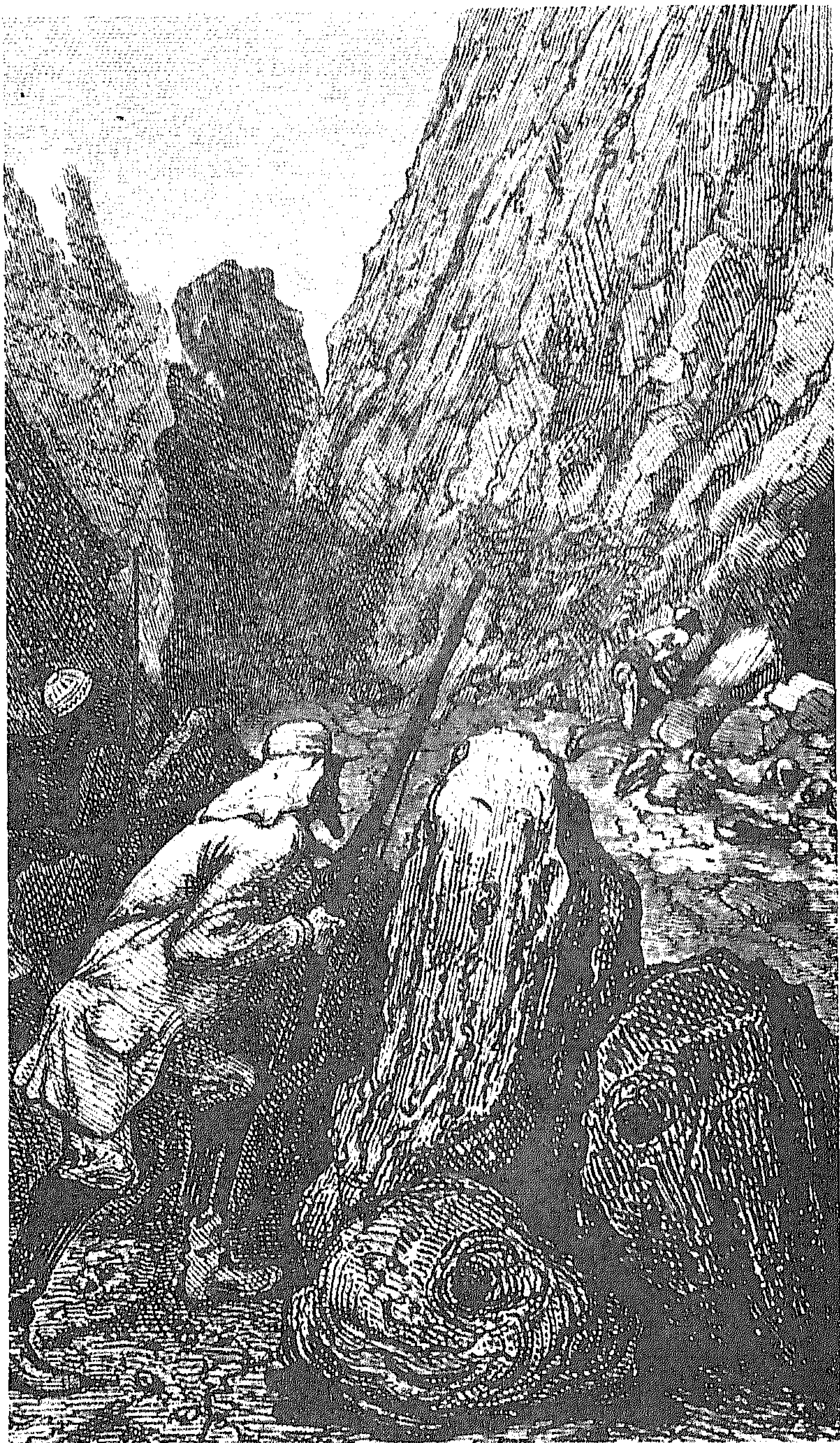
- أيّها السادة، قال لهم بصوت هادئ النبرات تماماً. إذا لم يخطأ الكولونيل في حُكمه سيكون لنا شأن غداً مع قطيع من الأسود ذات اللبدة السوداء. تنتمي هذه الحيوانات إلى النوع الأكثر ضراوة والأكثر خطورة. لذلك علينا أن نجانب الحذر تماماً. أوصيكم أن تتجنبوا الوثبة الأولى لهذه الحيوانات التي يمكن أن تتجاوز بقفزة واحدة من ست عشرة إلى عشرين خطوة. وإذا ما أخطأت في ضربتها الأولى لا تكرر المحاولة إلاّ نادراً. أنا أحدثكم عن خبرة. إنّها تعود إلى عرينها عند الفجر، حينئذاك سوف نواجهها. غير أنها ستدافع عن نفسها دفاعاً مستميتاً. أحيطكم علماً أن الأسود عند الصباح بعد أن تشعر بالشبع تماماً تكون أقل ضراوة وربما أقل شجاعة. هذه مسألة تتعلق بالمعدة. وأيضاً تتعلق بالمكان، لأنّها تكون أكثر خجلاً في المناطق التي تصادف فيها الإنسان باستمرار. لكنّها هنا، في الغابة، تملك كل الضراوة والوحشية. أوصيكم كذلك أن تقدروا تماماً المسافة قبل الإطلاق. دعوا الحيوان يقترب ولا تطلقوا النار إلا بعد التسديد الصحيح وعلى الكتف تحديداً. أضيف إلي ذلك ضرورة ترك الجياد وراءنا. هذه الحيوانات تخاف في حضور الأسد وسوف تعرض حياة فارسها للخطر. لذا سنحارب على الأقدام فلا تدعوا رباطة جأشكم تخذلكم.

أصغى رفاق البشماني إلى توصيات الصياد بصمت. عاد موكوم رجل الصيد الصبور. إنّه يعلم أن الأمر سيكون خطيراً. صحيح أن الأسد في واقع الأمر لا ينقض عادة على الإنسان إذا ما مرّ به دون أن يتحرش به، غير أنّ هيجانه سيصل على أقل تقدير إلى حده الأقصى عندما يشعر بالهجوم. عندها يصبح حيواناً مَهولاً، حبته الطبيعة بالليونه ليقفز، وبالقوة ليصارع، وبالغضب الذي يجعله مرعباً. أوصى البشماني كذلك الأمر الأوروبين أن يتحلوا بالرصانه، خاصة السيد جون الذي تستولي عليه جرأته في بعض الأحيان.

– عليك أن تقتل الأسد، قال له، كما تقتل فرخ حجل، دون أن يرف لك جفن. هذا هو المهم. فعلاً هذا هو المهم. لكن من يستطيع الرد على مثل هذا الكلام عندما لا يكون مُدرباً بحكم العادة على الاحتفاظ برباطة جأشه بحضور الأسد.

عند الرابعة صباحاً، غادر الصيادون مكان استراحتهم بعد أن ربطوا بعناية جيادهم وسط حرجة كثيفة، كانت بعض الظلال المائلة للاحمرار تموج بين الضباب جهة الشرق، وكان الظلام دامساً.

أمر الصياد رفاقه أن يعاينوا أسلحتهم، تسلّح هو والسيد جون بغدارة يتم تلقيمها من المؤخرة، عليهما فقط زلق الطلقة ذات الطلف النحاسي داخل المحزن وتجربة ما إذا كان النابض يعمل جيداً. جدد ميشيل زورن ووليم إميري اللذان تسلحا ببنادق طويلة محززة، الذخائر التي ربما كانت رطوبة الليل قد أتلفتها. أما الرجال الثلاثة، فقد تزودوا بأقواس من الصبر كانوا يستعملونها بمهارة فائقة. في الحقيقة قُتل أكثر من أسد فيما مضى تحت وقع أقواسهم.



توجه الصيادون السته وقد شكلوا مجموعة متماسكة نحو الشِعْب الجبلي الذي كان العالمان الشابان قد استطلعا منافذه في الليلة الماضية. لم يكونوا ينبسوا بكلمة إنما ينسلون بين جذوع الأشجار الضخمة تماماً كما يفعل الهنود الحمرحين يسيرون بين أشواك غاباتهم.

بعد هنيهة وصلت الفرقة الصغيرة إلى الممر الضيق الذي يشكل مدخل الشعب. عند هذه النقطة كان يبدأ هذا الأخدود المحفور بين جدارين من صخر الغرانيت والذي يفضي إلى أولى انحدارات الخاصرة. في منتصف ذلك الأحدود تقريباً وعلى قسم وسيع منه بسبب انهيار سابق، كان ذلك العرين الذي يشغله قطيع الأسود.

عند ذاك اتخذ البشماني الترتيبات التالية: يترتب على السيد جون موراي وواحد من الرجال وهو أن يتقدموا لوحدهم منزلقين على النتوءات العالية للممر. كانوا على هذا النحو يأملون الوصول قرب العرين وطرد الحيوانات المرعبة منه، وذلك بمطاردتها إلى الطرف السفلي من الممر. هناك يلزم على الشابين الأوروبيين والبشمانيين أن يلبدوا في مكمنهم لاستقبال الهاربين بضربات الأقواس والبنادق.

المكان مناسب تماماً لهذا العمل. فقد كانت شجرة جُميز عملاقة تهيمن على الحرجة المحيطة وتوفر أغصانها العديدة المتفرعة مكمناً آمناً لا يمكن للأسود بلوغه. كما هو معلوم لم تهب الطبيعة هذه الحيوانات مَلَكة تسلق الأشجار مثل مثيلاتها من العرق السنوري. هكذا يستطيع الصيادون وقد تمركزوا على هذا الإرتفاع أن يتجنوا وثباتها ويطلقوا النار عليها بشروط ملائمة تماماً.

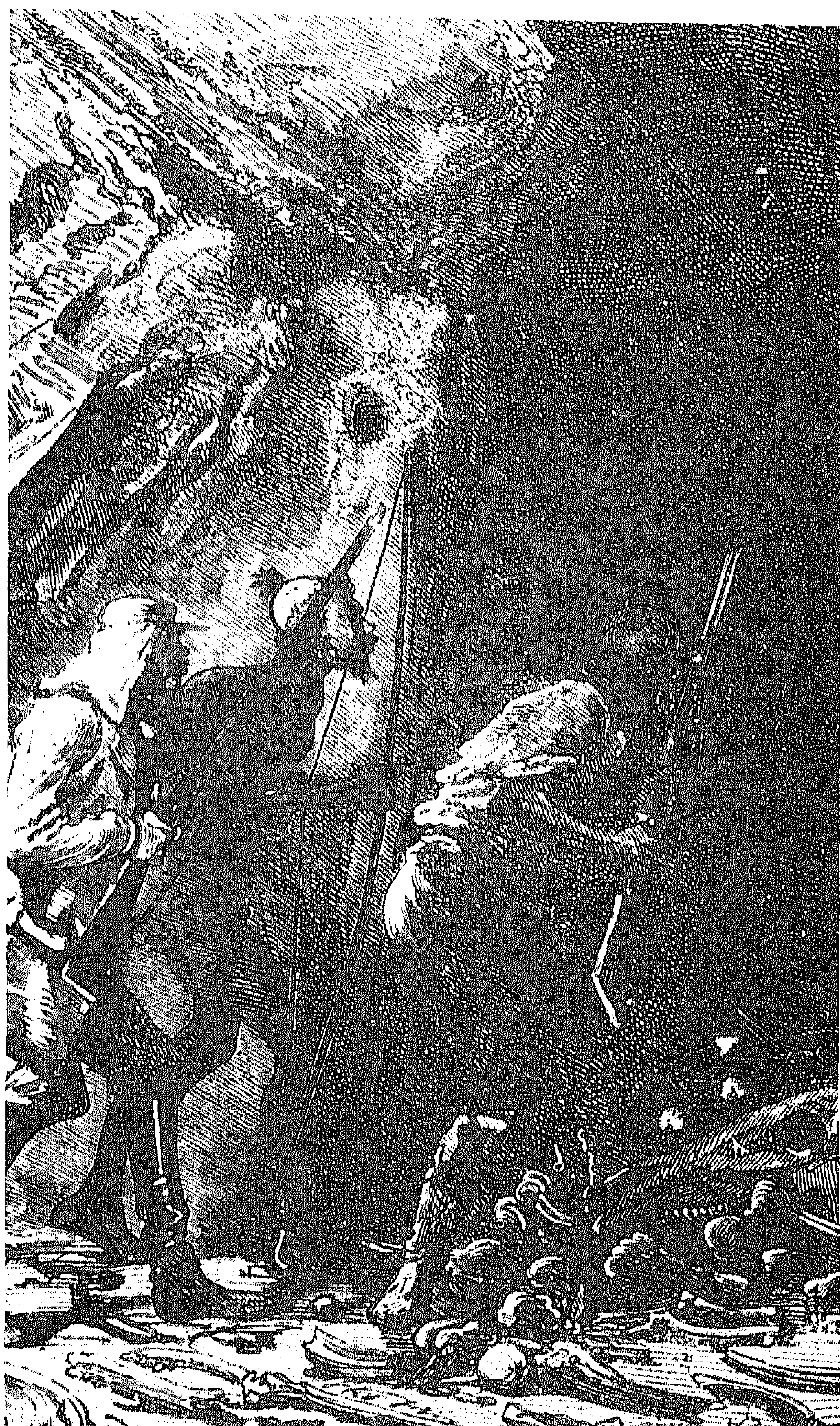
على هذا الأساس، ترتب على موكوم والسيد جون وواحد من السكان المخليين أن ينفذوا هذه المهمة المحفوفة بالخطر. أجاب الصياد على الملاحظة التي وجهها له وليم إميري أن الأمر لا يمكن أن يسير إلا على هذا النحو وأصر على عدم إجراء أيّ تعديل على خطته. فأذعن الشبان لرأيه.

بدأ النهار بالبزوغ. كانت قمة الجبل البعيدة تلمع مثل مشعل سلطت عليه أشعة الشمس. أشار، إليهم موكوم بالرحيل، بعد أن استقر رفاقه الأربعة على أغصان الجمُيزة. وسرعان ما بدأ هو والسيد جون والبشماني التسلق على طول الدرب الذي يحيط بالجدار الأيمن للممر.

تقدم الصيادون الثلاثة الشجعان على هذا النحو خمسين خطوة، يتوقفون أحياناً لمراقبة الممر الضيق الذي يرتقونه. لم يكن الشك ليراود موكوم في أنّ الأسود بعد جولتها الليلية قد عادت إلى مأواها، سواء لتلتهم فريستها أو لتأخذ قسطاً من الراحة. ربما يستطيع مفاجأتها وهي تغفو ويتخلص منها سريعاً.

بعد انقضاء ربع ساعة على اجتيازهم مدخل المضيق، وصل موكوم ورفيقاه أمام العرين، إلى الأنهدام الذي أشار إليه ميشيل زورن. مكنوا هناك في مكانهم ليتفحصوا المأوى.

إنّه عبارة عن مغارة واسعة نوعاً ما، لا يمكن من مكانهم تقدير عمقها. كانت بقايا الحيوانات والعظام تحجب مدخلها. لا التباس في الأمر. إنّه مكان خلوة الأسود الذي تحدث عنه الكولونيل.



غير أنّ المغارة في ذلك الوقت، على عكس ما افترض الصياد كانت تبدو مهجورة. انزلق موكوم وقد تسلح ببندقيته إلى الأرض، وزحف على ركبتيه حتى وصل إلى مدخل العرين.

رمى بعجلة نظرة إلى الداخل وأيقن أنّها كانت خاوية- بناء على هذا الظرف الذي لم يكن ليتوقعه، عدّل موكوم عن خطته. انضم رفيقاه إليه خلال لحظة وقد ناداهما.

- سيد جون قال الصياد، لم تعد فرائسنا إلى مأواها بعد. غير أنّها لن تتأخر في الظهور. أتصور أنّه من المستحسن لنا أن نستقر في مكانها. يفضل أن نكون محاصَرين لا محاصِرين مع حيوانات جسورة كهذه. خاصة عندما يكون للمكان قوات إغاثة عند أبوابه. ما رأيّ سعادته؟

- أقرك الرأي أيّها البشماني. أجاب السيد جون موراي. أنا تحت تصرفك وأنفذ أوامرك. ولج موكوم والسيد جون والبشماني إلى العرين. إنّه مغارة عميقه الغور تملؤها العظام وقطع اللحم المدماة. أسرع الصيادون بعد وثوقهم من خلاء المكان تماماً إلى سد المدخل بحجارة كبيرة قاموا بدحرجتها بمشقة، وكدسوها الواحد تلو الآخر. سُدت الفراغات بين الحجارة بأكوام الأغصان والأشواك الجافة التي كانت تغطي القسم من الممر الذي نحتته السيول.

لم يستغرق هذا العمل إلا بضع دقائق، إذ كان المدخل ضيقاً نسبياً. اتجه الصيادون بعد ذاك نحو حاجزهم المليء بالثقوب ولبثوا ينتظرون خلفه.

لم يطل انتظارهم كثيراً. نحو الساعة الخامسة والربع، ظهر أسد ولبؤتان على بعد مائة خطوة من العرين. إنّها حيوانات ضخمة، كان الأسد الذي يهز لبدته السوداء ويكنس الأرض بذيله المرعب، يحمل بين فكيه ظبياً كاملاً، ويهزه كما يفعل هر مع فأرة صغيرة. لم تكن تلك الفريسة لتشكل عبئاً على خطمه القوي، إذ يتحرك رأسه براحة مطلقة رغم حمْله الثقيل. كانت اللبوتان بجلدهما الأصفر تصحبانه قافزتين. شعر السيد جون أنّ قلبه يخفق بشدة - هذا ما اعترف به سعادته بعد حين- فتح عيناه على اتساعهما، وتغضن جبينه. لقد شعر أنّ موجة من الخوف الشديد تتنابه ممزوجة بالدهشة والقلق. لكن ذلك لم يدم طويلاً، فسرعان ما تمالك نفسه. أما زميلاه، فقد كانا هادئين مثلما يكونان عادة.

أثناء ذلك، شعر الأسد واللبوتان بالخطر. توقفوا عن السير بعد أن رأوا مدخل مغارتهم مسدوداً. أقل من ستين خطوة تفصلهم عنها. أطلق الذكر زئيراً أجشاً ثم ألقى نفسه وقد تبعته اللبوتان، في دغل إلى اليمين، إلى أسفل المكان تقريباً حيث توقف الصيادون في بادىء الأمر. إنهم يرون تلك الحيوانات المخيفة بوضوح عبر الأغصان، بما في ذلك الكشح الأصفر والآذان المنتصبة والعيون البراقة.

- ها هي الأفراخ هنا. همس السيد جون في أذن البشماني. لكل واحد منا نصيبه.

- كلا. رد موكوم بصوت خفيض. لم يكتمل عددهم بعد وسوف يخيف العيار الناري بقية الأسود. هل أنت واثق من سهمك من هذه المسافة أيّها البشماني؟

- أجل موكوم. رد الرجل.

- حسن. سدد على الجنب الأيسر للذكر واطعنه في قلبه!

مدّ البشماني قوسه وسدد بانتباه كبير عبر الأشواك. انطلق السهم مُصَفّراً. علا صوت زئير. قفز الأسد وثبة واحدة وسقط على بعد ثلاثين خطوة من المغارة. هناك بقي بلا حراك وقد برزت بوضوح أسنانه المسننة التي كانت تبدو بوضوح بين شفاهه الحمراء المدماه.

- جيد أيّها البشماني! قال له موكوم.

في هذه اللحظة غادرت اللبوتان الدغل وهرعتا نحو جثة الأسد الهامدة. ظهر على صوت زئيرهما المرعب أسدان أخران، واحد منهما ذكر عجوز بأنياب صفراء تتبعه أنثى ثالثه، وذلك عند منعطف المضيق. كانت الأسود تبدو هائلة الحجم بعد أن وقف شعر لبدتها السوداء بتأثير هلعها الكبير، حتى بانت في ضعف حجمها الطبيعي. إنّها تثب مطلقة زئيراً لا يمكن بأيّ حال تصديق قوته.

- إلى البنادق الآن، صاح البشماني. لنطلق النار عليها وهي تقفز ما دامت ترفض أن تلبث أرضاً! دوت طلقتان. سقط صريعاً واحد من الأسود وقد أُصيب بطلقة البشماني الانفجارية عند أول الكلى. أما الأسد الآخر الذي سدد عليه السيد جون، فقد أسرع نحو الحاجز وقد كُسرت ساقه. تبعته اللبوتان ثائرتين. لقد كانت تلك الحيوانات المرعبة ترغب فتح المغارة عنوة. وكان لها أن تنجح في مسعاها لو لم يوقفها عن ذلك إحدى الطلقات.

تراجع البشماني ومواطنه والسيد جون إلى داخل العرين. عُبأت البنادق مجدداً. طلقة أو اثنتان صائبتان وربما كانت ستسقط الحيوانات المتوحشة بلا حراك، عندما حدث طارىء غير متوقع جعل الصيادين الثلاثة في وضع لا يحسدون عليه.

ملأ المغارة بغتة دخان كثيف. سقطت واحدة من الحشوات وسط الأعشاب الجافة وأشعلتها.

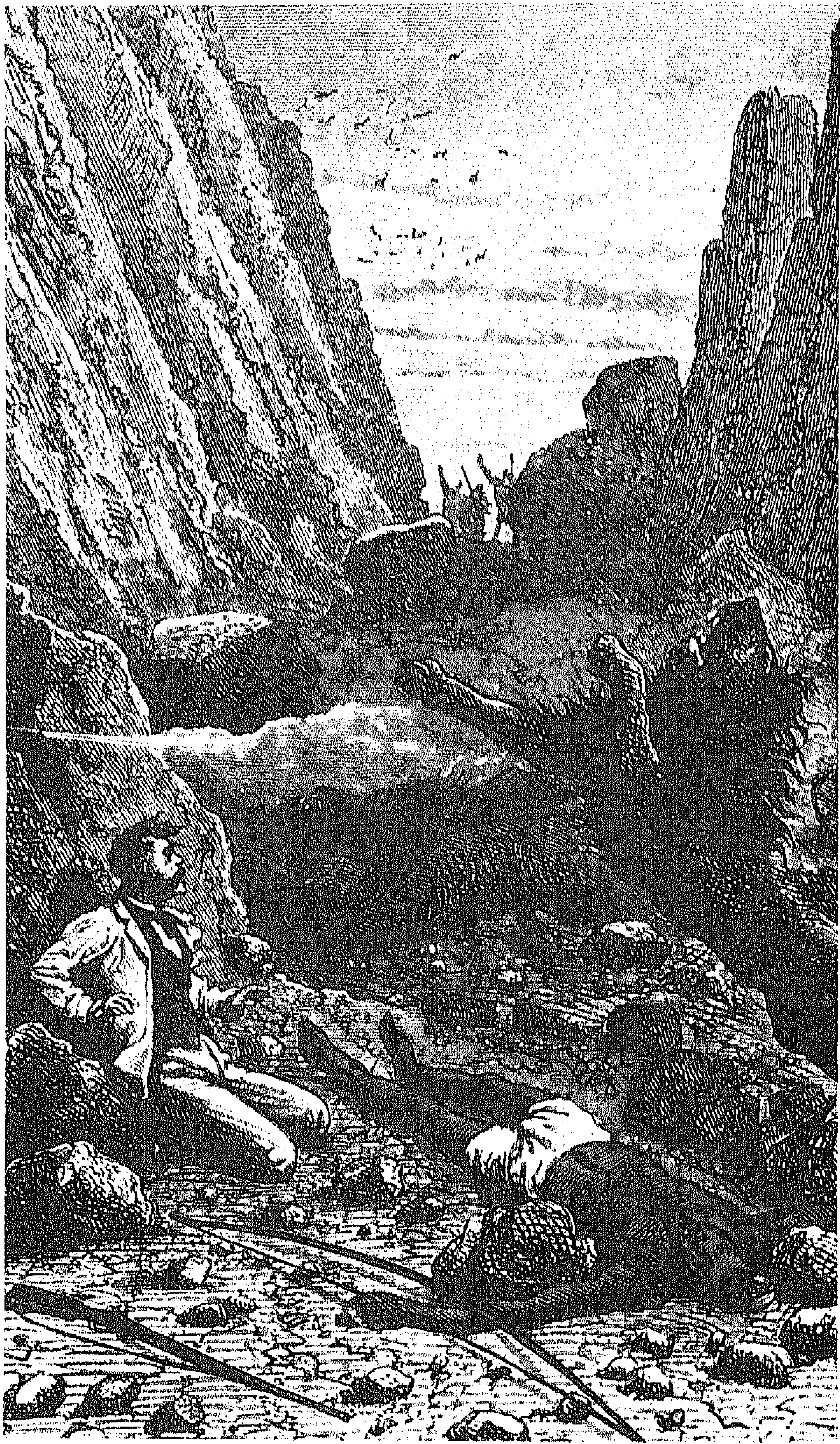
سرعان ما امتدت بين الرجال والحيوانات مساحة واسعة من اللهب، زاد من اضرامها الهواء. تراجعت الأسود ولم يعد باستطاعة الصيادين البقاءفي مكانهم دون أن يتعرضوا للاختناق خلال بضع ثوان.

كان الوضع رهيباً ولا مجال للتردد..

- إلى الخارج. إلى الخارج. صاح البشماني وقد بدأ يشعر بالاختناق.

أبعد الصيادون أشواك العليق بأخمص بنادقهم، ورفعوا أرضاً حجارة الحاجز ثم هرعوا إلى الخارج وقد ضاقت أنفاسهم وسط الدخان المزوبع.

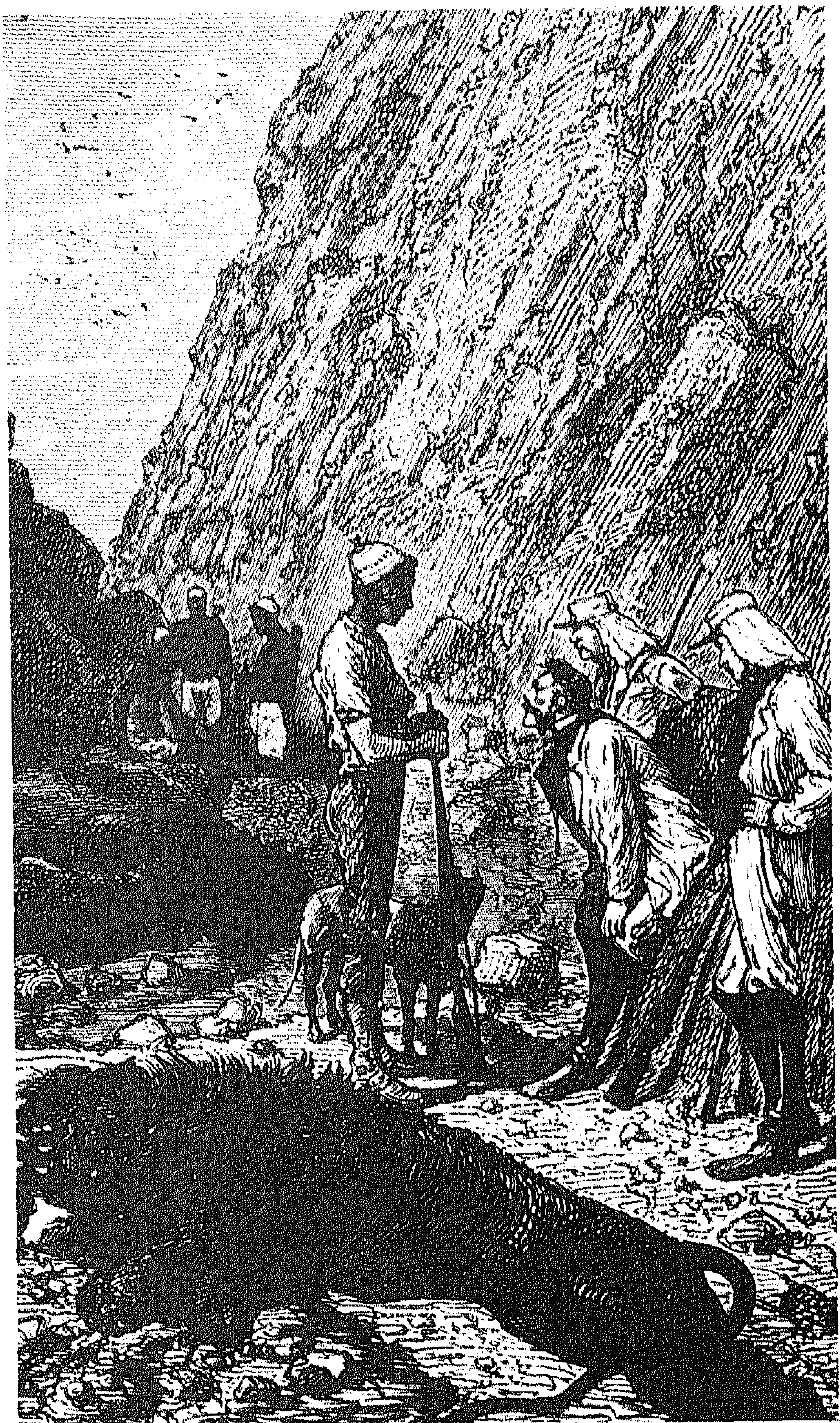
لم يكد البشماني والسيد جون يلتقطان أنفاسهما حتى انقلبا أرضاً سوية. ضربت واحدة من اللبوتان السليمتان الافريقي برأسها، والأخرى الإنكليزي بذيلها. لبث البشماني الذي تلقى الضربة في صدره، بلا حراك على الأرض. أما السيد جون فقد ظن أنّ ساقه قد كسرت فسقط على ركبتيه. في اللحظة التي عاد فيها الحيوان لمهاجمته، أوقعته جثة هامدة



رصاصة أطلقها موكوم، كانت قد اصطدمت بعظمة من عظامة وانفجرت داخل جسده.

في هذه اللحظة بالذات، لاح عند منعطف المضيق ميشيل زورن ووليم إميري والبشمانيين، وقد حضروا في الوقت المناسب تماماً، ليشاركوا في المعركة. سقط صريعاً أسدان وقد أُصيبا بضربات السهام والطلقات النارية. أما الحيوانات الأخرى التي نجت من الموت، اللبوتان والذكر الذي كسرت ساقه طلقة السيد جون النارية، فكانت لا تزال خطيرة. والحال هذه، قامت البنادق المحززة التي تديرها يد خبيرة، بمهمتها على أكمل وجه. سقطت لبوة أخرى برصاصتين في الرأس وعلى الكشح. قفز الأسد الجريح واللبوة الثالثة قفزة هائلة ومرّا فوق رؤوس الرجال، ثم اختفيا عند منعطف المضيف تحييهما للمرة الأخيرة اثنتان من الطلقات واثنان من السهام.

أطلق السيد جون صرخة هوراه لانتصارهم. لقد هُزمت الأسود وها هي جثث أربع ترقد على الأرض. هرع الجميع قرب السيد جون موراي. وبمساعدة زملائه تمكن من الوقوف لحسن الحظ، لم تكن ساقه مكسورة أما البشماني الذي أوقعته أرضاً ضربة الرأس، فقد عاد لرشده بعد لحظات، بعد أن أصابه الدوار بفعل تلك الدفعة العنيفة، بعد ساعة عادت الفرقه الصغيرة إلى الدغل حيث رُبطت الأحصنة دون أن تصادف زوج الأسود الهارب.



- حسن. قال موكوم للسيد جون. هل سعادته راض عن فراخنا الإفريقية؟

- بل مفتون بها. رد السيد جون وهو يجس ساقه المرضوضة. مفتون جداً! إنما ياله من ذيل أيها البشماني الكريم. أيّ ذيل هو!

* * *

بمساعدة النار

في هذه الأثناء، كان الكولونيل إفريست وزملاؤه ينتظرون في المخيم بفروغ صبر طبيعي، نتيجة المعركة الدائرة عند سفح الجبل. فإذا نجح الصيادون في مهمتهم ستظهر العلامة المضيئة عند الليل. لذا نفهم تماماً القلق الذي كان يساور العلماء خلال الليلة بأكملها. كانت أدواتهم على أهبة الاستعداد للعمل بعد أن وجُهت إلى قمة الجبل، بطريقة يرون فيها وميض الضوء مهما كان ضعيفاً ضمن مجال العدسة. هل سيظهر هذا الوميض يا تُرى؟

لم يتذوق الكولونيل إفريست وماثيوستروكس طعم الراحة لثانية واحدة. فقط نيكولا بالاندر الشارد أبداً، كان ناسياً في خضم حساباته أنّ خطراً ما يهدد زملاءه. غير أننا لا نتهمه بأنانية شاذة!

إنما نقول عنه ما يمكن أن نقوله عن العالِم الرياضي بوڤار «لن يتوقف عن الحساب حتى يتوقف عن الحياة» وربما لن يتوقف نيكولا بالاندر عن الحياة إلا لأنه توقف عن الحساب!

يلزم القول إنّه في غمرة همومهما، كان القلق ينتاب العالمان الإنكليزي والروسي بشأن إنهاء عملياتهما الجيودوزية، بنفس القدر على الأقل الذي ينتابهما بشأن الأخطار التي تحوق بأصدقائهما. هذه الأخطار قد جابهاها بنفسيهما، غير متناسين انتمائهما إلى العِلم المناضل. لكن النتيجة هي التي كانت تؤرقهما. فعائق طبيعي واحد لا يمكن تخطيه، يمكن

له أن يوقف نهائياً أعمالهما، أو على الأقل يؤخرها. لذا كانت هذه المعاناه على مدى ذاك النهار الطويل مفهومة تماماً.

أخيراً أقبل الليل. لزم على الكولونيل إفريست وماثيوستروكس أن يراقبا كلٌّ على حدة، لمدة نصف ساعة. فاستقرا كل في دوره أمام عدسة المنظار. وسط تلك الظلمة، لم يكونا ينبسان بحرف وإنما يتناوبان العمل بدقة وقتية لا متناهية. فالفضل سيكون للذي يرى أولاً العلامة المنتظرة بفارغ الصبر.

مرت الساعات وتجاوزت الساعة منتصف الليل. لم يلح بعد أيّ شيء فوق القمة المعتمة، أخيراً عند الساعة الثالثة إلا ربع صباحاً، وقف الكولونيل إفريست ببرود وقال بكل بساطة:

- العلامة.

لقد اختاره القدر ليغيظ زميله الروسي الذي كان يتمنى أن يشاهد بنفسه ظهور الفانوس غير أنّه تمالك نفسه ولم ينبس بكلمة واحدة.

حُسب الإرتفاع على الفور باهتمام شديد رافقته الدقة اللا المتناهية. وبعد عمليات رصد كُررت عدة مرات، حسب الزاوية بـ ٣١٤, ٤٢, ٥٨° ٧٣ وبذلك كان قياس الزاوية محسوباً حتى أجزاء الململتير من الثانية. أي بدقة مطلقة.

في اليوم الثاني. رفُع المخيم عند الفجر. كان الكولونيل إفريست يرغب ملاقاة زملائه بأسرع وقت ممكن. فهو يتحرق شوقاً لمعرفة ما إذا كان هذا الغزو للجبل قد دفُع ثمنه غالياً. سارت العربات تحت قيادة

الفوريلوبه، وعند الظهيرة اجتمع أعضاء اللجنة العلمية بكاملهم. لم يتخلف واحد منهم عن النداء. قُصت أحداث المعركة ضد الأسود وهُنِّيِ المنتصرون بحرارة.

في فترة الصباح، قاس ميشيل زورن ووليم إميري وجون موراي من أعلى الجبل، المسافة الزاويّة لمحطة جديدة تقع على عدة أميال غرب خط الهاجرة. لذا كان يمكن للعمليات أن تستمر دونما تأخير. حسب العلماء بعد أن أخذوا الارتفاع السمتي لبعض النجوم، خط عرض قمة الجبل، الذي استخلص منه نيكولا بالاندر أنّ جزءاً ثانياً من قوس خط الهاجرة المعادل لدرجة واحدة، قد تم الحصول عليه عن طريق القياسات المثلثاتية الأخيرة. وبذلك حصل علماء الفلك بالخلاصة على درجتين منذ بداية القاعدة بسلسلة من خمسة عشر مثلث.

استمرت العمليات التي تجري في شروط مرضية تباعاً. كان الأمل يراودهم في أن لا يعترض إنهاء عملهم أيّ عائق طبيعي. ظلت السماء لخمسة أسابيع متتاليه ملائمة لعمليات الرصد، وحتى المنطقة القليلة الوعورة كانت ملائمة لإعداد علامات التسديد. أقيمت تحت إمرة موكوم المخيمات بانتظام، وزودت بالمؤون بلا انقطاع. كان صيادو القافلة يرأسهم السيد جون يمونون البعثة بلا انقطاع. لم يستطع الإنكليزي المحترم أن يحصي الأنواع المتنوعة من الظباء والثيران التي كانت تسقط تحت وقع طلقاته. كل شيء يسير نحو الأفضل والصحة العامة مرضية. حتى الماء لم يكن قد نَدَر بعد داخل ثنيات الأرض - أخيراً بدت المناقشات بين الكولونيل إفريست وماثيوستروكس أقل حدة لحسن حظ زملائهما. أصبح كل واحد منهما يبالغ بإظهار حماسته، وبذلك يمكن التنبؤ سلفاً بالنجاح

القطعي للمشروع، عندما حدث طارىء محلي، أعاق بشكل مؤقت عمليات الرصد وأثار حميّة المنافسات الوطنية من جديد.

كان ذلك في الحادي عشر من آب، كانت القافلة تجتاز منذ الليلة الفائتة بلداً مشجراً تتتابع فيه الغابات والحرجات ميلاً بعد ميل. وقفت العربات في ذلك الصباح أمام تجمع هائل لغابات عالية تمتد حدودها حتماً إلى ما وراء الأفق. لا يمكن لشيء أن يكون مهيباً أكثر من هذه الكتل الخضراء التي تبدو كستارة يصل طولها إلى مائة قدم نُشرت فوق الأرض.

لا يمكن لأيّ وصف أن يقدم صورة صحيحة عن هذه الأشجار الرائعة التي تشكل الغابة الإفريقية. في هذه الغابة، تمتزج الأنواع الأكثر تنوعاً، مثل الغوندا gounda والموسوكوسو mosokoso والموكومدو moukomdou. وهو خشب يستخدم في صنع السفن البحرية، وشجر الآنبوس ذي الجذوع الضخمة الذي يغطي قشرتها لب فاحم السواد، والبوهينيا bauhinia بالألياف الحديدية والبوشنيراس buchneras بوروده البرتقالية اللون، وأشجار رود بلاتس roodeblatts الرائعة بجذعها المائل للبياض والمتوجة بأوراق قرمزية اللون فائق الحسن. أخيراً أشجار الغياك gaïacs التي تعد بالآلاف ويصل قطر بعض منها إلى خمسة عشر قدماً. من هذه الكتلة الكثيفة كان يخرج همس مؤثر وفخيم بآن معاً يُذكرنا بصوت ارتداد الأمواج على شاطىء رملي. إنه الهواء الذي كان يلفظ أنفاسه عند تخم الغابة العملاقه بعد أن يتسلل عبر هذه الأفناد القوية عند ذاك أجاب الصياد على سؤال طرحه عليه الكولونيل إفريست:

- إنّها غابه راڤوما!

- ما هو عرضها من الشرق إلى الغرب؟

- خمسة وأربعون ميلاً،

- وطولها من الجنوب إلى الشمال؟

- عشرة أميال تقريباً.

- وكيف يمكننا العبور عبر هذه الكتلة الكثيفة من الأشجار؟

- لا يمكننا ذلك. رد موكوم. ليس فيها درب يصلح للسير. ثمة حل واحد أن ندور حول الغابة إما من الشرق أو من الغرب.

عندما سمع رئيسا البعثة أجوبة موكوم الدقيقة جداً، وقعا في حيرة كبيرة. لا يمكن حتماً نصب علامات إرشاد في هذه الغابة وأرضها مسطحة للغاية. وأن يدوروا حولها، أي أن يبتعدوا حوالي عشرين إلى خمسة وعشرين ميلاً عن خط الهاجرة، من هذه الجهة أو تلك، يعني على الأخص زيادة أعمال التثليث، بذلك قد يضطرون لإضافة عشر مثلثات أخرى إلى السلسلة المثلثاتية.

على هذا النحو صعوبة حقيقية، عائق طبيعي ظهر أمامهم، المسألة على جانب كبير من الأهمية ويَصعب إيجاد حل لها. ما أن تم نصب المخيم في ظل مجموعة من الأشجار الرائعة التي تبعد نصف ميل عن تخم الغابة نفسها، حتى دُعيّ علماء الفلك للإستشارة بهدف التوصل إلى قرار. على الفور تم استبعاده فكرة التثليث عبر هذه الأجمة الواسعة من الأشجار. فمن البديهي صعوبة العمل في هكذا شروط. بقي أن يناقشوا اقتراح الدوران حول الغابة، إما من اليسار أو من اليمين. فالمساحة بين الجهتين كانت واحدة تقريبا لأنّ خط الهاجرة كان يمر في الغابة من منتصفها.

خلُص أعضاء اللجنة الروسية الإنكليزية في نهاية الأمر إلى الدوران حول العائق المنيع. سواء أكان من الشرق أو من الغرب لا يهم كثيراً. غير أنّ مشادة عنيفة بين الكولونيل إفريست وماثيوستروكس قد وقعت تحديداً بسبب هذا الأمر التافه- فالمتنافسان اللذان تمالكا نفسيهما منذ بعض الوقت، وجدا مجدداً في هذه القصة عداوتهما القديمة، التي انتقلت فقط من حالة الكمون إلى الحالة الحسية، وانتهى بها الأمر لأن تتحول إلى نزاع خطر. حاول زملاؤهما عبثاً أن يتوسطا بينهما. غير أنّ الرئيسين رفضا الأصغاء. تمسك الإنكليزي بجهة اليمين، لأنّها تقرّب البعثة من الطريق الذي تبعه داڤيد ليڤنغسون أثناء رحلته الأولى إلى شلالات الزامبيز، وهذا هو على الأقل سبب وجيه لأنّ هذا البلد الذي عرفه الإنسان أكثر وسلك دروبه أكثر، يمكن أن يوفر لهم ميزات عدة. بينما مال الروسي لجهة اليسار، ليعارض رأي الكولونيل فقط، فلو أراد ذلك الأخير اجتياز الجهة اليسرى لتمسك هو باليمنى.

حمي وطيس الشجار حتى يمُكن التنبؤ أنّ لحظة الانشقاق بين أعضاء اللجنة قد أضحت وشيكة الوقوع.

غادر ميشيل زورن ووليم إميري والسيد جون موراي ونيكولا بالاندر الجلسة بعد أن أُسقط بيدهم، تاركين الرئيسين لخصامهما. كان عنادهما كبيراً جداً لدرجة يخشون فيها حدوث أيّ شيء، كأن تستمر الأعمال التي علُقت عند هذا الحد، بسلسلتين من المثلثات الإضافية.

مرّ النهار دون أن يِحدث أيّ تقارب في وجهات النظر المتعارضة. في اليوم التالي، الثاني عشر من آب، بحث السيد جون عن البشماني واقترح

عليه أن يجوبا الأنحاء، بعد أن توقع أن العنيدين لم يتفقا بعد على رأي. ربما خلال هذا الوقت، يتوصل العالمان إلى سبيل للتفاهم. على أيّة حال لا يمكن للرجال أن يستهينوا بقطعة من لحم الطرائد الطازج.

صفرّ موكوم الجاهز دائماً لكلبه توب. جازف الصياد ان بالتوغل بعيداً لعدة أميال. يجوبان الحرجة ويفتشان عند تخم الغابة، وهما يتبادلان الحديث تارة ويقتفيان أثر الطرائد تارة أخرى. دار الحديث بطبيعة الحال بينهما حول الحادثة التي تعيق استمرار العمليات الجيودوزية.

- أتصور، قال البشماني، أننا سنلبث لبعض الوقت عند تخم غابة راقوما. إذ لا يبدو على رئيسينا خنوع واحدهما للآخر. ليسمح سيادته لي بهذه المقارنة، واحدهما يجر إلى اليمين والأخر إلى اليسار مثل ثورين لا يتفقان أبداً. وبهذه الطريقة لا يمكن للآلة أن تسير.

- هذا مثير للسخط. رد السيد جون موراي. وأخشى ما أخشاه أن يؤدي بنا هذا العناد إلى قطيعة كاملة. لولا مصالح العلم لما باليت بهذه المنافسة الفلكية أيّها الشجاع موكوم. إنّ مناطق أفريقيا الغاصّة بالطرائد تسليني. وحتى اللحظة التي سيتفق فيها المتنافسان، سأجوب الأنحاء حاملاً بندقيتي بيدي.

- لكن في هذه المرة، هل يظن سيادته أنهما سيتفاهمان حول هذه النقطة؟ من جهتي لا أظن ذلك. وكما كنت أقول يمكن لتوقفنا أن يستمر إلى ما لا نهاية.

- أخشى ذلكِ يا موكوم. أجابه السيد جون. يتخاصم رئيسانا على نقطة تافهة للأسف ولا يمكن حلها علمياً. الإثنان على صواب وعلى خطأ. لقد صرّح الكولونيل بشكل قاطع أنه لن يخضع أبداً لرأي زميله، وأقسم ماثيوستروكس أنه لن يستسلم لادعاءات الكولونيل. لن يقبل أبداً هذا العالمان اللذان دون ريب سيخضعان أمام حجة علمية، لن يقبلا ببعض التنازلات عندما يتعلق الأمر بقضية صرفة لكبرياء وطني. هذا مؤسف بحق بالنسبة لمصلحة أعمالنا أن يمر خط الهاجرة في وسط هذه الغابة.

- لتذهب الغابات إلى الجحيم عندما يتعلق الأمر بعمليات مشابهة! على فكرة، ما هي العبرة عند هؤلاء العلماء في قياس طول وعرض الأرض؟ هل سيتقدمون أكثر عندما يحسبونها بالأقدام والبوصات؟ بالنسبة لي يا سيدي، أحب أن أجهل كل هذه الأشياء! أفضل أكثر أن اعتقدها واسعة ولا محدودة هذه الأرض التي أحيا عليها! أرى أننا ننتقص من قيمتها عندما نعرف أبعادها الحقيقية إلا يا سيد جون. لو عشت مائة عام لن أستسيغ أبداً الفائدة من عملياتكم.

لم يتمالك السيد جون نفسه عن الإبتسام. لقد ناقش مراراً هذه النظرية مع الصياد، ولم يتمكن ذلك الطفل الجاهل البريء، ذاك العدّاء الحر للغابات والسهول، ذاك المطارد المغوار للحيوانات المتوحشة، لم يتمكن حتماً من فهم الفائدة العلمية المتعلقه بمسح الأراضي. قد يحثه السيد جون أحياناً في ذلك الشأن، غير أنّ البشماني كان يرد عليه بحجج استمدها من فلسفة الطبيعة، يبرزها مشوبة بنوع من البلاغة البرية، كان هو نصف عالِم ونصف صياد يتقبل كل سحرها.

وبينما كانا يتسامران على هذا النحو، طارد السيد جون موكوم الفرائس الصغيرة للسهل، من أرانب الصخور البرية «الجيوسيور gios-ciures» وهو نوع جديد من القواضم اكتشفها Ogilly تحت اسم graphy-cerus elegans وطيور الزقزاق ذات الصوت الحاد وأسراب الحجل ذات الريش الأسمر والأصفر والأسود. لكن يمكننا الجزم أنّ السيد جون انشغل وحيداً بأمور الصيد، لأنّ البشماني كان قليلاً ما يطلق النار. إنّه يبدو مشغولاً بهذه المنافسة بين عالمي الفلك التي ستهدد بفشل البعثة دون ريب. كانت حادثة «الغابة» تثقل كاهله أكثر مما تقلق السيد جون نفسه. لم يكن تنوع الفرائس ليثير في نفسه إلا اهتماماً سطحياً ولهذا دلالة خطيرة عند صياد مثله.

في بادىء الأمر كانت فكرة مبهمة تشغل فِكر البشماني. شيئاً فشيئاً بتلورت هذه الفكرة لتأخذ شكلاً أكثر وضوحاً في مخيلته. كان السيد جون يسمعه يتحدث إلى نفسه، يسألها ويرد عليها. أنّه يراه يضع بندقيته جانباً غير مبال بزحف فرائس الريش والوبر، ساكناً وغارقاً في تأملاته كما يفعل نيكولا بالاندر عندما يبحث عن خطأ في اللغاريتم. احترم السيد جون تصرفه على هذا النحو ولم يرغب أن ينتشل مرافقه من تفكيره الرصين.

اقترب موكوم من السيد جون خلال النهار مرتين أو ثلاث سائلاً إياه:

- وهكذا يظن سيادته أن الكولونيل إفريست وماثيوستوكس لن يتوصلا إلى اتفاق بينهما؟

فيرد السيد جون على هذا السؤال رداً واحداً. إنّ الاتفاق يبدو صعب المنال ويُخشى أن يقع شقاق بين الروس والإنكليز.

طرح موكوم السؤال نفسه للمرة الأخيرة نحو المساء، على بعد عدة أميال من المخيم، وتلقى الإجابة نفسها. غير أنّه في هذه المرة أضاف قائلاً:

- حسن ليطمئن سعادته لقد وجدت وسيلة تحكم بالصواب للعالمين معاً.

- أحقاً أيها الصياد المحترم؟ رد السيد جون مندهشاً تماماً.

- أجل يا سيد جون أكرر ما قلت. قبل الغد لن يجد الكولونيل إفريست والسيد ستروكس أيّة حجة للنزاع، إذا كان الهواء مناسباً.

- ماذا تقصد بقولك ياموكوم؟

- أنا أدرك تماماً ما أقول يا سيد جون.

- لابأس. افعل ذلك يا موكوم وسوف تُقدر لك ذلك علوم أوروبا. ويُدون اسمك في سجلات العلماء!

- هذا شرف كبير لي يا سيد جون. رد البشماني دون أن يضيف أيّة كلمة أخرى، فهو بلا شك يقلب خطته من كافة وجوهها.

احترم السيد جون صمته ولم يطلب أيّ تفسير من البشماني. مع أنّه حقيقة لم يتمكن من التكهن بأيّة طريقة كان يدعي مرافقه تسوية الخلاف بين العنيدين اللذين يضربان بعُرض الحائط نجاح العملية من أجل سبب مثير للسخرية.

رجع الصيادان إلى المخيم نحو الساعة الخامسة مساء. لم يتغير الوضع قيد أنملة، بل أن الخلاف بين الروس والإنكليز قد زداد حدة. لم يُسفر التدخل المتكرر من جانب ميشيل زورن ووليم إميري عن أيّة نتيجة.

أضحى أي موقف للمصالحة بين الطرفين أقرب إلى المستحيل بعد الشتائم الشخصية التي تباد لها الطرفان في عدة مناسبات، وبعد التلميحات المؤسفة التي صاغاها. بل يُخشى أن يتحول الخصام بعد أن تصاعد على هذا النحو إلى تحد سافر بينهما. بذا يكون مستقبل عملية التثليث مهدداً إلى حد ما، إلا إذا تابعه كل واحد من العلماء على حدة ولحسابه الشخصي.

في هذه الحالة سيترتب على ذلك انفصال مباشر بينهما، كان هذا الاحتمال يثير بشكل خاص حزن الشابين اللذين اعتادا جداً على وجودهما معاً، وعلى ارتباطهما بود عميق متبادل.

فهم السيد جون ما كان يجري بينهما وحزر تماماً سبب حزنهما. لربّما كان باستطاعته أن يطمئنهما بإعادة ما ذكره البشماني له، لكنه لثقته القليلة بالاخير، لم يرغب أن يسبب لصديقيه الشابين فرحاً مزيفاً، قرر أن ينتظر حتى الغد تنفيذ وعد البشماني.

خلال السهرة، لم يجر ذلك الأخير أي تعديل في اهتماماته المعتادة. نظم حراسة المخيم كما كان يفعل عادة، وأشرف على ترتيب العربات، وأخذ كل الاحتياطات الضرورية لتأمين سلامة القافلة.

لذا ظن السيد جون أنّ الصياد قد نسي وعده، فرغب قبل أن يأخذ قسطاً من الراحة أن يسبر على الأقل نوايا الكولونيل إفريست نحو الفلكي الروسي. غير أنّ الكولونيل بدا حازماً وقاطعاً في قراراته، مضيفاً أنّه في حال رفض ماثيوستروكس أن يخضع له، فأن الروس الإنكليز سينفصلان. مفهوم أنّ «ثمة أشياء لا يمكن أن يتحملها المرء ولو من جانب زميل».

عند ذاك غادر السيد جون موراي وهو قلق للغاية، ولتعبه الشديد خلال يوم الصيد، لم يتوان عن النوم بسرعة. نحو الساعة الحادية عشرة ليلاً، استيقظ بغتة. كان هياج غريب قد استولى على الرجال. إنهم يروحون ويغدون وسط المخيّم.

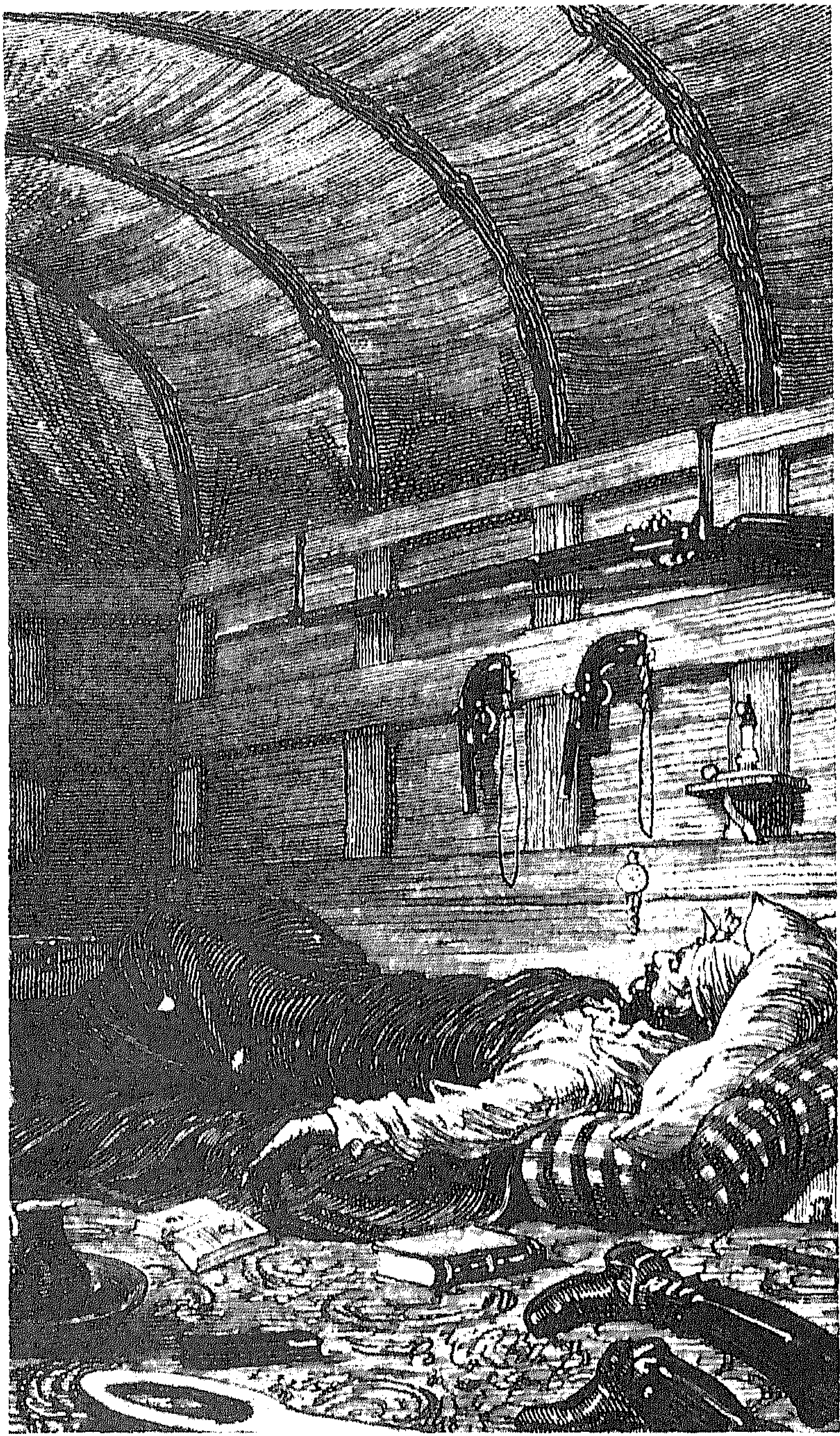
انتصب السيد جون واقفاً، ووجد زملاءه جميعهم قد استيقظوا أيضاً.

كانت الغابة تحترق!

ياله من مشهد! في تلك الليلة المظلمة وعلى خلفية السماء السوداء، كانت ستائر اللهب تبدو سامقة حتى الأفق. خلال لحظة امتد الحريق لمسافة عدة أميال.

نظر السيد جون موراي إلى موكوم الواقف بجانبه ساكناً. غير أنّ موكوم لم يبادله النظر. فهم السيد جون.

كانت النار تشق طريقاً للعلماء عبر هذه الغابة التي تعود إلى أجيال سحيقة.



كانت الريح التي تهب من الجنوب ملائمة لمشاريع البشماني. فقد كان الهواء المتسارع كما لو أنّه يخرج من مروحة يُسعّر النار ويُشبع الجمر المحتدم بغاز الأوكسجين. إنّه يؤجج اللهب وينتزع الشعلات والأغصان المشتعلة والفحم المتوهج ويحملها إلى البعيد. إلى حرجات كثيفة ستصبح في الحال مراكز حريق جديدة. كان مسرح الحريق يتوسع ويتعمق أكثر فأكثر، والحرارة الشديدة تصل حتى المخيم. يفرقع الخشب المحترق المتكدس تحت الأغصان المظلمة. وكان لمعان شديد جداً وسط المساحات الملتهبة يُحدث فجأة انقشاعات للضوء! إنّها الأشجار الصمغية التي كانت تُضيء مثل المشاعل. هنا وهناك ثمة أصوات طلق حقيقية وفرقعات وطقطقات جليّة حسب طبيعة الأنواع الشجرية، ثم أصوات تفجير كالقنابل تصدر عن الجذوع الخشبية المسنة التي يدخل في تركيبها الحديد. حتى السماء عكست هذا الحريق الهائل. بدت الغيوم ذات اللون الأحمر الفاقع محترقة وكأنّ ألسنة اللهب قد انتشرت حتى أعالي القبة السماوية. كما زينت حزم الشرر القبة السسوداء وسط زوابع الدخان الكثيف.

ثم سُمع من كافة جنبات الغابة المحترقة عواء وعويل وخوار الحيوانات. ثمة ظلال تمر وقطعان مذعورة تجري في كل اتجاه، وأطياف كبيرة داكنة اللون كان زئيرها الرهيب يخونها بين قطيع الهاربين. رعب لا يقف شيء في وجهه كان يقود تلك الضباع والثيران والأسود والفيلة حتى أقصى حدود الأفق الداكن.

دام الحريق الليل بطوله والنهار الذي يليه والليلة التالية أيضاً. وعندما لاح صباح الرابع عشر من آب، كانت فسحة واسعة التهمتها النيران تشق داخل الغابة طريقاً سالكاً. على عرض عدة أميال. شُقَ الطريق عند خط الهاجرة وتم في هذه المرة إنقاذ مستقبل عملية التثليث بفضل العمل الجرئي للصياد موكوم.

* * *

إعلان بالحرب

بوشرت الأعمال من جديد في اليوم ذاته. زالت كل الحجج التي تستدعي النقاش. لم يغفر الكولونيل إفريست وماثيوستروكس لبعضهما ما جرى، غير أنّهما باشرا معاً سير العمليات الجيودوزية.

إلى يسار ذلك المنفذ العريض الذي أحدثته النيران، ثمة أكمة واضحة للعيان تماماً، على مسافة نحو خمسة أميال... يمكن لذورتها أن تستخدم كعلامة تسديد وتساهم في تشكيل قمة مثلث جديد. لذا قيست الزاوية التي تصنعها مع المحطة الأخيرة، وفي اليوم التالي سارت القافلة إلى الأمام عبر الغابة المحترقة.

كانت الطريق مرصوفة بقطع الفحم ولا تزال التربة متقدة. بعض الأرومات هنا وهناك تُدخن، يتصاعد دخان حار مُشبّع بالأبخرة من الأرض - ثمة جثث متفحمة في عدة أماكن لحيوانات فوجئت في عزلتها ولم تستطع بفرارها أن تفلت من جنون النار. كان الدخان الأسود الذي يُزوبع في عدة أمكنة، يُشير إلى بؤر جزئية مازالت مشتعلة، حتى يمكن الظن أنّ الحريق لم يخمد بعد وأنّه سيستعيد قوته قريباً بفعل الرياح، ولن يتوقف قبل ابتلاع الغابة برمتها.

لذا كانت اللجنة العلمية تحث السير قدماً إلى الأمام. فلوطوقت النار القافلة ستضيع للأبد. إنّها تغذ السير لتجتاز مسرح الحريق الذي مازالت أجزاءه الأخيرة تحترق على جانبيه.

حث موكوم حميّة سائقي العربات، ونحو مُنتصف النهار كان المخيم قد أقيم عند سفح الأكمة التي قيس ارتفاعها سلفاً بالدائرة المكررة.

بدت الكتلة الصخرية التي تعتلي هذا المرتفع الأرضي وكأنّ يدٌ بشرية قد وضعتها هناك. إنها تبدُ مثل دُلْمن(*) أو مجموعة من الصخور الدُرويدية(*) التي يثير وجودها في هذا المكان دهشة عالم آثار. ثمة حجر ضخم رملي مخروطي الشكل يهمين على المجموع وينهي ذلك الأثر الذي قد يكون هيكلاً إفريقياً.

رغب عالما الفلك الشابان والسيد جون موراي زيارة ذلك النصب الغريب. استطاعوا ارتقاء الهضبة العليا بفضل واحد من انحدارات الأكمة، وكان البشماني برفقتهم.

عندما أضحى الزائرون على بعد عشرين خطوة من الدلمن، ظهر لوهلة رجل كان حتى ذلك الحين مختبئاً خلف واحد من حجارة القاعدة، ثم اختفى مسرعاً تحت دغل كثيف لم تطاله ألسنة النيران، بعد أن هبط الأكمة متدحرجاً على نفسه إذا جاز لنا القول.

لم ير البشماني ذلك الرجل إلا لدقيقة، غير أنها كانت كافية بالنسبة له ليتعرف به.

- إنه من الماكولولو! صاح وهو يحث الخطى لاقتفاء أثر الهارب.

(*) - (نصب ما قبل التاريخ قوامه حجر كبير مسطح موضوع فوق عدد من الحجارة المنصوبة).
(*) - (دَرْويد: كاهن من بلاد السلت كبريطانيا وفرنسا وإيرلندا يعتنق مذهباً دينياً وفلسفياً ويؤمن بخلود الروح).

تبع السيد جون موراي صديقه الصياد تشده غرائزه. جاب الاثنان الغابة دون أن يصادفا الرجل. لقد قصد ذلك الأخير الغابة، فهو يعرف أدق دروبها ولا يمكن لأكثر الرجال مهارة في اقتفاء الأثر أن يلحق به.

عندما علم الكولونيل بالحادثة، نادى البشماني واستفسره حول ذلك. من هو ذاك الرجل المحلي؟ ماذا يفعل في هذه الأنحاء؟ ولماذا سارع موكوم في تتبع آثار الهارب؟

– إنه واحد من قبيلة الموكولولو يا سيدي الكولونيل. أجاب موكوم. واحد من السكان المحليين لقبائل الشمال التي تتردد على روافد الزامبيز. هو عدو ليس فقط لنا نحن البشمانيون، إنّما نّهاب خطير لكل مسافر يجازف بالمرور وسط جنوب إفريقيا. كان الرجل يراقبنا وما يدعو للأسف، عدم تمكننا من القبض عليه.

– لكن أيّها البشماني، استأنف الكولونيل إفريست قوله، لماذا نخشى نحن هذه المجموعة من اللصوص؟أليس عددنا كافياً لمقاومتهم؟

– في الوقت الحالي أجل.. رد البشماني. بيد أنّ هذه القبائل النهّابة غالباً ما تلتقي في الشمال، وهناك يَصعب علينا الفرار منهم. إذا كان هذا الماكولولو جاسوساً– وهذا مايبدو لي أمراً مؤكد. لن يتوانى عن توزيع المئات من اللصوص على طريقنا، عند ذاك لن تساوي مثلثاتكم كلها في نظري ربع بنس.

اغتاظ الكولونيل إفريست كثيراً من هذا اللقاء. هو يعلم حق العلم أنّ البشماني لا يبالغ في إظهار الخطر، بل يجب الأخذ بعين الاعتبار بكل

ملاحظاته. إنّ نوايا الرجل مريبّه، ظهوره المباغت وهروبه الفوري، يدلان على أنّه ضبط بالجرم المشهود وهو يتلصص. من المستحيل ألاّ يكون خبر وجود البعثة قد أُفشي على الفور لقبائل الشمال. على أيّة حال، سبق السيف العذل، ليس أمامهم سوى السهر على مسيرة القافلة بيقظة أكبر. وعلى هذا استمرت أعمال التثليث تباعاً.

في السابع عشر من آب، حصل العلماء على درجة ثالثة من قوس الهاجرة. حَددت بدقة عمليات رصد لخط عرض النقطة التي بلغوها. كان العلماء على هذا النحو قد قاسوا ثلاث درجات من القوس، تطلبت منهم تشكيل اثنين وعشرين مثلثاً منذ أقصى نقطة للقاعدة الجنوبية.

بمراجعة الخارطة، اكتشفوا أن قرية كولوبنغ، تقع على بعد حوالي مئة ميل إلى الشمال الشرقي من خطة الهاجرة. فَخَلُص علماء الفلك بعداجتماعهم للمشاورة، أن يستريحوا لعدة أيام في هذه القرية، التي ستوفر لهم دون ريب بعض الأنباء عن أوربا. لقدغادروا ضفاف نهر أورانج منذ مايقارب الستة أشهر وبتوغلهم في هذه الأراضي المنعزلة من جنوب افريقيا، كانوا بلا أدنى صلة مع العالم المتحضر. ربما تتيح لهم كولوبنغ، كونها قرية هامة نوعاًما ومحطة رئيسية للمبشرين، أن يعقدوا مجدداً علاقتهم الحضارية مع أوربا. كذلك ستستعيدالقافلة في هذا المكان نشاطها وتتمون بالطعام ولو جزئياً.

اعتبر الحجر الراسخ الذي استخدم كعلامة تسديد أثناء عملية الرصد الأخيرة، كنقطة توقف للجزء الأول من العمل الجيودوزي. عند هذا الوتد الثابت، ستبدأ من جديد عمليات الرصد اللاحقة. حدُد موقعه بالنسبة لخط

العرض بدقة لا متناهية. وعندما تأكد الكولونيل إفريست من هذه العلامة، أعطى إشارة الرحيل واتجهت القافلة برمتها نحو كولوينغ.

وصل الأوروبيون هذه القرية يوم الثاني والعشرين من آب، دون حوادث تذكر أثناء رحلتهم. لم تكن كولوبنغ سوى تجمع لأكواخ السكان يهيمن عليها بناء المبشرين. كانت هذه القرية التي تدعى أيضاً ليتو باروبا على عدة خرائط، تُسمى سابقاً لوبولوله. هناك استقر الدكتور ديڤيد ليڤينغستون لعدة أشهر من عام ١٨٤٣، وتآلف مع عادات البشوانيين Béchuanas الذين عرفوا بشكل خاص تحت اسم الباكوينين Bakouins في هذا الجزء من جنوب إفريقيا.

استقبل المبشرون أعضاء اللجنة العلمية بحفاوة كبيرة، ووضعوا تحت تصرفهم موارد البلد بكاملها. لايزال منزل ليڤينغستون قائماً هناك كما كان عندما زاره الصياد بالدڤينغ Baldving، أيّ محطماً ومنهوباً لأنّ البويريين(*) Boers لم يحترموا ذكرى صاحبه عند غزوهم له عام ١٨٥٢.

ما أن استقر علماء الفلك في منزل المبشرين حتى استعلموا عن أنباء أوروبا. غير أنّ الأب الرئيس لم يرضِ فضولهم. لم يصل أيّ بريد منذ ستة أشهر إلى المقر. لكنهم في انتظار منذ عدة أيام وصول رجل من السكان المحليين يعمل في نقل الجرائد والبرقيات. وقد شوهد منذ بعض الوقت على ضفاف شلالات الزامبيز العليا. برأي الرئيس لن يتأخر وصول البريد لأكثر من أسبوع، وهو الزمن الذي خصصه الفلكيون للاستراحة. في هذه الأسبوع، سيتفرغ كل واحد منهم لشؤونه الخاصة، مثل نيكولا بالاندر الذي استغله لمراجعة حساباته كلها.

(*) م. (فلاحون استوطنوا جنوب أفريقيا من أصل نيوزيلاندي).

أما بالنسبة للنفور ماثيوستروكس، قليلاً ما كان يختلط بزملائه الإنكليز، فهو يحب الإنزواء وعدم الاختلاط بالآخرين. بينما كان وليم إميري وميشيل زورن يمضيان وقتهما بالنزهات في ضواحي كولوبنغ. كانت صداقة الأكثر حميمية تربط الشابين الواحد بالآخر، وهما لا يتوقعان أبداً أنّ أيّ حدث كان، يمكن له في يوم أن يقصم عُرى هذه المودة التي تقوم على مشاركة وجدانية من العقل والقلب.

في الثلاثين من آب وصل المراسل المنتُظر بفارغ الصبر. إنّه واحد من سكان كيلميان Qeuilimian، مدينة تقع على واحد من مصبات الزامبيز. رست في الأيام الأولى من شهر تموز سفينة للبضائع من جزيرة موريس تقوم بتجارة الصمغ والعاج، عند هذا الجزء من الساحل الشرقي. كانت تحمل الرسائل الرسمية لمشبري كولوبنغ. يعود تاريخ هذه الرسائل لشهرين ونيف، لأنّ المراسل المحلي لم يتمكن من ارتقاء مجرى نهر الزامبيز في أقل من أربعة أسابيع.

في ذلك اليوم، جرى حادث يلزم ذكره بتفاصيله، لأنّ نتائجه تهدد مستقبل البعثة العلمية أيّما تهديد. وضع الأب الرئيس للمقر ما أن وصل المراسل، كدسة من الجرائد الأوروبية بين يدي الكولونيل إفريست كان العدد الأكبر صادراً عن سلسلة التايمز Times وديلي نيوز Daily News وجورنال دي ديبا Journal des Débats، وكانت الصحف تتضمن معلومات ذات أهمية قصوى كما سيتضح لنا.

اجتمع أعضاء اللجنة في الغرفة الرئيسية للمقر. أخذ الكولونيل إفريست بعد أن نزع ربطة الصحف، عدداً من الديلي نيوز يعود لتاريخ ١٣ أيار ١٨٥٤، ليقرأه على مسمع من زملائه.



ما أن قرأ الكولونيل عنوان المقال الأول في الصحيفة حتى تغيرت سحنته فجأة وتغضن جبينه. كما اهتزت الصحيفة بين يديه. تمكن بعد ثوان من السيطرة على نفسه وعاد إليه هدوؤه المعتاد.

عندها وقف السيد جون موراي وتوجه بالقول إلى الكولونيل إفريست:

- ماذا أخبرتك هذه الصحيفة؟

- أنباء خطيرة أيّها السادة. رد الكولونيل إفريست. أنباء خطيرة للغاية سأنقلها بدوري لكم. كان الكولونيل لا يزال يقبض بيده على الصحيفة. يحدق زملاؤه فيه دون أن يسيؤوا الظن بموقفه، وينتظرون بفارغ الصبر أن يبدأ حديثه.

انتصب الكولونيل واقفاً، ولدهشتهم جميعهم وخاصة مايثوستروكس بعد أن توجه نحوه الكولونيل قائلاً له:

- قبل أن أنقل إليكم الأخبار التي أفادتها هذه الصحيفة، أرغب أن أنوه عن ملاحظة.

- كلي آذان صاغية. رد الفلكي الروسي.

عند ذاك قال الكولونيل إفريست بصوت رصين:

- حتى الآن يا سيد ستروكس، باعدت بيننا منافسات شخصية أكثر منها علمية، وانعكست سلباً على تعاوننا في الإنجاز الذي شرعنا به للمصلحة العامة. أظن أن السبب في ذلك يعود فقط إلى الظروف التي

وضعتنا نحن الإثنين على رأس هذه البعثة. خلق هذا الوضع بيننا عداء مستمراً، لأن أيه مشروع كان لا يلزمه سوى رئيساً واحداً. ألست معي في هذا الرأي؟

حنى مايثوستروكس رأسه موافقاً.

– سيد ستروكس، استأنف الكولونيل قوله سيتغير هذا الوضع الشاق لكلينا نتيجة الظروف الجديدة لكن اسمح لي قبل ذلك، أن أقول لك أنني أكن لك الإحترام العميق. احترام يعود للمكانة التي تشغلها في عالم العلم. لذا أرجو أن تقبل اعتذاري عن كل ما جرى بيننا.

لفظ الكولونيل إفريست هذه الكلمات بعزة نفس كبيرة، وحتى بأنفة فريدة من نوعها. فنحن لا نستشف أي ذل في اعتذاراته الطوعية التي عبرّ عنها بشهامة كبيرة.

لم يعلم ماثيوستروكس أو زملاؤه إلى ماذا يرمي الكولونيل إفريست بكلامه هذا. ولم يتمكنوا من تكهن الدافع إلى هكذا تصرف. بل يمكن للعالِم الروسي، كونه لا يملك أسباب زميله نفسها، ليعلن عن موقفه على هذا النحو، أن يكون أقل استعداداً لنسيان عداوته الشخصية. مع ذلك تغلب على كرهه، ورد عليه بهذه الكلمات:

– أنا أوافقك الرأي ياحضرة الكولونيل أنّ عداوتنا التي لا نرغب في البحث عن أصلها، بمقدورها في أيّة حال من الأحوال أن تضر بإبجازنا العلمي المكلفين به. أنا أيضاً أُجِلُّ فيك مؤهلاتك التي تستحق كل تقدير من جانبي وإذا تعلق الأمر بي، سأبذل جهدي مستقبلاً أن أمحو شخصيتي في

علاقاتنا. غير أنّك نوهت عن حدوث تبدل في علاقاتنا المتبادلة سببه الظروف الراهنة. أنا لا أفهم أبداً...

- سوف تفهم يا سيد ستروكس. قاطعه الكولونيل وقد طغت على صوته نبره حزن، لكن قبل ذلك مُدّ لي يدك.

- ها هي: أجابه ماثيوستروكس وقد لاحظ الجميع تردداً بسيطاً في حركته.

تصافح العالمان ولم يضيفا كلمة واحدة.

- أخيراً، ها قد أصبحتما أصدقاء. صاح السيد جون موراي.

- لا يا سيد جون! أجاب الكولونيل إفريست وهو يفلت يد العالِم الروسي- بل نحن منذ الآن فصاعداً أعداء! أعداء تفصل بينهم هوة عميقة! أعداء لا يمكن لهم اللقاء حتى ولا على أرض العلم!

ثم استدار نحو زملائه قائلاً:

- أيّها السادة، أضاف يقول، لقد أُعلنت الحرب بين انكلترا وروسيا. ها هي الصحف البريطانية والروسية والفرنسية التي نقلت هذا النبأ.

كانت حرب سنة ١٨٥٤ في تلك الأثناء قد بدأت بالفعل، اتحد الإنكليز بالفرنسيين والأتراك، وشرعوا القتال عند مرفأ سيباستبول(*) Sé-pastobol. كانت قضية الشرق تعالج بضربات المدافع في البحر الأسود.

(*) - م. (مرفأ في أوكرانيا احتلته القوات الفرنسية والإنكليزية عام ١٨٥٥ والألمان عام ١٩٤٢).



ووقعت كلمات الكولونيل إفريست الأخيرة عليهم وقع الصاعقة. عنيفاً كان رد فعل أولئك الإنكليز والروسي الذين يشعرون إلى حد نادر المثيل بالوطنية. وقفوا بغتة. تلك الكلمات القليلة «أُعلنت الحرب» كانت كافية. لم يعودوا رفاقاً أو زملاءً أو علماء اتحدوا لإتمام إنجاز علمي، بل أعداء أخذوا يتبادلون النظرات سلفاً، ما دامت العداوة بين وطن وآخر تؤثر في قلوب البشر!

حركة لا شعورية أبعدت أولئك الأوربيين عن بعضهم البعض. حتى نيكولا بالاندر نفسه تأثر مثل الآخرين بالشعور ذاته. فقط وليم إميري وميشيل زورن كانا لا يزالان يرمقان بعضهما بنظرة حزن أكثر منها عداوة، ويأسفان لعدم تمكنهما من المصافحة باليد للمرة الأخيرة قبل النبأ الذي نقله لهم الكولونيل إفريست.

لم ينبس أحد بحرف. انسحب الروس والإنكليز بعد تبادل التحية.

هذا الوضع الجديد، هذا الإنفصال بين الفريقين، سيجعل استمرار العمليات الجيودوزية أكثر صعوبة، لكنه لن يوقفها. يرغب كل واحد منهما ولمصلحة وطنه أن يتابع العملية التي شرعا بها. غير أنّ القياسات ستستند الآن إلى قوسين مختلفين للهاجرة. سويت هذه التفاصيل خلال مقابلة بين ماثيوستروكس والكولونيل إفريست. اختار القدر أن يتابع الروس العمل على خط الهاجرة الذي قطعاه سابقاً، بينما يلزم على الإنكليز اختيار قوس آخر، يستند إلى عملهم المشترك مع الروس، ويبعد ستين أو ثمانين ميلاً عنه، ويربطونه بالقوس الأول بسلسلة من المثلثات الإضافية. ثم يتابعون عمليات التثليث ضمن هذه الشروط إلى أن يبلغوا خط العرض العشرين.

ننوه أن هذه القضايا قد سويت بين العالمين دون إثارة أيّة فضائح. لم يعد لمنافساتهما الشخصية أيّ أثر أمام المنافسة الوطنية الكبرى. لم يتبادل ماثيوستروكس والكولونيل أيّة كلمة نابية، والتزما بأضيق حدود المجاملات.

بالنسبة للقافلة، اتفقا على تقسيمها فرقتين كل فرقة تحتفظ بعتادها الخاص. لكن الروس حصلوا على الزورق البخاري لملكيتهم له ولأنّه بديهياً لا يمكن اقتسامه.

احتفظ البشماني المتعلق جداً بالإنكليز وخاصة السيد جون، بمكانه في قيادة القافلة الإنكليزية. وسيرأس الفوريلوبه، كشخص مشهور جداً أيضاً، قيادة القافلة الروسية. تحتفظ كل فرقة بأدواتها وبنسخة عن السجل الذي دونت فيه النتائج الرقمية للعمليات حتى ذلك الحين.

في الواحد والثلاثين من آب، انفصل أعضاء اللجنة العالمية السابقة. سبق الإنكليز الروس في الرحيل، كي يربطوا المحطة الأخيرة بقوس الهاجرة الجديد. غادروا كولوينغ في الثامنة صباحاً بعد أن شكروا آباء البعثة على حسن الضيافة داخل مؤسستهم.

ولو دخل واحد من المبشرين إلى غرفة ميشيل زورن قبل لحظات من رحيل الإنكليز، لرأى وليم إميري يصافح صديقة القديم، والذي أضحى الآن عدوه، رغماً عن أنف سعادتهما الملكة وقيصر!.

* * *

• درجة إضافية

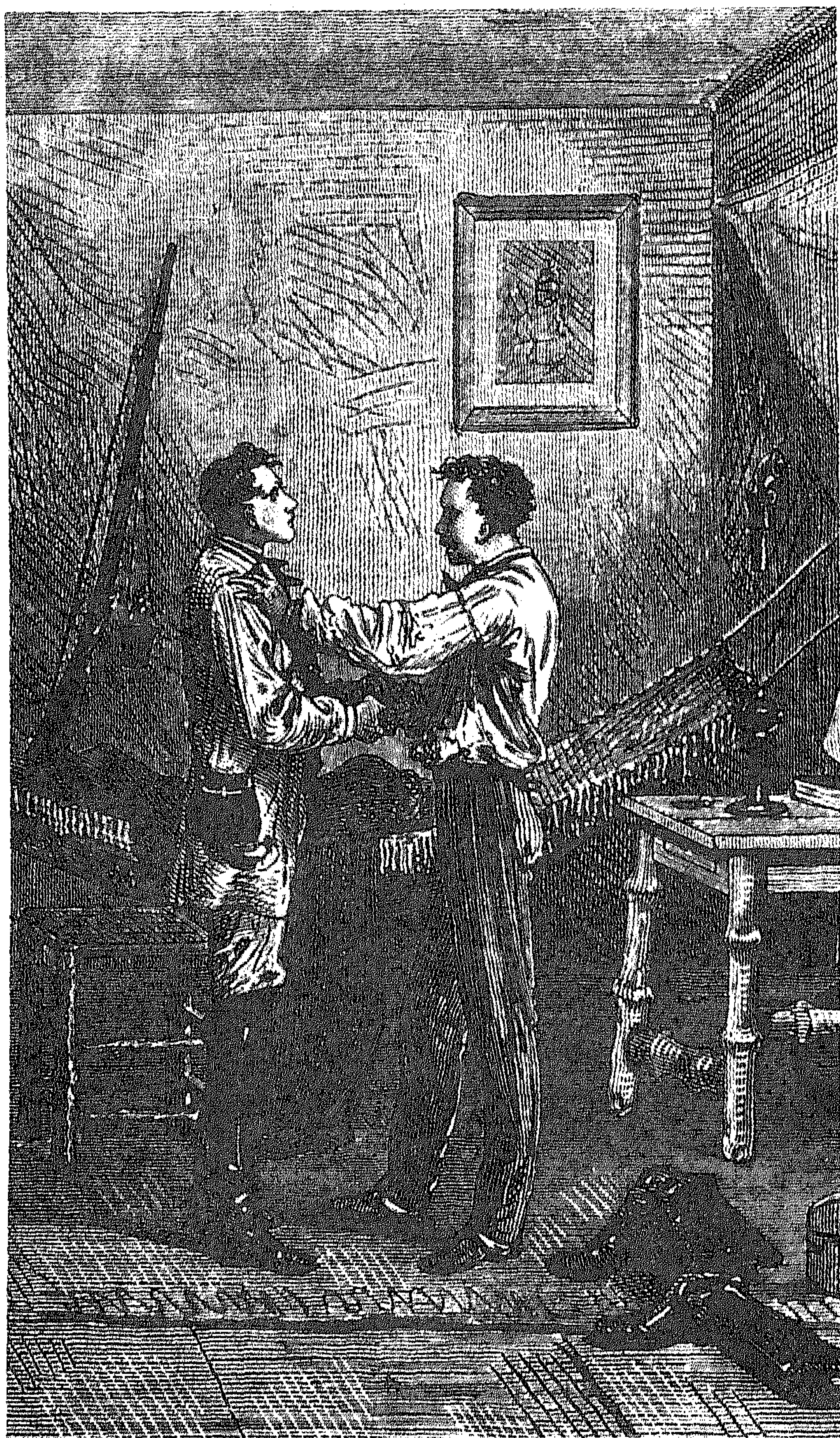
تمّ الفصل بين أعضاء اللجنة العلمية. من الآن فصاعداً سيتابع علماء الفلك العمل الجيودوزي، وقد أضحى أكثر إبهاظاً على عاتقهم، غير أنّ العملية بحد ذاتها لن تتأثر من ذلك. فهم سيقومون بقياس قوس الهاجرة الجديد، بالدقة نفسها والصرامة نفسها، وسيتم التحقق من العمليات بالإهتمام ذاته.

سيكون فقط تقدم العلماء الثلاثة الإنكليز الذين تقاسموا المهمة فيما بينهم، بطيئاً أكثرو على حساب جهد أكبر. غير أنّهم من أولئك الرجال الذين لا يدخرون وسعاً في الوصول إلى غاياتهم. فما كان الروس سينجزونه من جانبهم، يرغبون هم أيضاً بإنجازه على قوس هاجرتهم الجديد. إنّ كبرياءهم الوطني كفيل عند الحاجة، أن يدعمهم لإنجاز هذه المهمة الطويلة والشاقة. ثلاثة علماء يجدون أنفسهم الآن مضطرين لإنجاز عمل ستة أشخاص. وبناء عليه، ضرورة تكريس أفكارهم كلها ولحظاتهم كلها لهذا المشروع. ضرورة تحث وليم إميري على عدم الإسترسال في أحلامه، والسيد جون ألاّ يعود كذلك لدراسة حيوانات جنوب افريقيا المتوحشة والبندقية في يده.

على الفور وُضع البرنامج الجديد الذي يحدد لكل واحد من العلماء الثلاثة جزءاً من العمل. تكفل السيد جون موراي والكولونيل بعمليات الرصد السمتية والجيودوزية. حلّ وليم إميريّ مكان نيكولا بالاندر في عمله كمحاسب.

من المسلم به أنّ عملية اختيار المحطات، ووضع علامات التسديد تتم بالإجماع. لا يُخشى بعد الآن أن ينشب خلاف في الرأيّ من أيّ نوع بين العلماء الثلاثة. بقي موكوم الشجاع كسابق عهده، صياد القافلة ومرشدها. بديهي القول أنّ البحارة الستة الإنكليز الذين يشكلون نصف فريق الملكة وقيصر قد تبعوا رؤساءهم. وإذا كان الزورق البخاري قد بقي تحت تصرف الروس، فإن الزورق المطاطي الذي يفي تماماً باحتياجات قطع مجاري المياه اليسيرة، قد شكل جزءاً من العتاد الإنكليزي... أنا بالنسبة للعربات، تمت القسمة على حسب طبيعة المؤن التي تحملها. لذا كانت مؤونة القافلتين وحتى وسائل راحهتما مؤمنة تماماً. بالنسبة للسكان المحليين الذين يشكلون المفرزة التي كان موكوم يقودها، فقد قسمت إلى فريقين بعدد متساو، دون أن يخفوا استياءهم من هذا الفصل. ربما كانوا على حق في ذلك من وجهة نظر السلامة العامة. فأولئك البشمانيون يرون أنفسهم يتوغلون بعيداً عن مناطقهم الأليفة، بعيداً عن المراعي ومجاري المياه التي اعتادوا التردد إليها، نحو صقُع شمالي تؤمه قبائل متجولة مُعاديه لسوء الحظ لإفريقيي الجنوب. في مثل هذه الظروف، قليلاً ما يناسبهم أن يفرقوا شملهم. لكن في نهاية الأمر. وافق البشماني والفوريلوبه مساعده، على تقسيم القافلة إلى مفرزتين يتوجب على كل واحدة منها - وهو السبب الذي وافقا من أجله- العمل على مسافة قريبة نسبياً الواحدة من الأخرى، وفي المنطقة نفسها.

عند مغادرة فرقة الكولونيل إفريست كولوينغ في الواحد والثلاثين من آب، اتجهت نحو النصب الذي استعمل كعلامة إرشاد أثناء عمليات الرصد الأخيرة. فولجت الغابة المحترقة ووصلت إلى الأكمة. بوشرت



العمليات من جديد في الثاني من إيلول. سمح مثلث كبير تستند قمته إلى يسار الوتد الذي نُصب على مرتفع أرضي، أن يتجه الراصدون فوراً من عشر إلى اثني عشر ميلاً غرب قوس الهاجرة القديم.

بعد ستة أيام، أي في الثامن من أيلول. انتهى العمل في سلسلة المثلثات الإضافية. وكان الكولونيل إفريست يتهيأ متفقاً بالرأي مع زملائه ومتحققاً من الخرائط، لاختيار قوس الهاجرة الجديد الذي يلزم على قياسات تالية، أن تحسبه حتى ارتفاع خط العرض العشرين جنوباً. كان هذا القوس يقع على بعد درجة واحدة إلى الغرب من القوس الأول. إنّه القوس الثالث والعشرون إلى شرق خط غرينتش. على هذا النحو يلزم على الإنكليز العمل على بعد ستين ميلاً من الروس على الأكثر: لكنها مسافة كافية كيلا تتلاقى مثلثاتهما. ففي هذه الظروف، كان غير وارد أن يلتقي الفريقان في قياسات مثلثاتية، وبالنتيجة غير وارد أن يصبح اختيار علامة تسديد موضوعاً لنقاش، أو ربما لاصطدام مؤسف.

كان البلد الذي يجتازه الراصدون الإنكليز خلال شهر أيلول بكامله، خصباً وجبلياً وقليل السكان مع ذلك. لذا كان يُسهّل سير القافلة نحو الأمام. السماء جد جميلة وصافية تماماً بلا ضباب أو غيوم. تمت عمليات الرصد بسهولة ويسر. الغابات الكبيرة قليلة العدد، والأدغال متفرقه جداً بعضها عن البعض الآخر، والبراري فسيحة. تبرز فيها هنا وهناك بضعة نتوءات أرضية صالحة لاعداد علامات الإرشاد، سواء في الليل أو في النهار، ولسير عمل الأجهزة بشكل جيد. إنّها في الوقت ذاته منطقة زودتها الطبيعة على نحو رائع بمنتجاتها كلها. كانت أغلب الزهور تجذب

برائحتها الذكيّة فرق الجُعْل (*)، وبشكل خاص أكثر، نوع من النحل يختلف قليلاً عن النحل الأوروبي. إنّه يودع في ثقوب الصخور أو شقوق الجذوع عسلاً أبيض يتمتع بميوعة كبيرة وبمذاق شهي. تخاطر أحياناً بعض الحيوانات الكبيرة بالمرور ليلاً عند أطراف المعسكر، كالزراف وأنواع مختلفة من الظباء البرية وبعض الحيوانات المتوحشة كالضباع أو وحيدي القرن والفيلة أيضاً. غير أنّ السيد جون لم يكن راغباً في الانشغال عن عمله، لذا بقيت يده تدير عدسة الفلكي وليس بندقية الصياد.

في هذه الظروف، قام موكوم وبضعة أفراد من البشمانيين بوظيفة المموِنين. غير أننا نعتقد جازمين أنّ خفقات قلب سعادته كانت تتسارع عندما يتناهى إلى سمعه دويّ أسلحتهم. وقع تحت طلقات البشماني اثنان أو ثلاثة من ثيران البراري الكبيرة، إنها تدعى بلغتهم بوكولوكولو Bokol-okolos، يصل طول الثور من الخطم حتى الذيل إلى أربعة أمتار، وارتفاعها مترين من الحافر حتى الكتف. تميل انعكاسات جلده الأسود إلى الزرقة. إنّها حيوانات مدهشة بأعضاء قصيرة وقوية، ورأس صغير وعيون بريّة وجبهة قاسية تزينها قرون سوداء ثخينة. إنّها وجبة إضافية ممتازه من لحم الطرائد الطازج التي كانت تضفي تنوعاً على أصناف القافلة المعتادة.

يُحضر السكان المحليون هذا النوع من اللحم على الطريقة البميكانية Pemmicane التي يستعملها لفائدتها الكبيرة هنود الشمال، بطريقة يُحفظ فيها صحالحاً إلى مالا نهاية أو يكاد. تبع الأوروبيون باهتمام هذه الطريقة في فن الطبخ، رغم أنهم أبدوا في بادىء الأمر بعض النفور إزاءها. يُقطع

(*) م. (نوع من الخنافس).

لحم الثور إلى شريحات رقيقة ويجفف في الشمس ويُرص في جلدة مدبوغة، ثم يُسحن تحت ضربات المدقة التي تسحقة إلى كسرات دقيقة جداً، يُصبح فيها طحيناً من اللحم، أو لحماً مسحوقاً. هذا الغبار المدفون في أكياس من الجلد والمضغوط جيداً، يُبلل بعد ذلك بُدهن مغلي تم جمعه من الحيوان نفسه. ثم يضيف الطباخون الإفريقيون إلى هذا الدهن الشحمي نوعاً ما، كما نُسلم، مخاً ليناً وبعض الثمرات العِنبية(*) يؤتى بها من شجر خاص، يلزم على العناصر السكرية فيها على ما يبدو، أن تتباين مع العناصر الآزوتية للحم. ثم يمزج هذا الخليط ويهرس ويجفف بطريقة يصبح فيها عن طريق التبريد رغيفاً يتمتع بقساوة معادلة لقساوةالحجارة.

وعلى هذا انتهت التحضيرات. توسل موكوم علماء الفلك أن يتذوقوا هذا المزيج. رضخ الأوروبيون تحت إلحاح الصياد الذي كان فخوراً بطعامه البميكاني وكأنّه مأكلاً وطنياً. بدت اللقيمات الأولى للإنكليز غير مستساغة. غير أنّهم باعتيادهم لاحقاً على طعم هذا البودنغ(*) الإفريقي سرعان ما أضحوا يتلذذون به. إنّه بحق غذاء مقوي وملائم تماماً لاحتياجات قافلة رُمي بها في بلد مجهول، ويمكن أن ينقصها الطعام الطازج. إنّه قوت مغذ جداً، سهل الحمل، خصائصه ثابتة إلى حد كبير جداً، ويحوي رغم حجمه الصغير كماً كبيراً من العناصر المغذية. إرتفع بفضل الصياد مخزون البميكان سريعاً إلى عدة مئات من الليرات تؤمن على هذا النحو احتياجات الغد.

(*) - م. (ثمرة لحمية غير متفتحة لا نواة لها تحتوي على بزرة أو أكثر كالعنبة).
(*) - م. (حلوى من دقيق ولبن وبيض وسكر وبعض الفاكهة).

مرت الأيام على وتيرة واحدة. أحياناً تتم عمليات الرصد خلال الليل. كان وليم إميري يفكر دائماً بصديقه ميشيل زورن شاكياً هذه الأقدار التي كسرت في غمضة عين أواصر صداقة هي الأمتن. أجل! كان يفتقد ميشيل زورن وقلبه الفائض أبداً بانطباعات تولدها هذه الطبيعة الكبيرة والمتوحشة، لا يعرف إلى من يشكي ألمه. إنّه يغرق نفسه في حساباته ويلوذ بهذه الأرقام، كما كان يتشبث بها نيكولا بالاندر. وتمر الساعات. بالنسبة للكولونيل إفريست، لم يتغير فيه شيء، الطباع الباردة نفسها ولا ينشغل بالاً إلاّ بالعمليات المثلثاتية. أما السيد جون فكان يتأسف بكل صدق على حريته السابقه، غير أنّه يحاذر التذمر من ذلك.

مع ذلك شاء القدر أن يعوض سيادته عن ذلك من وقت لآخر. فإذا لم يكن لديه الوقت للتجول بين الحرجات، وقنص حيوانات المنطقة المتوحشة، فإنّ هذه الحيوانات في مناسبات مختلفة، كانت تتفضل بالقدوم إليه وتحاول أن تقطع عليه عمليات الرصد. في هذه الحالة، يضحو الصياد والعالم رجلاً واحداً. ويجد السيد جون نفسه في موقف دفاع شرعي عن النفس. وهكذا التقى جدياً بوحيد قرن عجوز أتى من الضواحي في اليوم الثاني عشر من أيلول، لقاء «كلّفه غالياً» كما سنرى ذلك لاحقاً.

كان ذلك الحيوان يجول منذ بعض الوقت جنبات القافلة. هو ينتمي إلى نوع الشوكورو Chucuroo الضخم كما يلقب البشمانيون هذه الحيوانات الصفيقة. يصل طوله إلى أربعة عشر قدماً وارتفاعه ستة أقدام، جلده أسود اللون وأقل خشونة من جلد أمثاله في آسيا. اعتبره البشماني من الحيوانات الخطيرة، لأنّ الأنواع السوداء هي في الواقع أكثر سرعة وعداء من أنواعها البيضاء. كما أنّها تهاجم الحيوانات والإنسان حتى ولو لم يتحرش بها.

في ذلك اليوم، كان السيد جون موراي يصحبه موكوم، قد ذهب للكشف على بعد ستة أميال من المحطة، عن مرتفع ينوي الكولونيل إفريست إعداد علامة إرشاد فوقه. ولحدس داخلي حمل معه بندقيته ذات الطلقات المخروطية وليس بندقية صيد عادية. على الرغم من أنّ وحيد القرن المذكور لم يظهر للعيان منذ يومين، فإن السيد جون لم يكن راغباً في اجتياز منطقة نائية وهو أعزل السلاح. لقد طارد موكوم ورفاقه وحيد القرن، لكنهم لم يتمكنوا من القبض عليه. لذا كان وارداً احتمال أنّ الحيوان الضخم لم يتراجع عن مخططاته بعد.

لم يكن السيد جون ليندم أبداً على هذا التصرف الحصيف، وصل هو ورفيقه إلى المرتفع المطلوب دون حوادث تذكر. ثم تسلقاه حتى قمته الأكثر وعورة، عندما، لاح فجأة «الشوكورو» عند سفح التلة، على طرف حَرَجة منخفضة غير متقاربة أشجارها. لم يتمكن في السابق السيد جون من رؤيته قريباً منه إلى هذا الحد. إنّه بحق حيوان جدير بالإهتمام. العنيان تلمعان والقرنان المستقيمان والمنحنيان قليلاً إلى الخلف، يشكلان سلاحاً خطيراً، وقد توضع الواحد أمام الآخر بطول متعادل تقريباً، حوالي القدمين، وانغرسا بصلابة في الكتلة العظمية للمنخرين.

لاحظ البشماني الحيوان أولاً لا بداً على مبعدة نصف ميل، تحت دغل من أشجار المصطكا(*).

– سيد جون: قال له على الفور، الحظ يحالفك يا صاحب السعادة! ها هو الشوكورو!

(*) – م. (شجر من الفصلية البطمية يستخرج منه علك تجاري معروف).



- وحيد القرن! صاح السيد جون وقد برقت عيناه فجأة.

- أجل يا سيد جون. أجاب الصياد. إنّه حيوان رائع كما ترى، ويبدو جاهزاً تماماً ليقطع علينا خلوتنا لماذا يهتاج الشوكورو على هذا النحو عند رؤية الإنسان، هذا ما لا أعرفهُ. فهو مجرد حيوان عاشب. لكن في نهاية الأمر، هو هنا تحت هذا الدغل ويلزم التخلص منه!

- هل يستطيع الصعود إلينا؟ سأله السيد جون.

- كلا يا سيدي. رد البشماني. لا تستطيع أرجله القصيرة والسمينة تسلقَ المنحدر الوعر. لذلك سينتظر نزولنا.

- حسن. فلينتظر! رد السيد جون. وعندما نفرغ من فحص هذه المحطة سوف نتخلص من هذا الجار المزعج.

هكذا تابع السيد جون وموكوم فحص المحطة، الذي توقف لفترة، وكشفا بدقة لا متناهية عن وضع الأكمة الأعلى. ثم اختارا الموضع الذي يلزم رفع علامة إرشاد فوقه. يلزم على ارتفاعات أخرى مهمة أيضاً تقع إلى الشمال الغربي تأليف مثلث جديد في أكثر الشروط ملائمة.

عندما انتهى العمل، استدار السيد جون نحو البشماني قائلاً له:

- عندما ترغب ياموكوم.

- أنا تحت تصرف سعادتك.

- ألا يزال وحيد القرن ينتظرنا؟

- لا يزال.

- فَلْننزل إليه إذن. مهما كان قوياً هذا الحيوان فأنّ رصاصة واحدة من بندقيتي تضمن التخلص منه.

- رصاصة واحدة! صاح البشماني. لا يعلم سعادته ما هو الشوكورو. تتمتع هذه الحيوانات بجلد قاس لذا لم نر في يوم أنّ وحيد قرن قد سقط صريعاً بفضل طلقة واحدة مهما كان التسديد دقيقاً.

- باف! تنهد السيد جون. لأنهم لم يستعملوا البتة رصاصات مخروطية.

- مخروطية أو دائرية. رد موكوم. رصاصاتك الأولى لن تقتل حيواناً مثله!

- حسن أيها الشجاع موكوم. انبرى السيد جون يقول وقد ثار فيه كبرياء الصياد. سأريك ما تستطيع أن تقوم به أسلحتنا الأوروبية، مادمت تشك بمقدرتها!

عبأ السيد جون بندقيته وهو يلفظ هذه الكلمات، جاهزاً لإطلاق النار ما أن يقدر أن المسافة قد أصبحت مناسبة للتسديد.

- كلمة واحدة سعادتك! قال البشماني منزعجاً قليلاً، وقد أوقف رفيقه بحركة منه، هل يقبل سعادته الرهان معي؟

- لم لا أيّها الصياد الكريم؟ رد السيد جون.

- أنا لست غنياً. لكنني أجازف عن طيب خاطر بجنيه واحد عن أول طلقة من سعادتك تصيبه. رد موكوم.

- اتفقنا. رد السيد جون في الحال. جنيه لك إذا لم يسقط هذا الوحيد القرن صريعاً من الطلقة الأولى!

- اتفقنا؟ قال البشماني.

- اتفقنا.

هبط الصيادان المنحدر الوعر للأكمة، وركنا في الحال على بعد خمسمئة قدم من الشوكورو الذي كان يحافظ على جموده التام. كان هذا النحو يبدو في ظروف مناسبة جداً للسيد جون، الذي يستطيع أن يسدد عليه بكل سهولة. حتى أنّ الإنكليزي المحترم ظن أنّه عقد رهاناً مربحاً، فقال للبشماني في اللحظة التي أوشك فيها على التسديد، فاسحاً المجال له ليعود عن رهانه:

- مازلت على رأيك؟

- مازلتُ! رد بهدوء موكوم.

كان وحيد القرن لا يزال ثابتاً مثل دريئة. يحق للسيد جون اختيار الموضع الذي يناسبه ليسدد عليه مسبباً له موتاً مباشراً. عقد العزم على التسديد عند خطم الحيوان، ولأنّ كبرياءه كصياد كان يهيجه سدد بعناية فائقة يساعده بذلك أيضاً دقة سلاحه.

دوى صوت انفجار. غير أنّ الطلقة بدل أن تصطدم بطبقات اللحم، لامست الحيوان عند قرنه الذي تطايرت نهايته متناثره إلى شظايا. لم يبد على وحيد القرن حتى أنّه شعر بالصدمة.

- لن نحسب هذه الطلقة لأنّ الرصاصة لم تبلغ اللحم. قال البشماني.

- على العكس تماماً. رد السيد جون مغتاظاً قليلاً! الطلقة تُحسب أيها البشماني. لقد خسرت جنيهاً لكنني سأراهنك على الضعف أو الخالص(*).

- كما ترغب يا سيد جون. لكنك ستخسر كثيراً!

- سنرى ذلك!

أُلقمت البندقية بعناية وأطلق السيد جون رصاصته الثانية مسدداً في هذه المره، على ورك وحيد القرن. غير أنّ الطلقة رغم قوة اختراقها، سقطت على الأرض وقد صادفت في هذا المكان الجلد المتوضع على شكل صفائح متفرقه. تَحرك وحيد القرن من مكانه متنقلاً عده خطوات.

- جنيهان! قال موكوم.

- مازلت مصراً على الرهان؟ سأله السيد جون.

- بكل طيب خاطر.

(*) - م. (رهان يستطيع فيه اللاعب حين يقبل الاختبار المطروح، أن يضاعف أو يخسر الربح المكتسب سابقاً).

استدعى هذه المرة السيد جون الذي بدأ الغضب يتملكه، كل رباطة جأشه وسدد على الحيوان عند الجبهة. أصابته الرصاصة عند المكان المقصود لكنها ارتدت كأنها التقت بصفيحة معدنيه.

- أربعة جنيهات! قال البشماني بهدوء.

- وأربعة أخرى! صاح السيد جون ساخطاً.

ولجت الطلقة هذه المرة تحت كشح وحيد القرن الذي قفز قفزة هائلة. لكنه بدلاً من أن يسقط صريعاً رمى الحيوان نفسه فوق الأدغال مهتاجاً وأخذ يتلفها.

- أظن أنّه تحرك قليلاً يا سيد جون. قال الصياد ببساطة.

لم يعد السيد جون يتمالك نفسه وتخلى عنه إتزانه تماماً. هذه الجنيهات الثمانية التي يلزم عليه دفعها للبشماني، سيخاطر بفقدها عند الطلقة الخامسة. خسر مرة أخرى، فضاعف، وظل يضاعف حتى الطلقة التاسعة من بندقيته، عندما اخترقت الرصاصة أخيراً قلب وحيد القرن المقاوم، دون أن يعاود في هذه المرة النهوض ثانية.

عند ذلك أطلق سعادته صيحة أوراه! نسي عملاته ومواقف الخيبة، نسي كل شيء ليتذكر شيئاً واحداً، لقد قتل وحيد القرن ذاك!

غير أنّه قال لاحقاً في لندن لزملائه في الهونتر كلب Hunter-Club «كان بحق حيواناً غالي الثمن».

كلفه في الواقع ذلك الحيوان ستة وثلاثين جنيهاً(*)، وهو مبلغ محترم قبضه البشماني بهدوئه المعتاد.

(*) حوالي تسعمئة فرنك فرنسي.

حوادث مختلفة

في نهاية شهر أيلول كان علماء الفلك قد ارتفعوا درجة جديدة نحو الشمال. امتد على هذا النحو قسم من قوس الهاجرة الذي سُبق وقيس بوساطة اثنين وثلاثين مثلثاً، إلى أربع درجات. بذلك انتهى نصف العمل المطلوب. كان العلماء الثلاثة يبذلون أقصى ما عندهم من حماس في ذلك، لكن بتقليص عددهم إلى ثلاثة، كانوا أحياناً يرزخون تحت وطأة تعب مضن لدرجة يضطرون فيها إلى تعليق أعمالهم لعدة أيام. ففي ذلك الوقت تكون الحرارة مرتفعة جداً وخانقة بحق. إنّ شهر تشرين الأول في نصف الكرة الجنوبي يعادل شهر آيار في نصف الكرة الشمالي. وعند خط العرض الأربعين في نصف الكرة الجنوبي، تسود الحرارة المرتفعة للمناطق الجزائرية، ثمة ساعات في النهار، خلال فترة بعض الظهر لا يمكن القيام فيها بأي عمل كان. . لذا كانت العملية المثلثانية تواجه بعض التأخير الذي كان يقلق بشكل خاص البشماني. وهذا هو السبب.

إلى شمال قوس الهاجرة على بعد مئة ميل تقريباً من المحطة الأخيرة التي رفعها الراصدون، كان القوس يقطع منطقة فريدة من نوعها تدعى كارّو Karrou باللهجة العامية، مشابهة لتلك الواقعة عند سفح جبال روغفيلد في مستعمرة الكاب. خلال فصل الأمطار، تُظهر هذه المنطقة في كل الأرجاء أكثر دلالات الخصوبة روعة. تكتسي التربة بعد أيام ممطرة حلة كثيفة، وتنبت الزهور في كل مكان وتنبثق من الأرض النباتات في ردح بسيط من الزمن. كما تتكاثف المراعي على مدّ النظر، وتتشكل مجاري المياه وتنزل قطعان الظباء من الجبال لتستحوذ على تلك المراعي التي هيأتها يد الطبيعة على حين غرة.

غير أنّ هذا المجهود النادر للطبيعة لا يدوم طويلاً. بالكاد يمر شهراً أو ستة أسابيع على أكثر تقدير، حتى تزول في الهواء هذه الرطوبة كلها، متحولة إلى أبخرة بفعل أشعة الشمس. تيبس التربة وتختنق البذور الجديدة، وتختفي النباتات خلال بضعة أيام. فتهرب الحيوانات من هذا الصقع وقد أضحى غير صالح لها. بذلك يُقفر البلد بعد ما كان عليه من غنى وخصب.

هكذا كان هذا الكارّو الذي يلزم على قافلة الكولونيل إفريست الصغيرة أن تجتازه، قبل أن تبلغ الصحراء الحقيقية المتاخمة لبحيرة نغامي Ngami. ندرك مما سبق لما كان البشماني يبدي اهتماماً في التوغل إلى هذه المنطقة الاستثنائية قبل أن تنضب منابع المياه المنعشة بفعل الجفاف الكبير. لذلك نقل ملاحظاته إلى الكولونيل إفريست. تفهّم ذلك الأخير الأمر تماماً ووعد أن يأخذه بعين الاعتبار ويُسرع الأعمال إلى حد ما، شرط ألا تلحق هذه السرعة عينها الضرر في دقة العمليات. إنّ الأعمال المتعلقة بالزوايا ليست سهلة المنال دائماً، ويمكن القيام بها في أيّة ساعة. لا يمكن الرصد بشكل جيد إلاّ في ظروف مناخية معينة ملائمة له. بذلك لا يمكن للعمليات أن تتقدم على نحو ملموس وبسرعة أكبر رغم توصيات البشماني الملُحّة. كان ذلك الأخير يدرك تماماً أنّه عند وصوله إلى كارّو ستكون المنطقة الخصبة على أغلب الظن قد اختفت تحت تأثير الأشعة الشمسية.

بانتظار أن يقود تقدم عملية التثليث علماء الفلك نحو حدود كارّو، يمكن لهم الإنتشاء بتأمل الطبيعة البهية التي كانت تعرض نفسها تحت أنظارهم. لم تقدهم قط مفاجآت البعثة إلى أصقاع أكثر جمالاً. رغم ارتفاع الحرارة تحافظ السواقي على نشر الطراوة باستمرار. وتجد قطعان

بآلاف الرؤوس غذاء لا ينضب في تلك المراعي. كما تنتصب هنا وهناك، فوق تلك الأرض الفسيحة، غابات مخضوضرة وقد بدت كحديقة إنكليزية، لا تنقصها إلا قناديل الغاز.

قليلاً ما كان الكولونيل يتأثر بهذا الجمال الطبيعي، أما السيد جون ووليم إميري على وجه الخصوص، فتأثراً تأثراً عميقاً بالجو الشاعري الذي كان ينبثق من هذا الصقع الضائع وسط الصحارى الإفريقية. كم افتقد العالِم الشاب حينئذاك، رفيقه البائس ميشيل زورن وأسرارهما الودية التي كانا يتبادلان بوحها عادة! لا بدّ أنّه كان على منواله، متأثراً جداً وبين عمليتي رصد كانا يتركان العنان لقلبيهما!

على هذا النحو سارت القافلة وسط ذلك الصقيع الرائع. أسراب عديدة من الطيور تُحيّ بشدوها وطيرانها المراعي والغابات. اصطاد صيادو القافلة في عدة مناسبات أزواجاً من «الكوران Korans» وهو نوع من طيور الحبُارى الخاص بسهول أفريقيا الجنوبية. «والديكوب Dikkops» فرائس شهية يُقدر لحمها خاصة لطعمه اللذيذ. وطيور أخرى كانت تلفت انتباه الأوروبيين بمرآها وليس بطعمها. عند ضفاف السواقي أو على صفحة الأنهر التي كانت تلمسها بأجنحتها السريعة، ثمة طيور ضخمة تطارد باصرار كبير طيور الزاغ[١] النهمة التي تحاول سرقة بيوضها من داخل أعشاشها الطينية. ثمة كذلك طيور الكراكي الزرقاء ذات العنق الأبيض، وطيور النُحام[٢] الحمراء اللون التي تتنزه مثل شعلة تحت الأدغال المتفرقة،

---

(١) م. (طائر من الغربان).
(٢) م. (جنس طير طويل الساق والعنق).

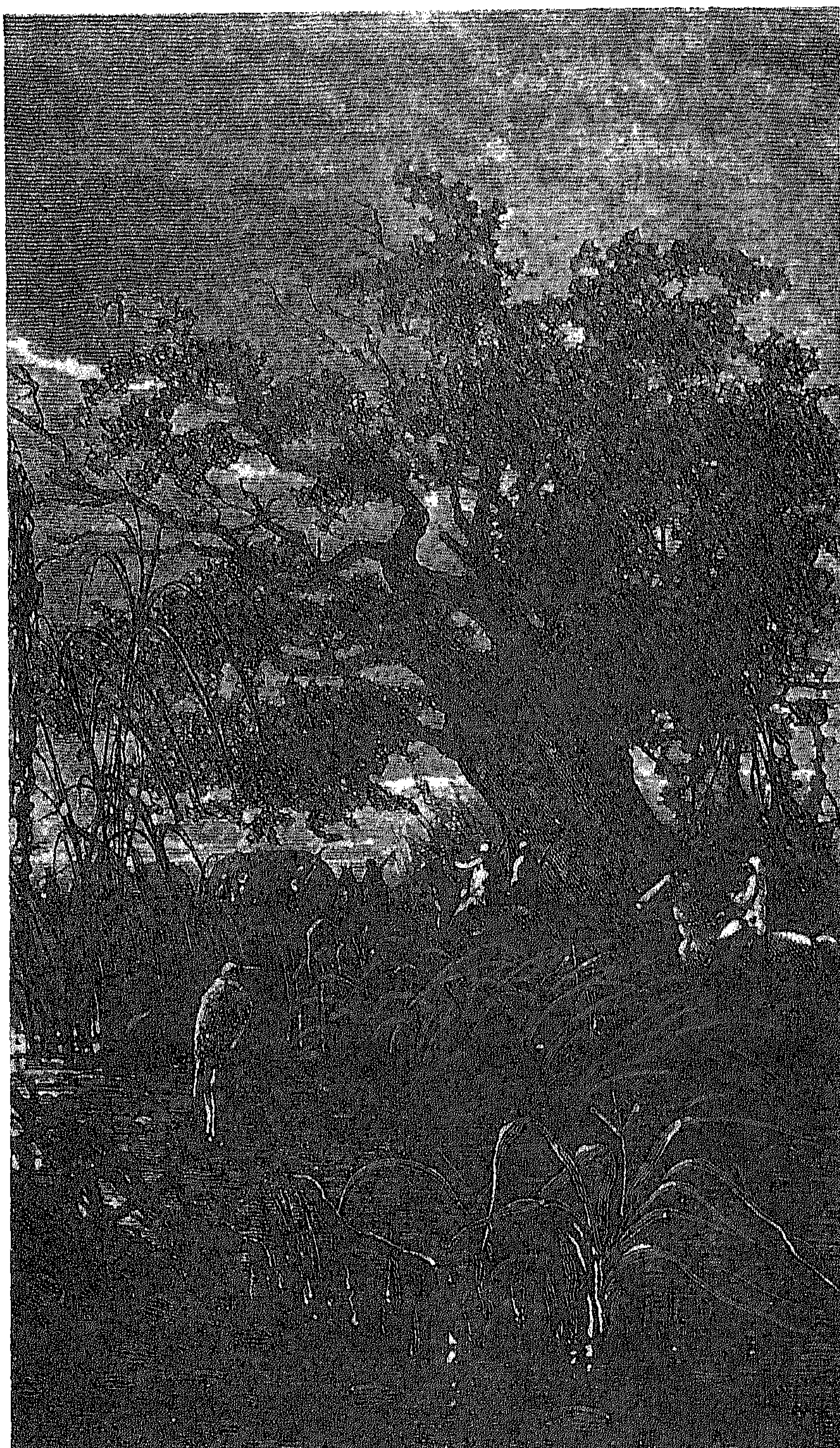
طيور مالك الحزين والكروان والشتفب[٣] وطيور «كالاس Kalas» التي تجثم عادة فوق غارب الثيران، والزقزاق[٤] وأبو منجل[٥] الذي يبدو مسروقاً من المسلات الهيروغليفية، وطيور بجع كبيرة الحجم، تسير بالمئات خطاً واحداً وهي تبث الحياة في أرجاء هذه المناطق التي ينقصها الإنسان فقط. ألم تكن من بين هذه الأنواع المختلفة لجنس الطيور ذات الريش طيور أبو نّساج[٦] الماهرة الأكثرة إثارة للفضول، بأعشاشها المائلة للخضرة والمضفورة من نبات الأسل والأعشاب اليابسة، والمعلقة مثل إجاصات ضخمة على أغصان أشجار الصفصاف؟

قطف وليم إميري واحدة أو اثنتين منها وقد ظن أنّها ثمار من نوع جديد، وكم كانت دهشتةكبيرة وهو يسمع هذه الثمار المزعومة تزقزق مثل الدوري! ألاّ يمكن أن نغفر له ذلك على غرار مسافري افريقيا القدماء الذين كانوا يعتقدون أنّ بعض الأشجار في هذا الصقع يُثمر طيور حيّة؟!

أجل. كان لهذا الكارّ وطابعاً ساحراً ويقدم كل الشروط الملائمة لحياة الحيوانات المجترة.

كانت قطعان النو gnou ذات الحافر المدبب والكاماس Caamas والعلَنَد وظباء الجبل والغزلان تكثر في هذا الصقع. يا له من تنوع في الفرائس، ويالها من «طلقات موفقة» لواحد من أعضاء نادي هنتر المحترمين - ذلك يغري بالفعل السيد جون موراي فبعد أن حصل على استراحة ليومين من الكولونيل إفريست، سوف يبذل أقصى جهده ليقضيها

(٣) - م. (طائر من فصيلة دجاجيات الأرض).
(٤) - م. (طائر يبشر بالمطر).
(٥) - م. (طائر مائي طويل القائمتين والمنقار)
(٦) - م. (جنس عصافير تنسج عشها بعناية فائقه).



بطريقة تلفت الأنظار. يا لها من نجاحات رائعة سيحصدها بالتعاون مع البشماني صديقه، بينما كان وليم إميري يتبعهما كهاوٍ! يا لها من نتائج يسجلها في دفتره الخاص بالصيد! يا لها من غنائم سيحملها إلى قصره في اسكتلندا! وياله من نسيان خلال هذين اليومين من العطلة، بعيداً عن العمليات الجيودوزية والتثليث وقياس خط الهاجرة على السواء! من كان يظن أنّ هذه اليد الماهرة جداً في استخدام البندقية، كانت تدير في يوم العدسات الدقيقة للمزولة! من كان يعتقد أنّ هذه العين العجولة جداً في التسديد على ظبي سريع العدو، كانت قد دُربت على متابعة نجمة ما من البعد الثالث عشر، عبر مجموعات النجوم في السماء. أجل! كان السيد جون موراي صياداً لا غير وبكل ما في الكلمة من معنى، طول هذين اليومين السعيدين، حتى اختفى عالِم الفلك لدرجة نخشى ألا يعود أبداً للظهور ثانية.

من بين حكايات الصيد التي تخص السيد جون، علينا سرد واحدة برزت فيها نتائج غير متوقعه، سببت الشعور بعدم الإطمئنان لدى البشماني، فيما يتعلق بمستقبل البعثة العلمية. لم تكن هذه الحادثة إلاّ لتثير المخاوف التي نقلها الصياد ثاقب الفكر إلى الكولونيل إفريست.

إنّه الخامس عشر من تشرين الأول، كان السيد جون منذ يومين قد ترك العنان تماماً لغرائزه المُلّحة. كان الصيادون قد أعلنوا عن وجود حوالي عشرين رأساً من المجترات علَى بعد ميلين تقريباً من الجانب الأيمن للقافلة. اكتشف موكوم أنّها تنتمي لذلك النوع الجميل من الظّباء الذي يدعى «اوريكس oryx»، والذي كانت تظهر في عملية أسره، الصعبة للغاية، مهارة كل صياد إفريقي.

على الفور أعلم البشماني السيد جون عن الفرصة السعيدة التي تهيأت له، ودعاه بإلحاح للاستفادة منها. لقد أخبره أيضاً أنّ هذه الحيوانات يَصعب أسرها للغاية، وأنّ سرعتها تتجاوز سرعة أفضل حصان. وأنّ الصياد الشهير كامينغ عندما كان يصطاد في ناماكوا، لم يستطع حتى وهو على صهوة أسرع الأحصنة عدواً، أن يقنص طيلة حياته كصياد أربعة من هذه الظباء الرائعة!

لا داع لقول المزيد لإثارة حميّة الإنكليزي المحترم الذي أعلن استعداده لاقتفاء آثار الأوريكس. اختار أفضل حصان وأفضل بندقية وأفضل الكلاب. ولنفاذ صبره سبق البشماني المتأني متجهاً نحو أطراف حرجة مجاورة لسهل واسع شوهدت بالقرب منه المجترات.

بعد ساعة من المسير، توقف الحصانان. أشار موكوم لرفيقه وقد احتمى خلف مجموعة من أشجار الصفصاف المتدلية الأغصان، إلى مجموعة الظباء التي كانت ترعى على هواها، وقد لبثت ساكنة باتجاه الريح على بعد خطوات تقدر بالمئات تقريباً.

مع ذلك لم تكن هذه الحيوانات الحذره قد شاهدتهما بعد. بل ترعى بسلام عشب المراعي. واحد منها كان يلبث على مبعدة منها دلّ عليه البشماني للسيد جون.

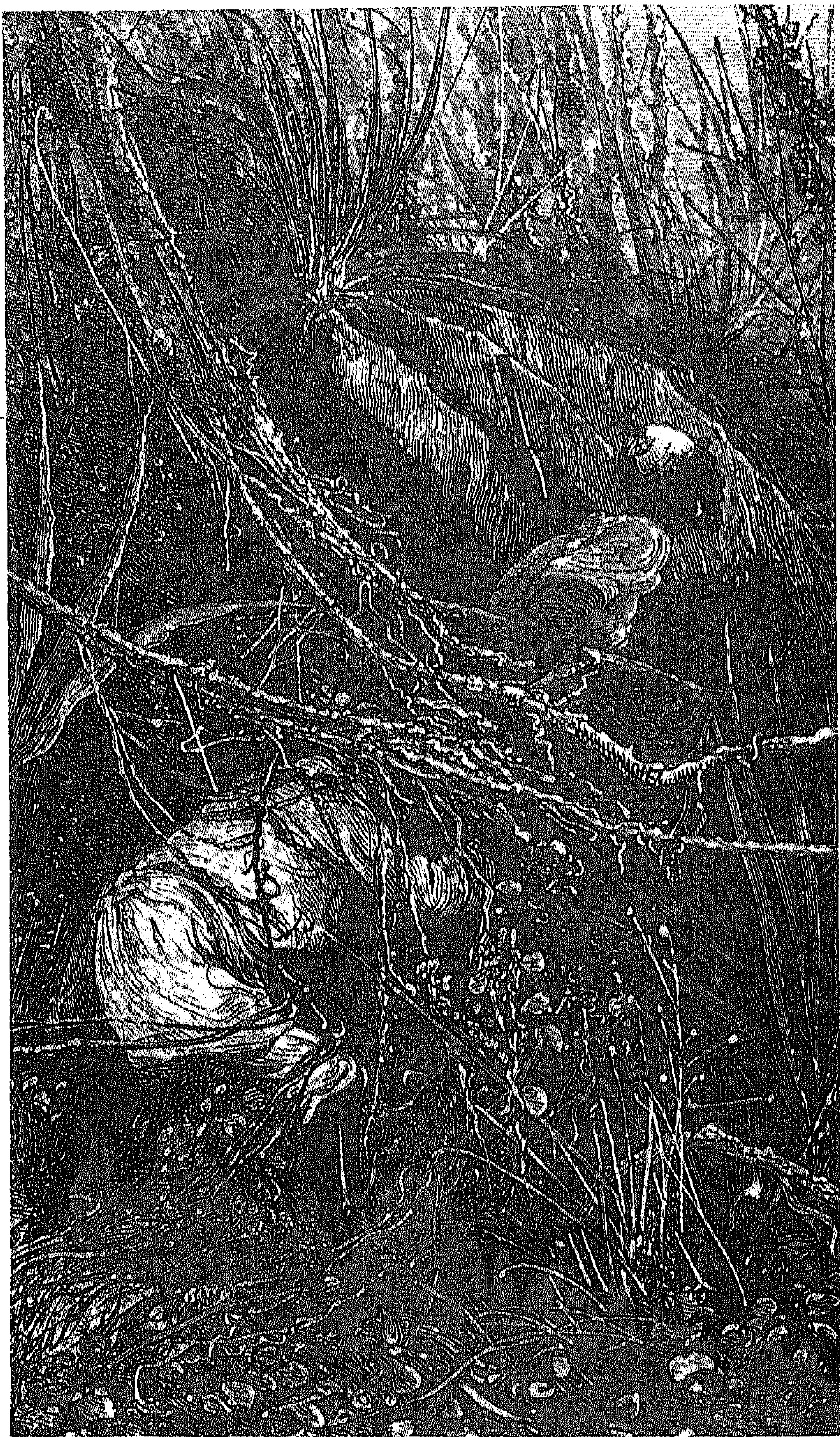
- إنّه الحارس. هذا الحيوان، عجوز ماكر بلا أدنى شك، يسهر على سلامة القطيع، عند أدنى خطر يصدر حمحمة معينة، فيُولي القطيع وهو على رأسه الأدبار، بأقصى ما عنده من قوة. لذا يلزم عدم التسديد عليه إلا من مسافة مناسبة وقتله من الطلقة الأولى.

اكتفى السيد جون بهز رأسه دليل الموافقة وركن في موقع جيد لمراقبة القطيع. استمرت الظباء في الرعي دون أن تجانب الحذر. كان حارسهم، الذي ربما حمل إليه الهواء بعض الروائح المثيرة للشبهة، يرفع مراراً رأسه المقرن وقد بدت عليه علامات الإثارة. غير أنّه كان بعيداً جداً عن الصيادين ليتمكنا من التسديد عليه بدقة. كما أنّ فكرة إرغام القطيع على الركض فوق هذا السهل الواسع، الذي يوفر لها حلبة واسعة، كانت مستبعدة تماماً. ربما يقترب القطيع من الحرُجة، وفي هذه الحالة يمكن للسيد جون والبشماني أن يسددا على واحد منها في شروط أفضل على نحو ما.

شاءت الصدفة أن تُسهل الأمر على الصيادين. اقتربت المجترات شيئاً فشيئاً تحت قيادة الذكر العجوز من الغابة. لا بدّ أنّها لا تشعر بالإطمئنان في هذا السهل المكشوف، وترغب الإحتماء تحت الأغصان الكثيفة للحرُجة. دعا البشماني رفيقه ليترجل عن حصانه عندما عجزا عن التكهن بنية المجترات. ربُط الحصانان بجذع شجرة صفصاف، وقد أُسدل غطاء على رأسيهما ليؤمن صمتها وهدوءها في آن معاً. ثم انسل موكوم والسيد جون تتبعهما الكلاب تحت الأدغال محاذين تخم النباتات السرعية للغابة، بطريقة يصلان فيها إلى حدود الأشجار الأخيرة التي لا يبعد حدها الأقصى عن القطيع أكثر من ثلاثمئة خطوة.

هناك، كمن الصيادان كما لو أنّهما في مرقب، وأخذا ينتظران والبنادق على أهبة الاستعداد.

استطاعا على هذا النحو من مكانهما مراقبة الظباء وتأمل هذه الحيوانات الرشيقة بتفصيل دقيق. كانت الذكور تتميز قليلاً عن الإناث بميزة غريبة، لا توفر الطبيعة إلا أمثلة نادرة عنها. إذ كانت قرون الإناث أكثر



جمالاً من قرون الذكور، ومرد ذلك انثناءاتها نحو الخلف وأطرافها المشيقة للغاية، لا يمكن لأيّ حيوان آخر أن يكون ساحراً أكثر من هذا الظبي الذي يشكل الأوريكس ضرباً منها- كما لا يمكن لأيّ ظبي أن يملك برقشات سوداء مُنسقة بهذه الدقة. يتموج زغب ناعم عند عنق الأوريكس وتستقيم لبدته ويسحب وراءه ذيله الكثيف على الأرض.

في هذا الوقت، ظل القطيع المؤلف من عشرين فرداً، بعد اقترابه من الغابة، ساكناً لا يروم حراكاً. كان الحارس قطعاً يدفع الظباء لمغادرة السهل. فيمر بين الأعشاب العاليه محاولاً لمّ شملها في مجموعة واحدة، كما يفعل كلب الراعي بالخراف التي وُكلّ إليه أمر مراقبتها. غير أنّ هذه الحيوانات التي ترعى العشب بابتهاج، لم يبدُ عليها البتة أنّها تميل إلى مغادرة هذا السهل الوافر. إنّها تقاوم وتهرب قافزة وتعود من جديد لرعي العشب أبعد بعدة خطوات.

فاجأت هذه المناورة البشماني ونقل رأيه للسيد جون دون أن يستطيع شرح أسبابها. أنه لا يفهم سبب عناد الذكر العجوز ولا السبب الذي من أجله يرغب إعادة قطيع الظباء إلى الغابة. استمر الأمر طويلاً على هذا النحو دون أن يتبدل. كان السيد جون يتحسس بنفاذ صبر صفيحة البندقية. طوراً يرغب التسديد وطوراً يمضي إلى الأمام. ولم يتمكن موكوم من منعه إلا بصعوبة كبيرة.

انقضت ساعة على هذا النحو ولا يمكن التنبأ بعدد الساعات التي ستنقضي أيضاً، عندما أصدر واحد من الكلاب، يُحتمل إنّه نفذ صبره مثل سيده، نباحاً قوياً وهرع نحو السهل.

رغب البشماني وقد ثار غضبه تفريغ ذخيرة الرصاص على الحيوان الملعون! غير أنّ القطيع السريع العدو كان قد هرب بسرعة لا مثيل لها وانقضى الأمر. فهم عند ذلك السيد جون أنّ أيّ حصان كان، لا يمكن له ملاحقتها. خلال لحظات لم تعد الظباء تشكل سوى نقطاً سوداء تقفز بين الأعشاب العالية.

بيد أن الذكر العجوز، لدهشة البشماني العظيمة، لم يعط إشارة الهرب لقطيع الظباء، خلافاً لعادات هذه المجترات، بقي هذا الحارس المتميز في المكان نفسه، لا يفكر على الإطلاق باللحاق بالظباء التي ترعى تحت حراسته. حتى أنّه منذ رحيلها يحاول الإختباء بين الأعشاب، غايته في ذلك الوصول إلى الحرجة على وجه الإحتمال.

- هذا بالفعل شيء غريب قال حينئذاك البشماني. ما به هذا الظبي العجوز؟ مشيته غريبة! هل يعاني من جرح يا ترى، أو من تقدم في السن؟

- سنعرف ذلك تماماً. رد السيد جون وهو يتجه صوب الحيوان وبندقيته جاهزة لإطلاق النار.

كان الظبي باقتراب الصياد يلامس الأرض أكثر فأكثر. لم يعد يظهر منه سوى قرونه الطويلة ذات الأقدام الأربعة، التي تطغى رؤوسها المسننة على المساحة الخضراء للسهل. وهو لا يحاول الهرب وإنما الاختباء، لذا استطاع السيد جون الإقتراب من الحيوان الغريب، وعندما أضحى على مسافة مائة قدم منه سدد بعناية ثم أطلق النار. دوى صوت الطلق، حتماً أصابت الطلقة الظبي في رأسه، لأنّ قرونه التي كانت منتصبة حتى ذلك الوقت، اختفت الآن تحت الأعشاب هرع السيد جون وموكوم نحو الحيوان

بأقصى ما لديهم من سرعة. كان البشماني يحمل في يده سكين الصيد متأهباً لبقر الحيوان في حال لم يكن قد مات على الفور.

عبثاً كانت حيطته. لأنّ الأوربكس كان ميتاً. ميتاً بالفعل، وحتى ميتاً لدرجة أنّ السيد جون عندما سحبه من قرونه، لم يلتقط سوى جلداً فارغاً لدناً ينقصه هيكل عظمي كامل!

- بحق السماوات! هذه أشياء لا تحدث إلاّ معي. صاح بصوت ساخر كان سيُضحك كل شخص إلا البشماني.

لم يكن موكوم يضحك أبداً. شفتاه مزمومتان، عابس الوجهه وعيناه ترفان وقد لاح فيهما ما يعتمل في نفسه من قلق بالغ. كتّف ذراعيه وأدار رأسه بسرعة إلى اليمين وإلى اليسار إنّه ينظر حوله.

فجأة، صادفت نظراته شيئاً ما، إنّه كيس صغير من الجلد مزين بزخرفات حمراء، كان مرمياً على الأرض. التقطه البشماني فوراً وفحصه بانتباه.

- ما هذا؟ سأله السيد جون.

- إنه كيس يعود لواحد من الماكولولو! رد موكوم.

- وما الذي أتى به إلى هنا؟

- لأنّ مالك الكيس أسقطه وهو يهرب مولياً الأوبار.

- وأين هو هذا الماكولولو؟



- لا تكدر نفسك ياسيدي . رد البشماني وقد تشنجت قبضتاه من الغضب . هذا الماكولولو كان في جلد الأوريكس الذي قمت أنت بالتسديد عليه!

لم يتسن للسيد جون أن يعبر عن دهشته حتى كان موكوم وقد لاحظ على بعد خمسمئة قدم تقريباً، حركة بين الأعشاب، قد أطلق النار فوراً في ذلك الإتجاه. ثم ركض هو والسيد جون بلا توقف نحو المكان المشتبه به. غير أنّه كان خاوياً. واضح من الأعشاب المهروسة أنّ كائناً حياً قد مرّ هناك. اختفى رجل الموكولولو. لا مناص من العدول عن اللحاق به عبر هذا المرج الواسع الذي يمتد حتى حدود الأفق.

عند ذلك رجع الصيادان يساورهما القلق جراء ذلك الحادث الذي أثار حتماً مخاوفهما. إنّ وجود هذا الشخص عند نُصب الغابة المحترقة، وهذا التنكر، المألوف جداً عند صيادي الأوريكس، الذي كان يختفي تحته، يشهدان على إصرار حقيقي لدى هذا الشخص في تتبع قافلة الكولونيل إفريست عبر المناطق المقفرة، لم يكن عبثاً أن يتجسس بهذه الطريقة فرد من قبيلة الماكولولو المشهورة بالنهب، على الأوربين وحراسهم. وكلما تقدم هؤلاء في سيرهم نحو الشمال، يحدق الخطر بهم أكثر، في أن يهاجمهم لصوص الصحراء ذينكم.

عاد موكوم والسيد جون إلى المخيم. لم يستطع سعادته أن يتمالك نفسه عن القول لزميله وليم وقد خاب رجاءه:

- حقاً يا عزيزي وليم أنا لا أملك الحظ! فأول ظبي أرميه أرضاً كان ميتاً سلفاً حتى قبل أن أسدد عليه!

* * *

لصوص الصحراء

تحدث البشماني بعد حادث صيد الظباء ذاك مع الكولونيل إفريست مطولاً. برأيّ موكوم، وهو رأيّ يستند إلى أحداث مقنعة، ثمة من يتتبع القافلة ويتجسس عليها، وبالتالي يهدد أمنها. وإذا لم يقم، حسب قوله، أفراد الموكولولو حتى الآن بالهجوم عليها، فلأنّ الأمر يناسبهم أن تتوغل القافلة في سيرها نحو الشمال، إلى الصقع نفسه الذي تجوبه عادة عشائرهم التي تمتهن النهب.

إزاء هذا الخطر هل يلزم عليهم العودة؟ هل يلزم وقف العمليات التي سارت حتى هذا الوقت على نحو رائع للغاية؟ هل ما لم تستطع الطبيعة أن تفعله، سيفعله السكان الأفريقيون؟ هل سيمنعون العلماء الإنكليز من إنهاء إنجازهم العلمي؟ هذه قضية شائكة من الأهمية بما كان إيجاد حل لها.

طلب الكولونيل إفريست من موكوم أن يخبره كلّ ما يعرفه عن الموكولولو وهذا باختصار ما سرده البشماني. ينتمي أفراد الموكولولو إلى قبيلة البيشوانيين الكبيرة ,Béchuanas، وهم آخر من سيصادفونه بتقدمهم نحو خط الإستواء. أستقبل عام ١٨٥٠ الدكتور ديفيد ليڤنغستون، خلال زيارته الأولى للزامبيز، في سيشيك ,Seshéke وهي المقر المعتاد للسيد سيبتوانه، زعيم الموكولولو في ذلك الوقت. كان ذلك الرجل المحلي مغواراً فرض سطوته عام ١٨٢٤ حتى حدود الكاب. استطاع سيبتوانه الذي يتمتع بذكاء خارق أن يهمين شيئاً فشيئاً على القبائل المتفرقة وسط

إفريقيا، وتوصل إلى توحيدها في بوتقه متماسكة مُهيمنة. توفي ذلك الزعيم المحلي بين يدي ليڤنغستون، عام ١٨٥٣ أي في العام المنصرم، وخلَفِه من بعده ولده سيكيليتو.

أظهر سيكيليتو في أول الأمر إزاء الأوربيين الذين يترددون على ضفاف نهر الزامبيز لطفاً زائداً. حتى أنّ الدكتور ليڤنغستون لم يبد تذمراً منه. غير أنّ الملك الإفريقي تغير تماماً بعد رحيل المسافر المشهور. ليس الغرباء فحسب، بل حتى السكان المحليين المجاورين بشكل خاص، أضحوا يشتكون من المعاملة الكيدية لسيكيليتو ومحاربي قبيلته. تبعت أعمالُ التنكيد أعمال السطو التي انتشرت حينئذاك انتشاراً واسعاً. كان أفراد الموكولولو يجوبون الريف، خاصة تلك المنطقة الواقعة بين بحيرة نغامي ومجرى نهر الزامبيز الأعلى لا شيء يدعو للأمان أبداً في التقدم نحو هذه المناطق بقافلة قليلة الأفراد، خاصة إذا كان هناك من بلغ عنها وينتظر قدومها، ويحكم عليها سلفاً، على الأرجح، بكارثة محتمة.

هذا هو السرد المختصر الذي نقله البشماني للكولونيل إفريست. مضيفاً إنّه يرى لزاماً عليه أن يخبره الأمر برمته، وإنّه من جهته، سيتبع تعليمات الكولونيل ولا يعود القهقرى أبداً، إذا ما تم الاتفاق على متابعة السير نحو الأمام.

تشاور الكولونيل إفريست مع زميليه السيد جون موراي ووليم إميري. وتم الاتفاق بينهم على متابعة الأعمال الجيودوزية مهما يكن الأمر. لقد قيس إلى الآن، خمسة أثمان القوس، ومهما جرى يلزم على أولئك الإنكليزي من أجلهم ومن أجل وطنهم ألا يوقفوا عملهم.

وبالإتفاق على هذا الرأي، استمرت سلسلة المثلثات. قطعت اللجنة العلمية يوم السابع والعشرين من تشرين الأول مدار الجدي بشكل عامودي. وتأكدت عن طريق عمليات رصد سميته، يوم الثالث من تشرين الثاني، وبعد الإنتهاء من المثلث الواحد والأربعين، أنّ قياس قوس الهاجرة قد امتد درجة إضافية.

استمر العمل بنشاط في عملية التثليث لشهر كامل دون أن يصادفوا عوائق طبيعية. قام العلماء بعملهم في ذلك البلد الجميل القليل الحوادث لحسن الحظ، إذ لا تقطعه أنهار كبيرة بل سواق يمكن عبورها، على أحسن وجه وبالسرعة الممكنة. كان موكوم اليقظ دوماً يسهر على إنارة مقدمة وجنبات القافلة، ويمنع الصيادين من الإبتعاد عنها. لا يبدو أنّ خطراً مباشراً قد يهدد القافلة الصغيرة. ويمكن على الأرجح ألاّ تتحقق مخاوف البشماني. لم تظهر منذ شهر تشرين الثاني على الأقل، أيّة جماعة من اللصوص ولا حتى أي أثر جديد للرجل الذي يلاحق بإصرار كبير البعثة من نصب الغابة المحترقة.

مع ذلك، وعلى الرغم من أنّ الخطر يبدو بعيداً بشكل مؤقت. لاحظ الصياد في عدة مناسبات علامات تردد بين صفوف البشمانيين الذين يعملون تحت إمرته. لم يكن ممكناً إخفاء حادثة النصب وحادثة صيد الظباء عنهم. إنهم حتماً يتوقعون لقاء الموكولولو. والحال هذه، تعتبر قبيلتا الموكولولو والبشمان، من القبائل العدوة، التي لا ترحم الواحدة منها الأخرى، كما لا يمكن تأملُّ أي عفو من المنتصر. لذا كان عددهم القليل هو الذي يخيف بالذات أفراد هذه القافلة، بعد أن قُلص عددهم إلى النصف منذ إعلان الحرب. يجد البشمانيون الآن أنفسهم على بعد أكثر من ثلاثمئة

ميل عن ضفاف نهر أورانج ويجري الحديث عن اضطرارهم للتقدم لمئتي ميل أيضاً على الأقل نحو الشمال. وهذا يدفعهم للتفكير ملياً في الأمر.

صحيح أنّ موكوم قبل أن يطوع الرجال لهذه البعثة، لم يخف عنهم أبداً مشقات الرحلة وطولها، هم حتماً من الرجال الذين يجابهون الصعاب المرافقة لهكذا بعثة. بيد أنّه من اللحظة التي تنضم فيها أخطار الاصطدام مع أعداء ألداء، إلى مشقات الرحلة، في هذه الظروف تتغير مواقفهم. من هنا تبدأ التحسرات والشكوى. نيّة سيئة كان موكوم يتظاهر بعدم رؤيتها أو سماعها، لكنها تزيد أيضاً من مخاوفه على مصير البعثة العلمية.

احتدمت التصرفات السيئة لأولئك البشمانيين المؤمنين بالخرافة بفعل ما جرى يوم الثاني من كانون الأول وتسببت إلى حد ما في عصيانهم لرؤوسائهم.

اكفهر الجو في اليوم الذي سبق الحادثة وقد كان الطقس جميلاً جداً حتى ذلك الوقت. وبتأثير الحرارة الإستوائية، أظهر الجو المشبّع بالأبخرة، توتراً كهربائياً كبيراً. لذا يمكن التنبؤ سلفاً عن عاصفة مقبلة، والعواصف في هذه المناخات تنتشر على نحو دائم تقريباً بعنف لا يضاهى.

تغطت السماء في واقع الأمر، صبيحة الثاني من كانون الأول، بغيوم سوداء لا يمكن لمتنبىء الأرصاد أن يرتاب فيها. إنّها عبارة عن «قزع» مكدس مثل بالات القطن، يكشف عن ألوان متباينة جداً هنا بلون رمادي غامق وهناك بلون يميل للأصفر. اكتست الشمس لوناً باهتاً، وأضحى النسيم ساكناً والحرارة خانقة. توقف عند ذاك انخفاض الضغط الجوي، الذي سجله مقياس الضغط منذ الليلة الفائتة. لم تكن أيّة ورقة على الأشجار تروم حراكاً وسط ذلك الجو الثقيل الوطأة.

لاحظ علماء الفلك حالة السماء، غير أنهم لم يعتقدوا بتاتاً أنّها ستسبب توقف عملياتهم. كان وليم إميري في ذلك الوقت قد اتجه بصحبة بحارين وأربعة رجال وعربة، مسافة ميلين شرق خط الهاجرة، لإعداد علامة إرشاد بهدف تشكيل قمة مثلث جديد. كان منشغلاً في نصب العلامة عند قمة تله، عندما أتاح تكاثف سريع للأبخرة، بتأثير جريان كبير لهواء بارد، الفرصة لانتشار كبير للشحنات الكهربائية. في الحال انهمر بَرَدْ غزير على الأرض. لكنّ الظاهرة النادرة الحدوث هو أنّ هذه الحبات كانت مضيئة، كما لو أنّ السماء كانت تمطر قطرات من معدن مشتعل. كانت الشرارات تنبجس فور سقوطها على الأرض، وتتدفق رشقات مضيئة من كل جنبات العربة المعدنية التي استخدمت لنقل المعدات.

بعد فترة، اكتسبت الحبات حجماً معتبراً لتصبح رجماً حقيقياً لا يمكن التعرض له دون خطر. إنّ قوة هذه الظاهرة الطبيعية لا تدعو للدهشة عندما نعلم أن الدكتور ليڤينغستون، قد شاهد في ظروف مماثلة في كولونبغ، زجاج النوافذ المكسور وأحصنة وظباء قتلتها حبات البَرد الكبيرة تلك.

ترك وليم إميري عمله جانباً دون أن يضيع دقيقة واحدة. نادى رجاله ليحتموا بالعربة، فهي تشكل ملجأ أقل خطر من الإحتماء تحت شجرة في هذه العاصفة. بيد أنّه ما أن غادر قمة التلة، حتى كان برق خاطف للبصر مصحوب بصاعقة فورية قد أحرق الجو.

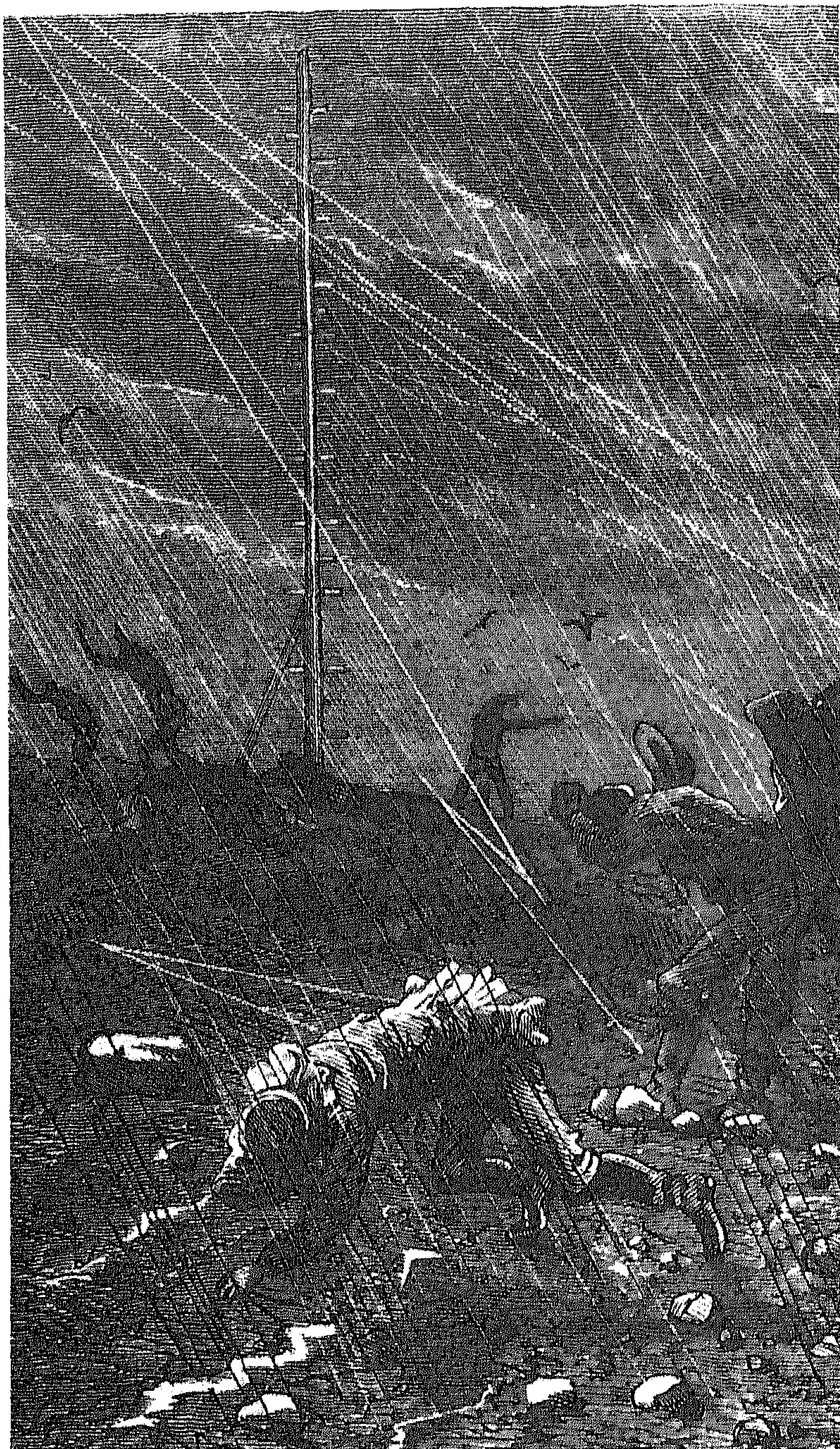
انقلب وليم إميري أرضاً كما لو أنّه فارق الحياة. هرع البحارات نحوه وقد ذهلا للحظة. لحسن الحظ حافظت الصاعقة على حياة عالم الفلك. بسبب واحد من العوامل التي لا يمكن شرحها تقريباً، والتي تسببها بعض

أنواع الصواعق، كان التيار إذا جاز المعنى، قد انزلق من حوله بعد أن أحاطه بطبقة كهربائية. غير أنّ مروره كان مؤكداً حتماً بسبب صهره للحروف الحديدية لفرجار كان وليم إميري يحمله بيده.

عاد الشاب وقد رفعه البحار ان إلى وعيه سريعاً. غير أنّه لم يكن الضحية الوحيدة ولا أكثر من تضرر بسبب هذه الصاعقة. قرب العمود الذي نُصب على التلة، كان يرقد رجلان من البشمان جثة هامدة على بعد عشرين خطوة الواحد من الآخر. كان الأول وقد تعطلت أجهزته تماماً بفعل العمل الميكانيكي للصاعقة، يحتفظ تحت ملابسه السلمية بجسد أسود متفحم. والثاني سقط صريعاً بعد أن أصابته هذه الظاهرة الجوية في جمجمته.

على هذا النحو، تلقى هؤلاء الرجال الثلاثة. الرجلين ووليم إميري، في نفس الوقت صدمة برق واحد بثلاثة رشقّات. هذا الإثلاث لبرق يعد ظاهرة نادرة، لكنها تحدث أحياناً وغالباً ما يكون انفراجه الزاويّ كبيراً.

سارع البشمانيون بالهرب وقد أرعبهم موت رفيقيهم، على الرغم من نداءات البحارة، ومن خطر تعرضهم للصاعقة نتيجة تخلخل الهواء خلفهم والذي تسببه سرعة عدوهم. غير أنّهم كانوا يصمّون آذانهم عائدين للمخيم بأقصى سرعة ممكنة. وضع البحاران جسدي الرجلين في العربة بعد أن نقلا وليم إميري إليها، ثم احتميا بدورهما وقد امتلأ جسداهما بالكدمات التي أحدثتها حبات البرد التي تهطل كمطر من الحجارة. بقيت العاصفة تزمجر بعنف شديد نحو ثلاثة أرباع الساعة، ثم أخذت تهدأ تدريجياً. توقف البرد وأصبح بالإمكان أن تعود العربة نحو المخيم.



سبق خبر موت الرجلين المحليين وصولهما. كان ذلك يخلف أثراً سيئاً على عقلية أولئك البشمانيين الذين يشاهدون بهلع تضخمه الخرافة تلك العمليات المثلثاتية العصبية عن إدراكهم. إلتم أفرادهم في اجتماع مشبوه، وصرّح بعضاً منهم، وقد وهت عزيمته أكثر من غيره، عن رفضه متابعة السير. ثمة نذير لعصيان يمكن أن يأخذ أبعاداً خطيرة. لذا توجب على البشماني أن يضع كل ثقله ليقف في وجه هذا التمرد. كما لزم على الكولونيل إفريست أن يتدخل ويوعد أولئك الرجال البائسين براتب إضافي ليبقيهم في خدمته. سُوّيَ الأمر بصعوبة. ثمة مقاومة سرية، بذلك أضحى مصير البعثة مهدداً بالفشل بشكل جدي. بالفعل ما هو مصير أعضاء اللجنة وسط هذه الصحراء، بعيداً عن أيّة قرية، دون حراس يحمونهم أو سائقين يقودون العربات؟

تم في نهاية الأمر تفادي هذه المشكلة أيضاً واتجهت من ثم القافلة نحو التلة التي لاقى اثنان منهما الموت عندها.

ظل وليم إميري يشعر بالألم لبضعة أيام بسبب الصدمة القوية التي أصابته. ظلت يده اليسرى التي كانت تحمل الفرجار مشلولة نوعاً ما لبعض الوقت. لكن الأمر انتهى وزال أخيراً ألمه، واستطاع العالم الشاب العودة إلى أعماله.

خلال الأيام الثمانية عشرة التي تلت ذلك، أي حتى العشرين من كانون الأول لم يطرأ أيّ حادث على مسيرة القافلة. لم يظهر أفراد الموكولولو وبدأ موكوم رغم توخيه الحذر يشعر بالإطمئنان. لم تعد الصحراء تبعد أكثر من خمسين ميلاً، وسيظل ذلك الكارّ وكما كان حتى

ذلك الوقت صقُعاً رائعاً، لا يمكن مقارنة نباتاته المروية بالمياه الجارية، بأيّ صقع أخر من الكرة الأرضية. لذا يمكن الاطمئنان أنّه حتى الوصول إلى الصحراء، لا الرجال وسط هذه المنطقة الخصبة والمليئة بالفرائس، ولا الدواب الغارقة حتى صدورها في هذه المراعي الكبيرة، سيفتقرون إلى الغذاء. غير أن ذلك يتوقف على عدم ظهور الحشرات، لأنّ ظهورها يهدد على الدوام المؤسسات الزراعية في جنوب إفريقيا.

في عشية العشرين من كانون الأول، قبل ساعة من مغيب الشمسي، نُظم المخيم. كان الإنكليز الثلاثة والبشماني قد جلسوا تحت شجرة، يستريحون من تعب النهار، ويتحدثون عن مشاريعهم المستقبلية. بدأ هواء الشمال يهب وينُعش الجو قليلاً.

كان العلماء قد اتفقوا فيما بينهم على قياس ارتفاعات النجوم خلال الليل، حتى يتمكنوا من حساب خط عرض المكان بشكل دقيق. لم تكن أيّة سحابة تغطي صفحة السماء، يكاد القمر أن يكون بدراً، بذا ستكون مجموعات النجوم مُشعة، وبالتالي تتم العمليات الدقيقة للرصد السمتي في شروط هي الأفضل على الإطلاق.

لذلك خاب أمل الكولونيل إفريست وجون موراي عندما وقف وليم إميري. نحو الساعة الثامنة مساءً مشيراً بيده نحو الشمال وقائلاً:

- ها هو الأفق يتلبد أخشى ألاّ يكون الليل ملائماً لنا كما كنا نأمل.

- فعلاً، أجاب السيد جون. ترتفع هذه الغيمة الكبيرة بشكل ملحوظ. ومع الهواء الذي يشتد، لن تتأخر في غزو السماء.

- هل هي عاصفة جديدة تتهيأ الحدوث؟ سأل الكولونيل.

- نحن في منطقة تقع بين مداري السرطان والجدي، رد وليم إميري، وهذا لا يُحمد عقُباه. أخشى أن تكون عمليات الرصد لهذه الليلة مجازفة كبيرة.

- ماذا تظن ياموكوم؟ سأل الكولونيل البشماني.

عاين موكوم الشمال بانتباه. تحددت الغيمة بخط منحن طويل جداً وواضح جداً كما لو أنّ يداً قد خطته بالمنقلة. وكان القطاع الذي تشغله فوق الأفق، يُظهر انتشاراً يمتد من ثلاثة إلى أربعة أميال. بدت الغيمة المائلة للاسوداد بمظهر غريب أذهل البشماني. أحياناً تنشر الشمس الغاربة أشعتها الحمراء على الغيمة التي كانت تعكسها بدورها كما لو أنّها كتلة صلبة وليست تراكماً للأبخرة.

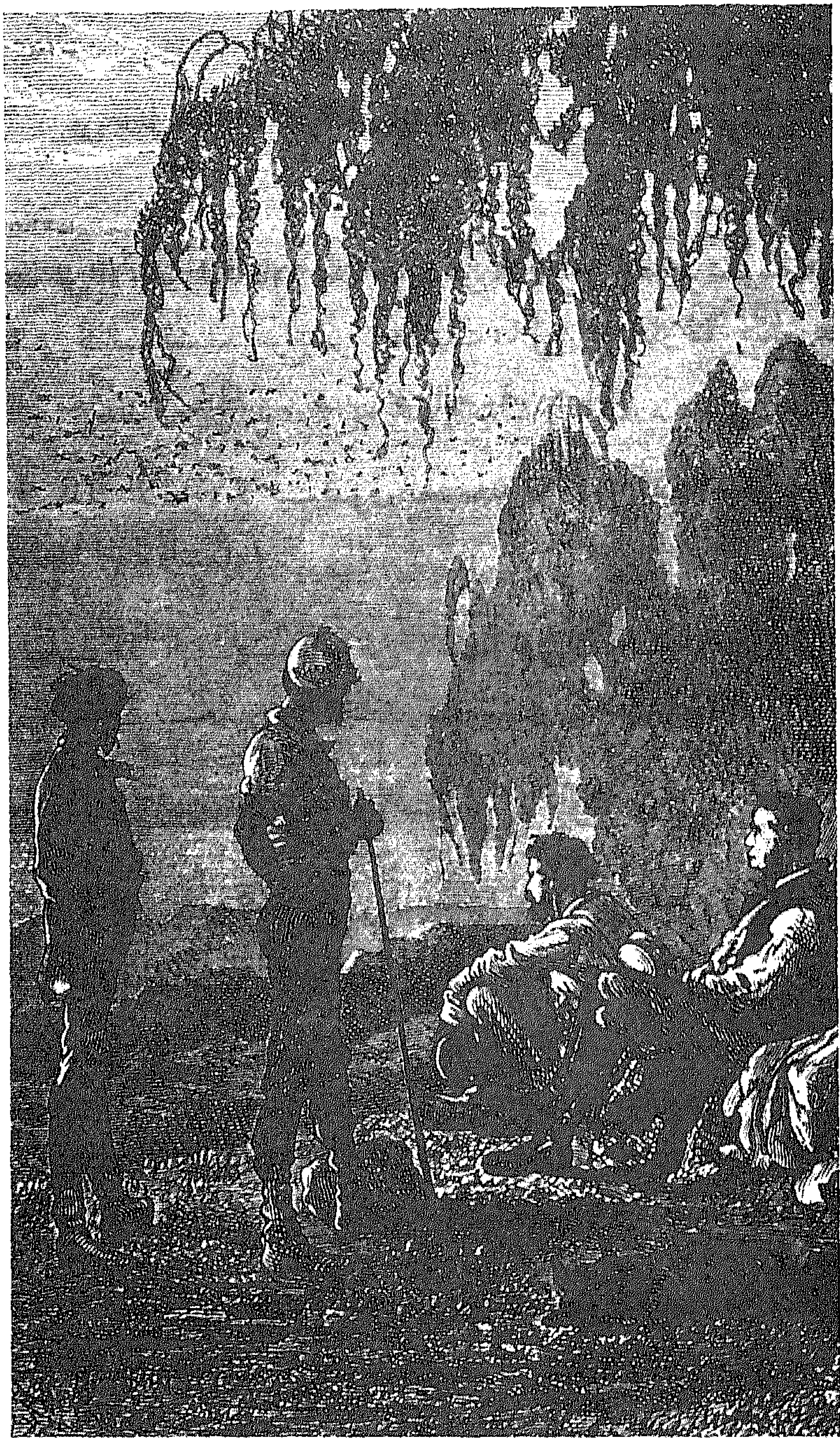
- غيمة فريدة من نوعها! قال موكوم دون أن يضيف المزيد.

بعد عدة لحظات، قَدِم واحد من البشمانيين ليُعلم الصياد أنّ الحيوانات والأحصنة والثيران وغيرها، تركض عبر المرعى، وقد بدت عليها علامات اهتياج، وترفض الدخول إلى حرم المخيم.

- حسن. دعها تمضي الليل في الخارج! أجاب موكوم.

- وماذا عن الحيوانات المتوحشة؟

- ستكون الحيوانات المتوحشة مشغولة جداً لتنتبه لها.



ابتعد الرجل. توجه الكولونيل إفريست نحو البشماني ليسأله تفسير هذه الإجابة الغريبة. غير أنّ موكوم الذي كان بعيداً لبضع خطوات، بدى غارقاً تماماً في تأمل هذه الظاهرة التي يشك حتماً في طبيعتها.

اقتربت الغيمة بسرعة. يمكن ملاحظة مدى انخفاضها، إذ لم يكن ارتفاعها عن الأرض ليتجاوز عدة مئات من الأقدام. اختلط صوت هبوب الريح التي كانت تشتد بنوع من «حفيف هائل» إذا جاز لنا جمع هاتين الكلمتين معاً. وكان الحفيف يصدر عن الغيمة نفسها.

في تلك الأثناء، لاحت فوق الغيمة فرق من نقاط سوداء على الصفحة الشاحبة للسماء.

كانت هذه النقاط تتطاير من الأسفل إلى الأعلى، تغوص وسط الكتلة المظلمة ثم تنسحب منها فجأة. وكان عددها يتجاوز الآلاف.

– هه! ما هذه النقاط السوداء؟ سأل السيد جون موراي.

– إنها طيور. رد البشماني. هذه نسور وعقبان وصقور وحِداء قادمه من البعيد. إنّها تتبع هذه الغيمة ولن تتركها إلا عندما تزول أو تتشتت.

– وما هي هذه الغيمة؟

– ليست غيمة على الإطلاق. رد موكوم وهو يشير بيده إلى الكتلة المظلمة التي بدأت تغزو ربع السماء. إنها غيّمة حية، غيمة من الجراد!

لم يكن الصياد مخطئاً أبداً. سيرى الأوربيون واحد من الغزوات الرهيبة للجراد، الكثيرة الوقوع للأسف الشديد، والتي كانت في ليلة

واحدة تحوّل بلداً الأكثر خصباً إلى صقع قاحل ومقفر. هذا الجراد الذي ينتمي إلى نوع الجنادب، ويسميه علماء الطبيعة بـ«grylli de vastatorii» كان قادماً على هذا النحو بالملايين. ألم ير بعض المسافرين شاطئاً تغطيه هذه الحشرات على ارتفاع أربعة أقدام وطول خمسين ميلاً؟

- أجل! استأنف البشماني القول. تعد هذه الغيوم كارثة مخيفة للأرياف. فَلْندعو السماء ألاّ تسبب لنا ضرراً كبيراً.

- لكننا لا نملك هنا حقولاً نبذرها أو مراع تعود لنا! فما الذي نخشاه من هذه الحشرات؟ قال الكولونيل.

- لا شيء إذا ما اكتفت بالمرور فوق رؤوسنا. أجاب البشماني. وكل شيء إذا ما حطت فوق البلد الذي يلزم علينا اجتيازه. عند ذاك لن نجد ورقة واحدة على الأشجار أو عشبة في المراعي. أنت تنسى يا سيدي الكولونيل، إذا كان غذاؤنا مؤمناً، فليس غذاء الأحصنة والثيران والدواب كذلك. ما الذي سيحدث لها وسط هذه المراعي إذا ما اكتسحها الجراد؟

لبث رفاق البشماني صامتين لثوان. إنّهم يراقبون الكتلة المتحركة التي تتنامى أمام ناظرهم. يزداد الحفيف حدة وقد طغى عليه زعقات العقبان والحيوانات المتوحشة التي بانقضاضها على الغيمة التي لا تنضب، كانت تتبلع منها الاف الحشرات.

- هل تتوقع أن تحط الغيمة هنا؟ سأل وليم إميري موكوم.

- أخشى ذلك. رد الصياد. لأنّ رياح الشمال تحملها مباشرة إلى هنا. بالإضافة لذلك، تشارف الشمس على المغيب وسوف تُثقل النسمة

البـاردة للمسـاء أجنحة الجنـادب . سـوف تسـقـط على الأشـجـار والأدغـال والمراعي وعندها ...

لم يتسن للبشماني أن يتم جملته . تمت نبوءته على الفور . خلال لحظة حطت على الأرض الغيمة الكبيرة التي كانت تتجاوز السمت . لم نعد نرى إلا كتلة مزدحمة داكنة حول المخيم وحتى حدود الأفق . حتى موقع المخيم لم ينجُ من هذا الاجتياح . المخيم والعربات وكل شيء اختفى تحت هذا البرَد الحي . كانت كتلة الجنادب ترتفع مسافة قدم عن الأرض . حتى أنّ الإنكليز وقد غرقت أرجلهم حتى منتصفها في هذه الطبقة الكثيفة من الجنادب ، كانوا يسحقونها بالمئات في كل خطوة . لكن ما أهمية ذلك أمام أعدادها الغفيرة؟

لم يكن الرجال السبب الوحيد في إبادة هذه الحشرات . كانت الطيور تنقض عليها مصدرة صيحات أجشة ثم تلتهما بشراهة . وتحت الكتلة كانت الثعابين وقد جذبتها حصتها من هذا الصيد الشهي ، تتبلع كميات كبيرة منها . كذلك كانت الأحصنة والثيران والدواب والكلاب تقتات بها بسرور لا يوصف . حتى فرائس السهل الحيوانات المتوحشة ، سواء الأسود أو الضباع أو الفيلة أو وحيدي القرون ، كانت تغمر بطونها الكبيرة بصاعات من هذه الحشرات . أخيراً البشمانيون أنفسهم ، المولعون جداً بهذا «القريدس الهوائي» تغذوا بها وكأنها مَنّ سماوي! غير أنّ أعدادها الكبيرة كانت تتحدى أسباب هذه الإبادة مجتمعة ، وحتى شرهها الخاص بها . لأنّ هذه الحشرات كانت تلتهم بعضها البعض .

تحت إلحاح البشماني لَزِم على الإنكليز تذوق هذا الغذاء الذي هبط عليهم من السماء. قاموا بغلي الاف منها، متُبّلَة بالملح والبهار والخل، بعد أن اختاروا بعناية الأكثر شباباً والتي تتميز باللون الأخضر، وليست المائلة للاصفرار، وبالتالي تكون أكثر ليونة من الحشرات البالغة التي يتجاوز طول بعض منها الأربعة بوصات. تعد هذه الجنادب الشابة، السمينة مثل قصبة الريشة، والتي يتراوح طولها من خمسة عشر إلى عشرين سطراً، والتي لم تضع بعد بيوضها، تعد في الواقع طبقاً شهياً للذاوقة - بعد نصف ساعة من الطهي، قدم البشماني للإنكليز الثلاثة طبقاً شهياً من الجنادب. لاقت هذه الحشرات وقد تم التخلص من رؤسها وأقدامها وغمدها، تماماً مثل جمبري البحر، استحساناً كبيراً. أوصى السيد جون موراي، الذي أكل المئات منها حسب تقديره، رجاله أن يتمونوا منها بأعداد كبيرة. لا يلزم لذلك سوى الإنحناء ليحصولوا عليها.

بحلول المساء، آوى كل فرد إلى سريره المعتاد. بيد أنّ العربات لم تفلت من الغزو. كان من المستحيل الدخول إليها دون هرس أعداد لا تحصى من الجراد. ولأنّ النوم في هكذا ظروف غير مقبول، ولأنّ السماء كانت صافية ومجموعات النجوم تلمع في قبة السماء، قضى العلماء الثلاثة ليلتهم في حساب ارتفاعات النجوم. ذلك أفضل بكثير بالطبع، من الغوص حتى العنق في هذا اللحاف من الجنادب. من جهة ثانية، هل كان الأوربيون سيتمكنون للحظة من النوم، بينما كان زئير الحيوانات المتوحشة المتعجلة للحصول على حصتها من الجراد يدوي في السهل وفي الغابات!

في اليوم التالي، برزت الشمس خلف الأفق الصافي، وبدأت برسم قوسها النهاري على صفحة السماء الساطعة التي تنبىء عن يوم حار. لا بدّ

أنّ أشعتها سترفع قريباً درجة الحرارة. سُمع حفيف مخنوق للأجنحة وسط كتلة الجنادب التي تتهيأ لمعاودة الطيران، ونقل خرابها إلى مكان آخر. نحو الساعة الثامنة صباحاً، بدا الأمر كأنه بسط لستارة شاسعة انتشرت في السماء حاجبة ضوى الشمس، أظلم الصقع بكامله حتى يمكن الظن أنّ الليل سيعود للهبوط. هبّ الهواء وبدأت الغيمة تحركها. ثم مرت خلال ساعتين مصحوبة بضجيج مُصِّم، فوق المخيم الغارق في الظلمة، واختفت أخيراً وراء الأفق الغربي.

عندما انتشر الضوء من جديد، تبين أن تنبوءات البشماني قد تحققت بكاملها. لم تعد أيّة ورقة على الأشجار ولا أيّة عشبة صغيرة في المراعي. دُمر كل شيء. بدت الأرض مصفرة ومتُربه. لم تعد الأغصان وقد جُردت تبدو للعين إلا كشبح مقطب الوجه. إنّه الشتاء تالياً الصيف في سرعة أشبه بطرفة عين! هاهي الصحراء لم يعد أبداً ذلك البلد الخصيب.

يمكن أن نطبق على هذه الجنادب الملتهمة المثل الشرقي الذي يُبرر أيضاً غريزة السرقة عند العثماني: لا ينبت العشب حيث يمر التركي! لا ينبت العشب حيث تحط الجنادب!

* * *

الصحراء

إنّها بالفعل الصحراء التي تنبسط الآن أمام أقدام المسافرين. لم يجد الكولونيل إفريست ورفاقه في الخامس والعشرين من كانون الأول، عند وصولهم إلى الحدود الشمالية من الكارّو، وذلك بعد الإنتهاء من المثلث الثامن والأربعين وقياس درجة جديدة من قوس الهاجرة، أيّ فرق يذكر بين المنطقة التي كانوا يغادرونها للتو والبلد الجديد القاحل والمتيبس الذي أوشكو على اجتيازه.

كانت الحيوانات التي تخدم القافلة تعاني الكثير من قحط المراعي، حتى الماء لم يكن كافياً أيضاً. جفت القطرات الأخيرة للمطر في المستنقعات، وأضحت التربة ممزوجة بالرمل والطين الضار جداً بالنباتات. كانت مياه الأمطار، وقد تسربّت عبر الطبقات الرملية، تختفي على الفور في هذه التربة التي تغطت من جديد بعدد لا يحصى من الأحجار الرملية، والتي لا يمكن لها الاحتفاظ بأيّة ذرة سائلة.

إنها حقيقة، واحدة من المناطق القاحلة التي اجتازها الدكتور ليڤنغستون أكثر من مرة، خلال مغامراته الإستكشافية. ليست الأرض وحدها تعاني من الجفاف، الجو أيضاً كان جافاً جداً لدرجة إذا وضعت في الهواء الطلق، أشياء يدخل الحديد في تركيبها، فإنّها لا تصدأ إطلاقاً. حسب سرد الدكتور، العالِم، تكون أوراق الأشجار متغضنة ورخوة، وتلبث أوراق الميموزا منطوية على نفسها في وضح النهار، تماماً كما هو الحال عليه أثناء الليل. مافتئت الخنافس التي وضعت على سطح التربة

تموت خلال عدة ثوان. أخيراً، أشار عمود الزئبق عند الظهيرة، بعد غرز ميزان الحرارة لثلاثة بوصات في التربة إلى ستة وخمسين درجة مئوية.

هكذا بدت بعض مناطق جنوب افريقيا للمسافر المشهور، وهكذا بدا ذلك الجزء من القارة، الواقع بين حدود الكارّو وبحيرة نغامي، لعلماء الفلك الإنكليز. كان تعبهم كبيراً لا مثيل له ومعاناتهم أكبر لا مثيل لها، خاصة بسبب نقص المياه. هذا الحرمان كان يؤثر سلباً بشكل ظاهر على الحيوانات الداجنة التي كانت عشبة نادرة الوجود، جافة ومُغبرة تغذيها بالكاد. بالإضافة لذلك، تعد هذه الأراضي الواسعة بيداء. ليس فقط بجد بها وحسب، بل لأنّ أيّ كائن حي لا يجازف بالمرور فيها. هربت العصافير إلى ماوراء الزامبيز، حيث الأشجار والأزهار ولم تعد الحيوانات المتوحشة تخاطر بنفسها في هذا السهل الذي لا يوفر لها أيّ قوت. بالكاد لمح صيادو القافلة اثنين أو ثلاثة من الظباء التي تستطيع البقاء بلا ماء لعدة أسابيع. إنّها من بين أخرى، ظباء من نوع الأوريكس، شبيهة بتلك التي سببت خيبة أمل قوية للسيد جون موراي، وأكثر تحديداً، الكاماس بعيونها الوديعة وجلدها الرمادي الأغبر الممزوج ببقع حمراء بلون المُغرة. إنّها حيوانات أليفة تقدر جداً لنوع لحمها وتفضل على ما يبدو السهول المجدبة على مراعي المناطق الخصيبة.

أثناء ذلك بدا الإنهاك جليّاً على علماء الفلك، بسيرهم تحت هذه الشمس الحارقة، عبر هذا الجو الذي انتفت فيه الرطوبة بشكل كامل. يواصلون العمليات الجيودوزية لليال ونهارات، دون أن تُلطف نسمة واحدة حرارة الطقس. كان مخزون المياه وقد حُفظ في براميل تتقد بفعل الحرارة ينقص تدريجياً. لذا توجب عليهم سلفاً أن يقننوا فيها، وبالتالي

عـانوا كـثـيـراً من هـذا التـقـنين. مع ذلك، كـان حـمـاسـهـم لا مـثـيل له، وشجاعتهم لا مثيل لها، لدرجة كانوا يقهرون فيها تعبهم وحرمانهم ولا يهملون أيّ تفصيل في عملهم الكبير والدقيق.

في الخامس والعشرين من كانون الثاني، تم حساب الجزء السابع من قوس الهاجرة والمتضمن لدرجة جديدة، بوساطة تسعة مثلثات جديدة. بذلك يكون المجـمـوع الكلي للـمـثـلاث المُنشـأة حتى ذلك الوقت سـبـعـة وخمسين مثلثاً.

لم يبق على العلماء سوى اجتياز القسم الأخير من الصحراء. برأي البشماني، عليهم بلوغ ضفاف بحيرة نغامي قبل الأيام الأخيرة لشهر كانون الثاني. يمكن للكولونيل ورفاقه أن يتكفلوا بأنفسهم ويصمدوا حتى ذلك الحين.

غير أنّ رجال القافلة، البشـمـانيين الذين لا تدفعهم تلك الحماسة، رجال أجراء لا يخلطون مصلحتهم بالمصلحة العلمية للبعثة. سكان غير مؤهلين تماماً لمتابعة السير قدماً نحو الأمام. أولئك كانوا يعانون جداً من نوائب الطريق. إنهم يبدون حساسية كبيرة إزاء عوز الماء. وتوجب عليهم سلفاً أن يتركوا وراءهم بعض الحيوانات الدّابة، بعد أن أنهكها الجوع والعطش. وكان ما يخشى عقباه أن يأخذ عددها بالتزايد يوماً بعد يوم. تفاقمت الهمسات والاحتجاجات مع المشقات. أضحى دور موكوم صعباً للغاية، كما بدأ تأثيره عليهم بالتراجع.

من البديهي أن نقص المياه سيكون بعد فترة وجيزة، عائقاً عصياً عن الحل، يتوجب من بعده وقف السير نحو الشمال، والمضي إما إلى الخلف

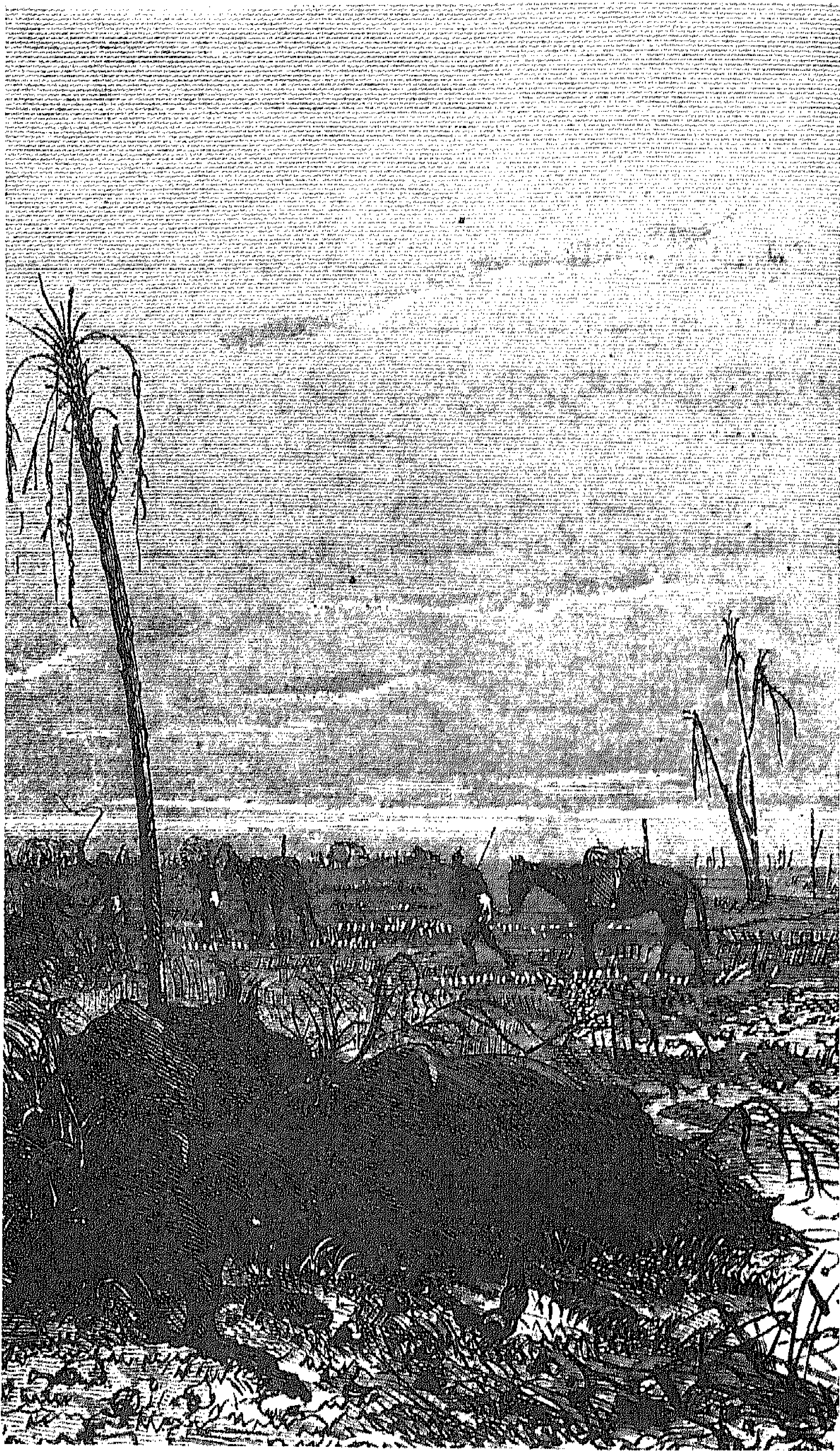
أو إلى يمين خط الهاجرة، رغم مجازفتهم بالتقاء البعثة الروسية، كي يبلغوا القرى المتوزعة في المنطقة الأقل جفافاً على طريق ديڤيد ليڤنغستون.

في الخامس عشر من الشهر نفسه، أعلم البشماني الكولونيل إفريست الصعوبات المتنامية التي يبذل جهده عبثاً لتذليلها. أخذ سائقو العربات يعصون أوامره. ففي كل صباح، عند رفع المخيم، تتكرر مشاهد التمرد التي يشارك فيها غالبية الأفراد. أولئك التعساء، نقر بذلك، يثيرون الشفقة عند رؤيتهم، بسبب الحرارة التي أنهكتهم والعطش الذي أضنناهم. من جهة أخرى، لم تعد الخيول والثيران، وقد تحدد غذاؤها بعشبة قصيرة جافة، ومُنع عنها الماء وترضى السير إطلاقاً.

كان الكولونيل أفريست يعلم حقيقة الأمر تماماً، غير أنّه قاسياً على نفسه، كان كذلك على غيره، لم يرغب بأيّة طريقة وقف العمليات المتعلقة بشبكة المثلثات. وأعلن أنّه حتى ولو بقي وحيداً، فإنه سيتابع التقدم نحو الأمام. فضلاً عن ذلك، تحدث زملاؤه بالطريقة ذاتها. هما جاهزان للحاق به مهما كان بعيداً المكان الذي يرغب الذهاب إليه.

وبجهود جديدة من البشماني، استطاع إقناع الرجال على متابعة السير لبعض الوقت أيضاً.

حسب تقديراته، لم تعد القافلة تبعد سيراً عن البحيرة بأكثر من خمسة أو ستة أيام. هناك ستجد الخيول والثيران مراع نضرة وغابات ظليلة هناك سيجد الرجال بحراً من المياه العذبة ينتعشون فيه. أعلن موكوم هذه الاعتبارات لأهم رجال البشمان. لقد برهن لهم أنّ أقصر طريق للتزويد بالمؤن، هو الاتجاه نحو الشمال. بالفعل إنّ المضي نحو الغرب يعتبر سيراً



نحو المجهول، والرجوع إلى الخلف يعني ملاقاة الكارّو الموحش والذي لا بدّ قد جفت مجاري مياهه كلها. استسلم الرجال في نهاية الأمر لعديد من الأسباب والتوسلات، وعاودت القافلة وهي تبذل قصارى جهدها مسيرتها باتجاه نغامي.

لحسن الحظ تمت بسهولة العمليات الجيودوزية في هذا السهل الواسع جداً، بوساطة الأعمدة والأبراج. ولكسب الوقت اشتغل علماء الفلك ليل نهار. إنّهم يحصلون بفضل ضوء المصابيح الكهربائية على زوايا واضحة تماماً توفر الدقة لأكثر الحسابات تشككاً.

بذلك تستمر الأعمال في توافق ونظام وتكبر شبكة المثلثات شيئاً فشيئاً.

في السادس عشر من كانون الثاني، اعتقدت القافلة لوهلة أنّ ذلك الماء الذي كانت الطبيعة تظهره شحيحاً للغاية، سيتوفر لها أخيراً بغزارة.

لاحت في الأفق بحيرة يتراوح عرضها من ميل إلى ميلين. نفهم تماماً كيف استقبل هذا الخبر مضت القافلة برمتها على عجل في الإتجاه المطلوب، نحو امتداد واسع للمياه كان يتلألأ تحت أشعة الشمس بُلغت البحيرة نحو الساعة الخامسة مساء. انطلقت تعدو بعض الأحصنة وقد كسرت مجراتها وفلتت من يد سائقيها، نحو تلك المياه التي طالما رغبت فيها. تنشقتها ومصتها ثم رأوها وهي تغطس فيها حتى صدروها.

لكنّ هذه الحيوانات عادت فجأة إلى الضفة دون أن تستطيع إرواء ظمئها في هذه المياه الواسعة. وبوصول البشمانيين وجدوا أنفسهم أمام مياه

مُشْبَّعة جداً بالملح لدرجة لا يستطيعون فيها أن يشربوا منها.

كانت خيبة الأمل ويمكن أن نقول اليأس كبيراً. لا شيء أفظع من أمل ضائع! اعتقد موكوم أنّه كان لزام عليه أن يرفض إجبار الرجال على السير إلى ما وراء البحيرة المالحة. لحسن حظ البعثة، أضحت القافلة أقرب أكثر من بحيرة نغامي وروافد الزامبيز، من أيّة بقعة أخرى من هذه المنطقة يمكن التزود منها بالمياه الجارية. لذا تعتمد سلامة الجميع على السير قدماً نحو الأمام. تستطيع القافلة أن تبلغ خلال أربعة أيام بحيرة نغامي إذا لم تؤخرها الأعمال الجيودوزية.

انطلقت القافلة مجدداً. استطاع الكولونيل مستفيداً من وضع الأرض أن ينشيء مثلثات بأبعاد كبيرة، تستلزم إعداد علامات إرشاد أقل من المعتاد. ولأنّ العمل كان يتم بشكل خاص في ليال صافية جداً، كانت علامات النار تُرى على نحو رائع، ويمكن أن تُرفع بدقة لا متناهية، إما بالمزولة أو بالدائرة المكررة، بدقة لا تضاهى. بذلك يوفرون الجهد والوقت في آن معاً. لكننا نُقر من أجل هؤلاء العلماء الشجعان الذين يتقدون بحماس علمي، وهؤلاء الرجال الذي يضنيهم ظمأ شديد، تحت وطأة هذا الطقس الفظيع، كما من أجل الحيوانات المستخدمة في القافلة، يجب الوصول إلى نغامي. لا أحد يستطيع تحمل خمسة عشر يوماً أُخر من السير في ظروف مشابهة.

في الواحد والعشرين من كانون الثاني، بدأت الأرض المسطحة والمتشابهة بالتبدل على نحو ظاهر. أضحت خشنة ووعرة. نحو الساعة العاشرة صباحاً، شوهد في الشمال الغربي، جبل صغير يرتفع من

خمسمئة إلى ستمئة قدم ويبعد خمسة عشر ميلاً تقريباً. إنّه جبل سكورزيف.

فحص البشماني بانتباه الجهات وبعد تدقيق طويل نسبياً، مدّ يده نحو الشمال قائلاً:

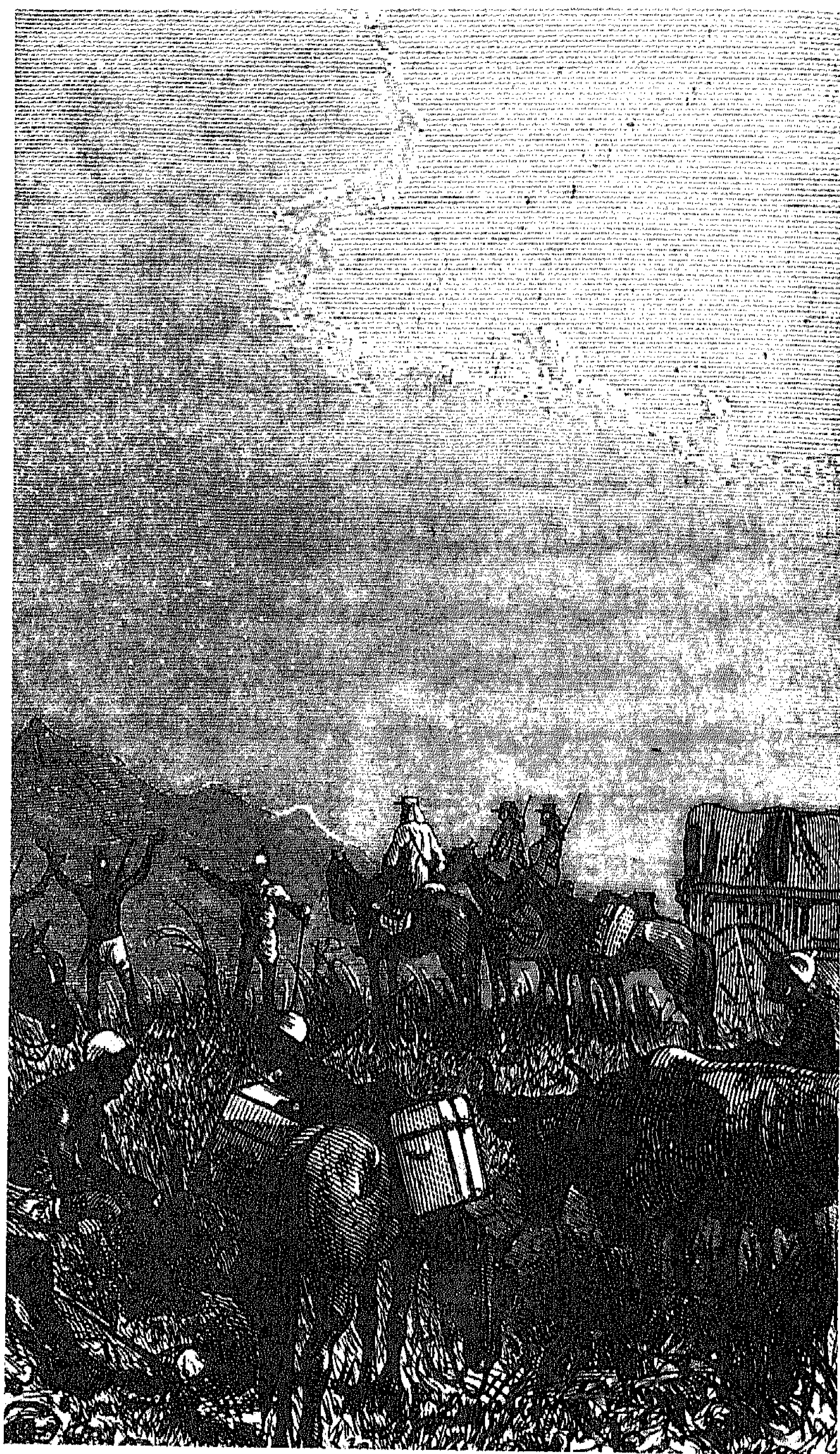
- هناك تقع بحيرة نغامي.

- نغامي! نغامي! صاح الرجال ترافق صيحاتهم انفعالات صاخبة.

أراد البشمانيون المضي نحو الأمام واجتياز الخمسة عشر ميلاً التي تفصلهم عن البحيرة جرياً. غير أنّ الصياد استطاع منعهم، منبهاً إياهم إلى الأهمية الكبرى بالنسبة لهم ألاّ يتفرقوا في هذا البلد الذي تغير عليه أفراد الموكولولو.

أثناء ذلك، قرر الكولونيل إفريست راغباً في الإسراع بالوصول بقافلته الصغيرة نحو نغامي، أن يضم مباشرة المحطة التي يعمل بها مع جبل سكورزيف بمثلث واحد. يمكن لهم مباشرة أن يسددوا بدقة شديدة على قمة الجبل التي تنتهي برأس حاد جداً، فتكون على هذا النحو محطة جيدة للرصد. لذا لا طائل من انتظار الليل، وبالنتيجة لا فائدة من ارسال عدد من البحارة والرجال أمامهم لتثبيت مصباح على قمة سكورزيف.

رُكبت الأدوات إذن وقيست من جديد في هذه المحطة ذاتها لمزيد من الدقة، الزاوية التي تشكل قمة المثلث الأخير والتي حصلوا عليها من الجنوب.



لم يُجهز موكوم وقد فرغ صبره للوصول إلى شواطىء نغامي سوى مخيماً مؤقتاً. كان يأمل جداً الوصول إلى البحيرة الموعودة قبل الليل. غير أنّه لم يهمل أياًّ من التزاماته المعتادة. أخذ يجوب الأنحاء مع عدد من الفرسان. ثمة حُرجات ترتفع إلى اليسار وإلى اليمين من اللازم إنارتها. ومع أنّه لم يلحظ منذ صيد الأوريكس أي أثر للموكولولو، على ما يبدو أنّ فكرة التجسس على القافلة قد تم الإستنغاء عنها، رغب موكوم الحِذر في الإحتراس لتدارك أيّ خطر محتمل.

بينما كان الصياد يحرس القافلة على هذا النحو، كان علماء الفلك منشغلين بإنشاء مثلثهم الجديد. حسب الارتفاعات التي قام بها وليم إميري، سيقودهم هذا المثلث قريباً من خط العرض العشرين، حيث تجب أن تتوقف النقطة النهائية للقوس الذي جاؤوا لقياسه في هذا الجزء من إفريقيا. وأيضاً بعض العمليات الأخرى وراء البحيرة ويحصلون حتماً على الجزء الثامن من خط الهاجرة. ثم يتحققون من الحسابات بوساطة قاعدة جديدة، يتم قياسها على الأرض مباشرة. عند ذلك ينتهي هذا الإنجاز الكبير. لذلك نفهم تماماً النشاط الذي يدعم أولئك المقدامين الذين يرون أنفسهم قاب قوسين أو أدنى من إنهاء عملهم.

خلال هذا الوقت، كيف نفذ الروس من جهتهم عملياتهم؟ منذ ستة أشهر مضت على انفصال أعضاء اللجنة العالمية، أين يمكن أن يكونوا في هذه اللحظة كلاً من ميشيل زورن وماثيوستروكس ونيكولا بالاندر؟

هل أخذ التعب منهم كل مأخذ كما جرى مع زملائهم الإنكليز؟ هل عانوا من عوز المياه والحرارة الخانقة لهذه الأجواء؟ هل كانت المناطق على

دربهم القريب بشكل ظاهر من طريق الدكتور دايفيد ليفنغستون أقل جفافاً؟ ربما، ثمة قرى وضيع مثل شوكوانه Schokuané وشوشونغ Schos-chong وغيرها لا تبعد كثيراً عن يمين خط الهاجرة، يمكن للقافلة الروسية أن تتموّن منها. لكن ألا يمكن أن نخشى في هذه المناطق الأقل قفراً، وبالتالي يجوبها اللصوص بلا توقف، أن تكون قافلة ماثيوستروكس الصغيرة قد تعرضت للخطر مراراً؟ ألا نستخلص من توقف أفراد الموكولولو عن ملاحقة البعثة الإنكليزية، أنّهم يتتبعون آثار البعثة الروسية؟

لم يكن الكولونيل المنهمك دوماً بأعماله ليرغب التفكير في هذه الأشياء. إلاّ أنّ السيد جون موراي ووليم إميري كانا يتحاوران مراراً حول مصير زملائهم القدماء. هل ستسنح الفرصة لهم برؤيتهم؟ هل سينجح الروس في مهمتهم؟ هل ستكون النتيجة الرياضية نفسها، أي قيمة درجة الطول في هذا الجزء من إفريقيا، متماثلة لهاتين الحملتين اللتين تابعتا بآن واحد، وإنما متفرقتين، إعداد شبكة المثلثات؟ هكذا كان وليم إميري يفكر برفيقه وقد أحزنه جداً غيابه، ويعلم حق العلم أن ميشيل زورن لن ينساه أبداً.

أثناء ذلك، كان قياس المسافات الزاويّة قد بدأ. للحصول على الزاوية التي تستند إلى المحطة بلزم التسديد على علامتين تشكل واحدة منهما القمة المخروطية لجبل سكورزيف.

بالنسبة للعلامة الثانية، إلى يسار خط الهاجرة، تم اختيار، تلة مدببة لا تبعد أكثر من أربعة أميال، حُدد اتجاهها بواحدة من عدسات الدائرة المكررة.

كما قلنا سابقاً، يبعد سكورزيف بعداً شاسعاً نسبياً. غير أنّ علماء الفلك لم يكونوا يملكون الخيار فهذا الجبل المنعزل هو النقطة الوحيدة المرتفعة في المنطقة. بالفعل لا يُلاحظ أيّ ارتفاع أخر، لا في الشمال ولا في الغرب، ولا حتى وراء بحيرة نغامي التي لم يلمحوها بعد. والحال هذه. سيُجبر هذا البعد للجبل المراقبين على المضي مسافة كبيرة إلى يمين خط الهاجرة. بعد تفكير عميق، توصلوا إلى طريقة عمل أخرى. سُدد على الجبل المنعزل بعناية شديدة عن طريق العدسة الثانية للدائرة المكررة. والبعد بين العدستين سيعطي المسافة الزاويّة التي تفصل سكورزيف عن التلة، وبالنتيجة، قياس الزاوية المتشكلة في المحطة نفسها. وكي يتوصل الكولونيل إلى حساب دقيق أكثر، قام بإعادة المحاولة عشرين مرة متتالية، مُبدلاً موقع العدسات على الدائرة المتدرجة. بهذه الطريقة قسم إلى عشرين الأخطاء المحتملة لقراءته، وحصل على قياس زاويّ نسبة الخطأ فيه تصل إلى الصفر.

نفذ الكولونيل البارد الأعصاب، عمليات الرصد المتعددة تلك، رغم نفاذ صبر الرجال، بالاهتمام نفسه الذي كان سيبذله لنفس العمليات في مرصد كامبريدج.

على هذا النحو مرّ نهار، الواحد والعشرون من كانون الثاني. فقط نحو الساعة الخامسة والنصف عند هبوط الليل أوقف الكولونيل عمليات الرصد بعد أن أضحت قراءة القوس المرقمة غير واضحة.

- أنا تحت أمرك ياموكوم. قال عند ذاك للبشماني.

- أضحى الوقت متأخراً ياكولونيل. رد موكوم. وأنا أسف لأنك لم تستطع إنهاء عملك قبل الليل. كنا سنحاول نقل المخيم إلى ضفاف البحيرة!

- وما الذي يمنعنا من الرحيل؟ لن تستطيع خمسة عشر ميلاً أن تمنعنا من السير حتى في الظلام الدامس. الطريق مستقيمة تتبع السهل ذاته. ولن نخشى أن نتوه فيه. سأله الكولونيل.

- أجل! ... في الواقع ... رد البشماني الذي بدا يشاور نفسه. ربما يمكننا المجازفة رغم أنني أفضل السير في وضح النهار، في هذه الأراضي التي تجاور نغامي! لا يطلب رجالنا سوى التوجه قدماً إلى الأمام والوصول إلى المياه العذبة للبحيرة. حسناً سنرحل ياكولونيل.

- متى شئت يا موكوم. رد الكولونيل.

وبالإجماع على هذا الرأي، سُرجت الثيران إلى العربات وامتطى الفرسان أحصنتهم، ووضُعت من جديد العدد في العربات. عند الساعة السابعة مساء، سارت القافلة يحفزها الظمأ، رأساً إلى بحيرة نغامي بعد أن أعطى موكوم إشارة الرحيل.

بفضل غريزة الكشاف لديه توسل البشماني الأوربيين الثلاثة أن يحملوا أسلحتهم ويتمونوا بالذخائر. حتى هو كان يحمل البندقية التي أهداه إياها السيد جون، ولم تكن الطلقات لتنقص في حوزته.

تم الرحيل في ليل مدلهم. كانت ستارة كثيفة من الغيوم تحجب مجموعات النجوم. مع ذلك كان الجو في الطبقة الأقرب إلى الأرض

صافياً بلا ضباب. كان موكوم بفضل مهارته الكبيرة في الإبصار يراقب جنبات القافلة ومقدمتها. أثبتت بضع كلمات نقلها للإنكليزي المحترم، أن البشماني لا يعتبر المنطقة أمنة تماماً. لذلك تهيأ السيد جون من جهته لأي طارىء.

سارت القافلة خلال ثلاث ساعات في اتجاه الشمال، غير أنّها كانت تنوء تحت وطأة التعب والإنهاك. لذلك كان تقدمها بطيئاً. كان عليهم التوقف مراراً ليلحق بهم المتأخرون. إنّهم يتقدمون بمعدل ثلاثة أميال في الساعة على الأكثر. نحو الساعة العاشرة ليلاً، كانت ستة أميال تقريباً تفصل القافلة الصغيرة عن ضفاف نغامي. ما فتئت الدواب تلهث ويمكنها بالكاد التنفس في هذا الليل الخانق، وسط هذا الجو الجاف، حتى أنّ مقياس الرطوبة الجوية الأكثر دقة لا يمكن له أن يشير إلى أي أثرٍ للرطوبة.

بعد فترة، لم تعد القافلة تسير بوحدة متجانسة رغم توصيات البشماني الحازمة. إنما يسير الرجال والحيوانات في رتل طويل. سقط عدد من الثيران وقد خارت قواها على الطريق. وجرّ بالكاد بعض الفرسان أنفسهم بعد أن سقطوا عن صهوة أحصنتهم. ويمكن لأقل عدد من الموكولولو أن يسلبهم حمولتهم بسهولة فائقة. لذا لم يكن موكوم القَلِق ليوفر حركاته أو كلماته. إنه يذهب من واحد إلى آخر، محاولاً إعادة بناء قافلته. لكنه لم يتوصل إلى ذلك. حتى فقد سلفاً عدداً لا بأس به من رجاله دون أن يلاحظ ذلك.

عند الساعة الحادية عشرة ليلاً، أضحت العربات التي تسير في المقدمة على بعد ثلاثة أميال من سكورزيف. رغم الظلمة، بدا ذلك الجبل

المنفرد بوضوح، وقد انتصب في العتمة مثل مثلث ضخم. كان الليل يضاعف ارتفاع أبعاده الفعلية.

إذا لم يكن موكوم مخطئاً، تكون بحيرة نغامي حتماً خلف سكورزيف. لذلك يتوجب الدوران حول الجبل بطريقة يبلغون فيها بأقصر طريق الإمتداد الواسع للمياه العذبة.

ترأس البشماني رأس القافلة بصحبة الأوربيين الثلاثة. وهمّ أن يستديرنحو الشمال، عندما أوقفهم فجأة دويّ طلقات واضح جداً رغم بُعده عنهم.

على الفور كبح الإنكليز مطياتهم. كانوا يسترقون السمع بقلق بالغ يسهل فهمه. ففي بلد لا يستعمل فيه سكانه المحليون سوى الرماح والأسهم، تسبب طلقات الأسلحة النارية مفاجأة لهم ممزوجة بالقلق.

- ما هذا؟ سأل الكولونيل.

- طلقات نارية! رد السيد جون.

- طلقات نارية! صاح الكولونيل، وفي أيّ اتجاه؟

توجه هذا السؤال للبشماني الذي أجاب قائلاً:

- تنطلق هذه العيارات الناريه من قمة سكورزيف. انظر إلى العتمة التي تنجلي فوق قمته. يدور القتال هناك. مجموعة من الموكولولو تهاجم بلا ريب فريقاً أوروبياً.

- أوربيون! قال وليم إميري.

- أجل يا سيد وليم. رد موكوم. هذا الدويّ الصاخب لا يصدر ألاّ عن أسلحة أوروبية. وأضيف أنّها أسلحة من نوع غال.

- هؤلاء الأوربيون، هل هم إذن ... ؟

غير أن الكولونيل قاطعه صائحاً:

- أيّها السادة، أيّاً كان أولئك الأوروبيون، يلزم الذهاب لنجدتهم.

- أجل! لنذهب، لنذهب. رد وليم إميري الذي انقبض قلبه من الألم.

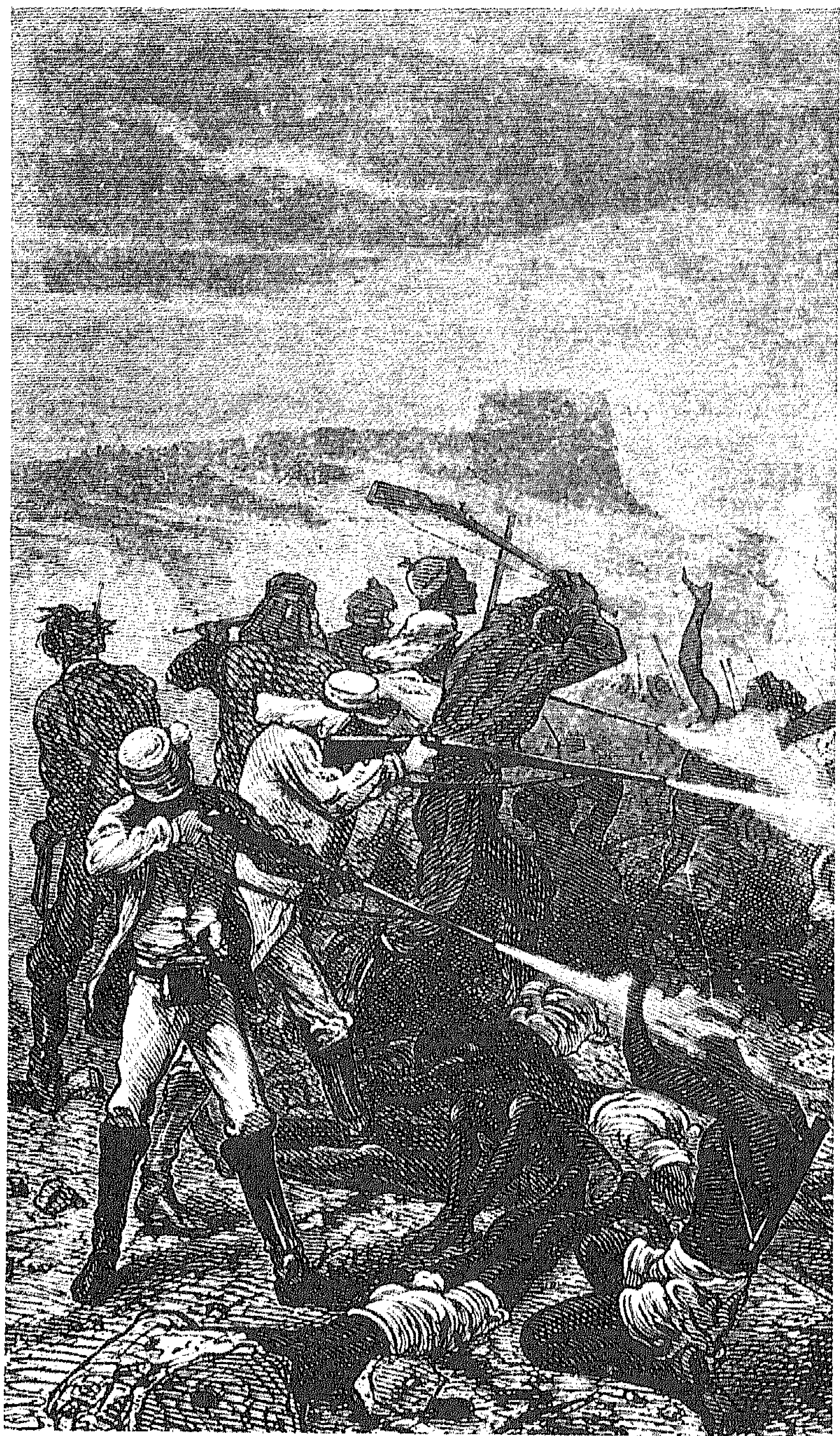
رغب البشماني قبل التوجه نحو الجبل، أن يلملم قافلته الصغيرة للمرة الأخيرة، خوفاً من أن تستطيع مجموعة من اللصوص تطويقها بغتة. غير أنّه عندما رجع إلى الوراء، كانت القافلة متشتتة والأحصنة محلولة والعربات مهجورة. ثمة ظلال هائمة فوق السهل تتلاشى سلفاً وهي تسير نحو الجنوب.

- الجبناء! صاح موكوم. الظمأ والمشقات ... ينسون كل شيء في سبيل الهرب! ...

ثم اتجه نحو الإنكليز وبحارتهم الشجعان قائلاً:

- لنذهب نحن إلى الأمام!

همز الأوربيون والصياد في الحال أحصنتهم باتجاه الشمال، محاولين انتزاع ما بقي لديها من قوة وسرعة.



بعد عشرين دقيقة، سُمعت بوضوح صيحات الحرب التي يطلقها الموكولولو. كم كان عددهم يا ترى، لا أحد يستطيع بعد تقدير ذلك. يهاجم حتماً قطاع الطرق هؤلاء جبل سكورزيف الذي تتوجت قمته بالنيران. لقد لمحوا جماعات من الرجال واقفين عند جنباته.

في الحال أضحى الكولونيل إفريست ورفاقه وراء الفِرقة المحاصِرة. تركوا جانباً مطياتهم المنهكة وصاحوا صيحة هوراه عظيمة وصل صداها بلا شك إلى المحاصرين، مطلقين عياراتهم الأولى على مجموعة الأفراد.

عندما سمع الموكولولو دويّ الطلقات الذي تغذيه الأسلحة ذات الرمي السريع، ظنوا أن فرقة عديدة الرجال قد هاجمتهم. لقد باغتهم هذا الهجوم المفاجىء حتىّ أنّهم تراجعوا قبل أن يستعملوا رماحهم وسهامهم.

دون إضاعة لحظة واحدة، انسل الكولونيل السيد جون ووليم إميري والبشماني والبحارة وسط مجموعة اللصوص، وهم يلقمون ويطلقون العيارات دون توقف. هكذا ارتمت أرضاً خمسة عشر جثة.

انفصل الموكولولو عن بعضهم. أسرع الأوربيون إلى الفرجة وأسقطوا أرضاً الرجال الأكثر قرباً وهم يرتدون إلى الوراء لارتقاء منحدرات الجبل.

خلال عشر دقائق، تمكنوا من بلوغ القمة الغارقة في الظلمة، لأنّ المحاصَرين كانوا قد أوقفوا إطلاق عياراتهم خشية أن يصيبوا أولئك القادمين بإجماع لنجدتهم.

كان هؤلاء المحاصرون، الروس أنفسهم. جميعهم كانوا هناك ماثيوستروكس ونيكولا بالاندر وميشيل زورن وبحارتهم الخمسة. غير أنه لم يبق من الرجال الذين كانوا يشكلون في السابق قافلتهم سوى الفوريلوبه المخلص، لقد تركهم أولئك البشمانيون التعساء، هم أيضاً، عند ساعة الخطر.

اندفع ماثيوستروكس في اللحظة التي لاح فيها الكولونيل إفريست من أعلى الجدار الصغير الذي يحوط قمة سكورزيف.

- أهذا أنتم أيّها السادة الإنكليز! صاح عالِم مرصد بولكوفا.

- نحن أنفسنا، أيّها السادة الروس. رد الكولونيل بلهجة رصينة. لكن هنا، لا وجود للروس أو للإنكليز! لا يوجد إلا أوربيون يتحدون للدفاع عن أنفسهم!

* * *

الموت أو التثليث

استقبلت كلمات الكولونيل إفريست بصيحة إعجاب. لم يكن أمام الروس والإنكليز، بمواجهة أولئك الموكولولو، وأمام خطر مشترك، سوى الإتحاد ليدافعوا عن أنفسهم متناسين معركتهم الدولية. كان الوضع يفرض نفسه، وفي الحقيقة، وجدت اللجنة الإنكليزية - الروسية أنّها قد تشكلت من جديد في وجه العدو، أكثر قوة وتماسكاً مما كانت عليه في السابق. تعانق وليم إميري وميشيل زورن. برهن الأوروبيون الأخرون عن اتحادهم بالمصافحة باليد.

كان همّ الإنكليز الأول هو إرواء ظمأهم. لم يكن الماء وهو يُغرف من البحيرة لينقص في معسكر الروس. ثم تبادل الأوروبيون الحديث عن كل ما جرى معهم منذ انفصالهم في كولوينغ، وقد احتموا تحت معقل يُشكل جزءاً من قلعة صغيرة مهجورة تشغل قمة سكورزيف. أثناء ذلك راقب البحارة الموكولولو الذين وفروا لهم وقتاً للاستراحة.

في البداية، لماذا كان الروس يتواجدون فوق قمة هذا الجبل بعيداً جداً إلى يسار خط هاجرتهم؟ للسبب نفسه الذي دفع بالإنكليز إلى يمين خط هاجرتهم، كان سكورزيف الواقع تقريباً وسط الطريق بين خطي الهاجرتين، المرتفع الوحيد في هذه المنطقة الذي يمكن أن يصلح لإعداد محطة على ضفاف نغامي. لذلك كان من الطبيعي جداً أن تلتقي البعثتان المتنافستان، وقد التزمتا العمل في هذا السهل، على الجبل الوحيد الذي

يصلح لعمليات الرصد. في الواقع، يفضي خطا الهاجرة الإنكليزي والروسي إلى البحيرة بنقطتين بعيدتين جداً الواحدة عن الأخرى. من هنا كان يتحتم على العلماء أن يضموا بشكل جيودوزي الضفة الجنوبية لنغامي إلى الضفة الشمالية.

بعد ذلك، قدم ماثيوستروكس بعض التفصيلات عن العمليات التي قاموا بها - تمت عمليات المسح ابتداء من كولوبنغ دون حوادث تذكر. يجتاز خط الهاجرة الذي قدمه القدر للروس بلداً خصيباً قليلاً الوعورة، ويقدم كل التسهيلات لإعداد شبكة المثلثات. عانى العلماء الروس مثل الإنكليز، من الحر القائظ لهذا المناخ وليس من نقص المياه. إذ كانت غزارتها في المنطقة توفر رطوبة ملائمة. لذا تنزهت الأحصنة والثيران، إذا جاز المعنى، وسط مراع فسيحة وبرار خضراء، تقطعها هنا وهناك غابات وأدغال. بالنسبة للحيوانات المتوحشة، بقيت على مسافة من المخيمات بفضل النار المشتعلة الليل بطوله. أما السكان المحليون، فكانوا من القبائل الحضرية للضيع والقرى التي كان الدكتور ليفنيغستون يجد فيها بشكل دائم تقريباً حسن الضيافة. لذا لم يكن ثمة سبب خلال الرحلة يدفع البشمانيين للتذمر. في العشرين من شباط وصل الروس إلى سكورزيف ومضى عليهم ستة وثلاثين ساعة، عندما ظهر أفراد الموكولولو في السهل بعدد يتراوح بين الثلاثمئة والأربعمئة فرد. في الحال تخلى البشمانيون مذعورين عن أماكنهم تاركين الروس يواجهون الأمر بأنفسهم. بدأ الموكولولو عملهم بنهب العربات المجموعة عند سفح الجبل. من حسن الحظ، كانت الأدوات قد نقلت منذ البداية إلى القلعة الصغيرة، كذلك كان القارب البخاري سليماً حتى هذا الوقت، لأنّ الروس وجدوا الوقت لبنائه قبل وصول

اللصوص. إنّه الآن يرسو في جوين صغير على بحيرة نغامي. من تلك الجهة، كانت منحدرات الجبل تتعامد مع الضفة اليمنى للبحيرة، مما يجعلها عصية عن البلوغ. لكن من الجنوب، يوفر سكورزيف منحدرات يمكن عبورها، وفي ذلك الهجوم الذي حاول أفراد الموكولولو القيام به، لربّما كانوا سينجحون في بلوغ القمة لولا وصول الإنكليز في الوقت المناسب.

هذا بإيجاز السرد الذي قام به ماثيوستروكس، بدوره قام الكولونيل بإعلامه عن الحوادث التي طرأت على مسيرتهم نحو الشمال عن المعاناة والمشقات التي مرت بها البعثة، وعن ثورة البشمانيين والصعاب والعوائق التي كان عليهم اجتيازها. استخلصوا من ذلك أنّ حظ الروس كان أفضل بكثيرٍ من حظ الإنكليز منذ مغادرتهم كولوبنغ.

مرت ليلة الواحدة والعشرون حتى الثاني والعشرين من شباط دون حوادث طارئة. قام البشماني والبحارة بالحراسة عند سور القلعة. لم يجدد الموكولولو هجومهم، غير أنّ بعض النيران المشتعلة عند سفح الجبل دلت على أن هؤلاء اللصوص مازالوا يخيمون في العراء ولم يغضوا النظر أبداً عن مشروعهم.

في صبيحة اليوم التالي، الثاني والعشرين من شباط، غادر الأوروبيون مَعقِلهم عند الفجر لمراقبة السهل. كانت خيوط الفجر الأولى تضيء من الوهلة الأولى امتداد الأراضي حتى حدود الأفق. نرى من جهة الجنوب الصحراء بأرضها المائلة للصفرة، وأعشابها المحترقة ومظهرها القاحل. توسع عند سفح الجبل المعسكر الذي ازدحم في وسطه بأربعمئة إلى خمسمئة فرد من السكان المحليين. لا تزال نيرانهم متقدة. ثمة قطع من

اللحم تشوى على الفحم المتوهج. من المؤكد أن أفراد الموكولولو لا يرغبون أبداً في مغادرة المكان، على الرغم من أنّ القافلة بكل ما تملك من ثمين، كالعتاد والعربات والأحصنة والثيران والمؤن، قد وقعت في أيديهم بيد أنّ هذه الغنائم لا تكفيهم دون ريب، فهُم يرغبون بعد قتل الأوروبيين، الاستيلاء على أسلحتهم التي قام الكولونيل إفريست وأتباعه باستعمالها استعمالاً مخيفاً جداً.

بعد أن راقب العلماء الروس والإنكليز معسكر السكان، تبادلوا الحديث مطولاً مع البشماني. يقتضي الأمر اتخاذ قرار نهائي، ويستند إلى مؤازة تهيؤها الظروف. يلزم قبل كل شيء تحديد موقع سكورزيف تماماً.

يعلم العلماء مسبقاً أنّ هذا الجبل يشرف من الجنوب على السهول الواسعة التي تمتد حتى كارّو. من الشرق والغرب كان مدّ الصحراء حسب أصغر قطر فيها. يلتقط النظر في جهة الغرب الصورة الواهية للتلال التي تجاور البلد الخصيب للموكولولو، من ضمنه ماكيتو، واحدة من العواصم التي تقع على بعد مائة ميل تقريباً إلى الشمال الشرقي من نغامي.

نحو الشمال، على العكس من ذلك، يطل سكورزيف على بلد مختلف تماماً. يا له من تناقض كبير مع السهول الجرداء للجنوب! مياه وأشجار ومراع. كلّ هذه الوفرة في الأرض تحافظ عليها رطوبة دائمة! على امتداد مائة ميل على الأقل، كانت بحيرة نغامي من الشرق إلى الغرب تنساب بمياهها الرائعة، التي أخذت الآن تلمع تحت أشعة الشمس الصباحية. كان أكبر عرض في البحيرة يمتد في اتجاه خطوط العرض الأرضية. غير أنّها من الشمال إلى الجنوب، لم يكن طولها ليتجاوز



الثلاثين إلى أربعين ميلاً. إلى الوراء، يبدو الصقع منحدر أنحداراً طفيفاً، متنوع المناخ بغاباته ومراعيه وأنهاره ومجاري مياهه، كروافد ليامبي Lyambie أو الزامبيز. وتماماً إلى الشمال على بعد ثمانين ميلاً على الأقل، كانت سلسلة من الجبال الصغيرة تحوطه بحدودها الرائعة. بلد جميل طرحته الطبيعة على شكل واحة، وسط تلك القفار! يتنسم ترابه الحياة، ترويه على نحو رائع وتنعشه دوماً شبكة من الأوردة السائلة. إنّه الزامبيز. النهر الكبير، الذي بفضل روافده، يحافظ على هذه النباتات الإستثنائية. شريان ضخم لجنوب أفريقيا مثلما هو الدانوب لأوروبا، والأمازون لأمريكا الجنوبية!

تلك كانت البانوراما التي تمتد تحت أنظار الأوروبيين - بالنسبة لسكورزيف إنّه يشمخ عالياً عند صفة البحيرة نفسها، وكما قال ماثيوستروكس تتعامد جنباته الشمالية رأساً مع مياه نغامي لكن لا توجد منحدرات وعرة جداً لا يستطيع البحارة إرتقاؤها أو هبوطها. وبفضل درب ضيق شديد الإنحدار يمتد من حرف إلى آخر استطاعوا الوصول إلى البحيرة، إلى الموضع ذاته حيث يرسو القارب البخاري. بذا يمكن الاطمئنان على أنّ المياه مؤمنة، ويمكن للحامية الصغيرة خلف أسوار القلعة المهجورة، أن تصمد ما دامت مؤنتها متوفرة.

لكن لماذا هذه القلعة في قلب الصحراء على قمة ذلك الجبل؟ سئل موكوم الذي سبق وزار هذه المنطقة عندما كان يعمل مرشداً لداقيد ليفنغستون، عن ذلك. وكان يستطيع الإجابة.

كان يتردد على زيارة هذه الأنحاء في السابق بائعي العاج أو خشب الآبنوس. العاج توفره الفيلة ووحيدو القرون، الآبنوس، هو ذلك اللحم الإنساني، اللحم الحي الذي يتاجر به سماسرة العبيد، كما غزا منطقة الزامبيز بكاملها غرباء معدمون يعملون بالنخاسة. أمدّت الحروب والغزوات وعمليات السطو في الداخل هؤلاء الغرباء بعدد كبير من السجناء والذين بيعوا كعبيد. والحال هذه، كانت بالتحديد هذه الضفة لنغامي تشكل معبراً للتجار القادمين من الغرب، وكان سكورزيف في السابق المركز الذي تخيّم فيه القوافل. هناك كانت تستريح قبل أن تشرع بركوب نهر الزامبيز منحدرين إلى مصبه. لذلك دَعمّ المهربون هذا الموقع ليحتموا فيه هم وعبيدهم من سلب اللصوص. لم يكن نادر الحدوث أن يُستعاد السجناء من السكان المحليين من قبل أولئك الذين باعوهم بنفسهم وسيبيعونهم من جديد.

تلك كانت أصل قصة القلعة، غير أنّها الآن تحولت إلى حطام. تغير طريق القوافل، ولم تعد بحيرة نغامي تستقبلهم على ضفافها. ولم يعد جبل سكورزيف يحميهم. فلقد تهدمت الأسوار التي كانت تطوقه حجراً إثر حجر. لم يتبق من هذه القلعة الصغيرة إلا سور متهدم على شكل قطاع دائرة، يواجه قوسه الجنوب ويواجه وتره الشمال. وسط هذا السور يرتفع معقل صغير محمي تملؤه كوات للرمي، ويعلوه برج ضيق خشبي، استخدمت جانبيته وقد صَغُرت بفعل المسافة، كعلامة تسديد لمنظار الكولونيل إفريست. رغم تهدمها لا تزال القلعة تُوفر مكاناً آمنا للأوروبيين، خلف هذه الأسور المبنية من الأحجار الصلصالية الثخينة، وبتسلحهم كما هو الحال عليه بأسلحة ذات إطلاق سريع، يمكن لهم

الصـمـود في وجـه جـيش من الموكـولـولو، مـا دامت المؤن والـذخـائر لا تنقصهم. وربما ينتهون من عملياتهم الجيودوزية.

بالنسبة للذخائر، يتوفر منها الكثير لدى الكولونيل ورفاقه، لأن الصندوق الذي يحـويهـا قـد تم وضـعـه في العـربة التي نقلت الزورق البخاري، وهذه العربة، كما نعلم، لم يتمكن اللصوص من الإستيلاء عليها.

أما المؤن، فهي شيء آخر. هنا تكمن المشكلة. لم تسلم العربات التي تحمل المؤن من أيدي اللصوص، لا يوجد في القلعة ما يسد ليومين رمق الثمانية عشر رجلاً الذي وجدوا أنفسهم مجتمعين، أيّ العلماء الثلاثة الروس والثلاثة الإنكليز والبحارة العشرة لطاقم الملكة وقيصر والبشماني والفوريلوبه.

هذا هو تماماً ما تم التأكد منه في المعقِل المحمي حسب الأصول، عن طريق جرد دقيق قام به الكولونيل إفريست وماثيوستروكس.

اجتمع العلماء والبشماني بعد انتهائهم من هذا الجرد ومن تناول طعام الإفطار، طعام قليل جداً، بينما كان البحارة يقومون بالحراسة حول أسوار القلعة.

دار النقاش حول هذا الظرف الحرج جداً، ألا وهو ندرة الطعام. ولم يتمكنوا من معرفة كيفية معالجة هذه المجاعة الواقعة دون شك، هذا إن لم تكن فورية، عندما أبدى الصياد الملاحظة التالية.

- أنتم أيها السادة، قلقون بشأن نقص المؤن. حقاً أنا لا أعرف ما يقلقكم. نحن لا نملك طعاماً إلا ليومين كما تقولون، لكن ما الذي يجبرنا على البقاء يومين في هذه القلعة؟ ألا يمكننا مغادرتها غداً أو اليوم بالذات؟ من يمنعنا عن ذلك؟ الموكولولو؟ لكنهم لن يبحروا في مياه نغامي كما أعرف، وبفضل الزورق البخاري، أتكفل بقيادتكم خلال عدة ساعات إلى الضفة الشمالية من البحيرة!.

عند هذا الاقتراح تبادل العلماء النظرات ثم نظروا إلى البشماني. على ما يبدو أنّ هذه الفكرة رغم بساطتها الشديدة، لم تخطر على بالهم أبداً.

في الحقيقة، لم تكن في ذهنهم! فهي لا تخطر في بال أولئك الشجعان، الذين يلزم عليهم أن يظهروا في هذه البعثة الجديرة بالذكر أبطالاً للعلم حتى النهاية.

بادر السيد جون موراي بالحديث أولاً وأجاب البشماني.

- لكننا لم ننته بعد من عمليتنا أيّها الشجاع موكوم.

- أيّة عملية؟

- قياس خط الهاجرة!

- هل تعتقد إذن أنّ الموكولولو ينشغلون بالاً بخط هاجرتكم؟ رد الصياد.

- يحتمل ألا يفعلوا، رد السيد جون موراي. غير أننا نحن الأخرين نهتم بذلك، ولا يمكننا أن نترك هذه المهمة قبل نهايتها. أليس هذا هو رأيكم يا زملائي الأعزاء؟

- هذا هو رأينا. رد الكولونيل إفريست متحدثاً باسم الجميع، ومترجماً المشاعر التي تعتمل في نفس كل واحد منهم. لن نترك قياس خط الهاجرة! مادام واحد منا باقياً على قيد الحياة، ويستطيع النظر في عدسة منظاره، ستستمر عملية التثليث كما هو مخطط لها! سنتابع عمليات الرصد إذا ما اقتضى الأمر ذلك، البندقية في يدو أداة الرصد في اليد الأخرى. غير أننا سنبقى هنا حتى آخر نفس يجري في عروقنا.

- هوراه لانكلترا! هوراه لروسيا! صاح العلماء الذي يتقدون نشاطاً ويضعون مصلحة العلم فوق أيّ خطر.

أدام البشماني النظر إليهم للحظة ولم ينبس ببنت شفة. لقد فهم الأمر.

إذن تم الإتفاق. ستستمر العملية الجيودوزية رغم كل شيء. غير أنّ الصعاب المحلية، كعائق بحيرة نغامي واختيار محطة مناسبة، ألا تجعلها متعذرة التنفيذ؟

طرح هذا السؤال على ماثيوستروكس. يلزم على عالِم الفلك الروسي أن يجيب عن هذا السؤال بعد أن استقر ليومين على قمة سكورزيف.

- أيّها السادة. ستكون العملية صعبة ودقيقة وتتطلب صبراً وحماسة. بيد أنّها لن تكون مستحيلة التنفيذ. ماذا يلزمنا؟ أن نربط بشكل جيودوزي سكورزيف بمحطة تقع إلى شمال البحيرة؟ والحال هذه. هل ثمة محطة هناك؟ أجل، توجد. لقد اخترت في الأفق قمة يمكن أن تكون

علامة تسديد لمنظارنا. إنّها تقع إلى الشمال الغربي من البحيرة، بطريقة يقطع فيها ضلع المثلث هذا بحيرة نغامي بخط مائل.

- حسن. قال الكولونيل. إذا كانت علامة التسديد متوفرة، فما هي المشكلة؟

- تكمن المشكلة في المسافة التي تفصل سكورزيف عن هذه القمة.

- كم هي هذه المسافة؟ سأل الكولونيل.

- مائة وعشرون ميلاً على الأقل.

- يستطيع منظارنا قطعها.

- ولكن يجب إضاءة فانوس عند هذه القمة.

- سنضيؤه!

- وحمله إلى هناك؟

- سنحمله!

- وفي نفس الوقت، يجب أن ندافع عن أنفسنا ضد الموكولولو! أضاف البشماني.

- سندافع عن أنفسنا!

- أيها السادة، أضاف موكوم، أنا تحت تصرفكم وسأقوم بتنفيذ كل أوامركم!

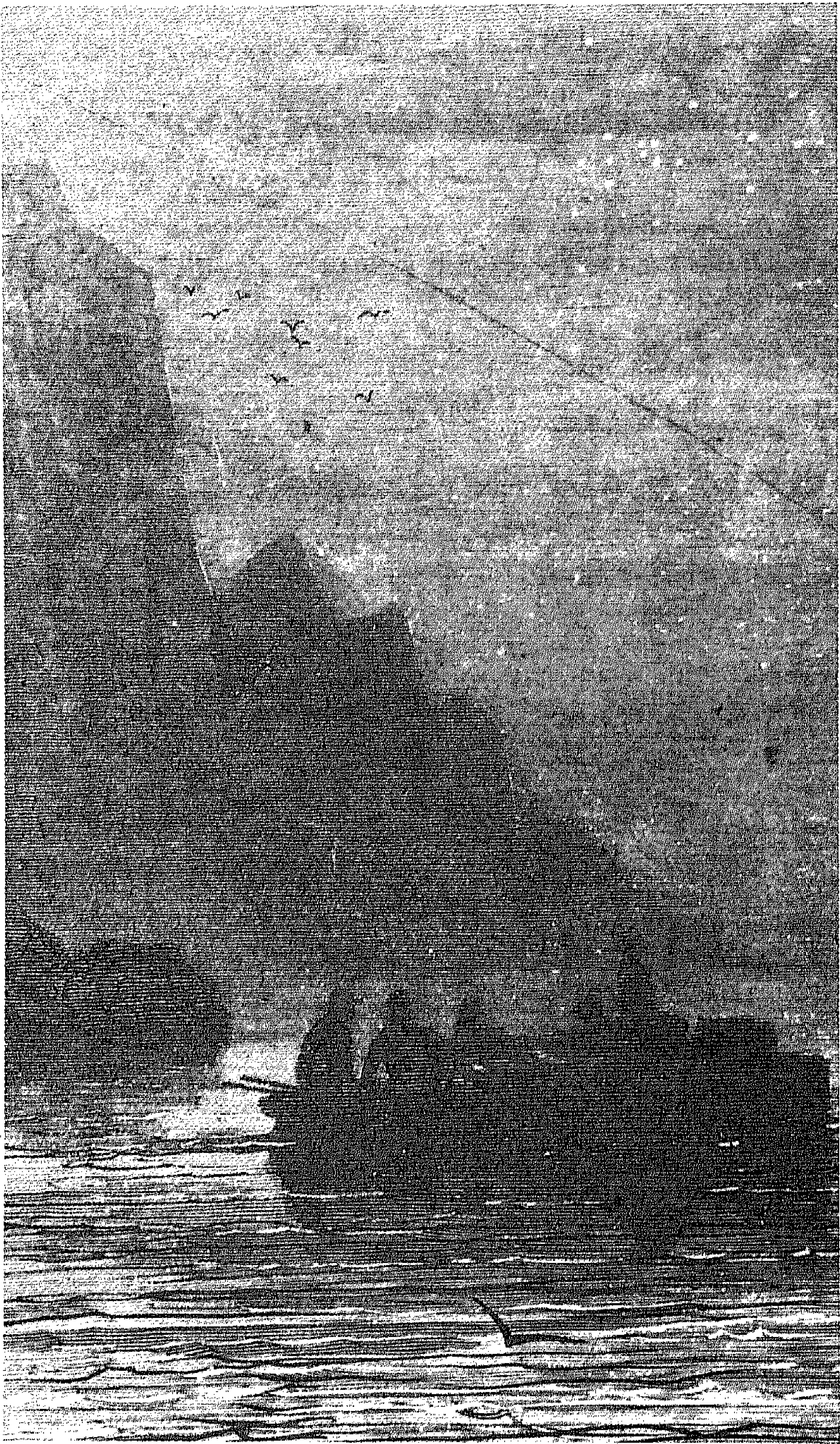
هكذا انتهت بكلمات الصياد المخلص هذه المناقشة التي يعتمد على أساسها مصير العملية العلمية.

خرج العلماء من القلعة توحد بينهم الفكرة ذاتها، وقد قرروا التضحية بأنفسهم إذا لزم الأمر. وأخذوا يراقبون البلد الذي كان يمتد إلى شمال البحيرة.

دلّ ماثيوستروكس على القمة التي اختارها. إنّها قمة ڤولكيريا Val-quiria، عبارة عن مخروط يمكن بالكاد رؤيته بسبب البعد. إنّها ترتفع ارتفاعاً شاهقاً، ورغم المسافة، يمكن رؤية فانوس كهربائي ضخم ضمن حقل المنظار إذا جُهز بعدسات مُكبرة -غير أنّ الأمر يتطلب حمل هذا الفانوس إلى أكثر من مائة ميل عن سكورزيف وتعليقه على قمة الجبل. هنا تكمن الصعوبة الحقيقية. غير أنّها ليست بالعقبة المنيعة. ستنهي الزاوية التي يشكلها سكورزيف مع ڤولكيريا من جهة، ومع المحطة السابقة من جهة أخرى، قياس خط الهاجرة على الأغلب. لأن المخروط يقع بلا شك قريباً جداً من خط العرض العشرين. لذلك نفهم تماماً أهمية العملية وبأيّة حماسة كان العلماء يحاولون تجاوز صعوباتها.

تطلب الأمر قبل كل شيء المباشرة بإعداد الفانوس. إنها مسافة مائة ميل يلزم قطعها في بلد مجهولة. تطوع ميشيل زورن ووليم إميري لتلك المهمة. تمت الموافقة وقبل الفوريلوبه مرافقتهم وبدأوا يجهزون أنفسهم للرحيل.

هل سيستخدمون الزورق البخاري؟ كلا. إنهما يرغبان في بقائه تحت تصرف زملائهم الذين ربما سيحتاجون له للإبتعاد سريعاً، بعد الانتهاء من عملية الرصد، حتى يتخلصوا بأقصى سرعة ممكنة من ملاحقة الموكولولو.



يكفي لاجتياز البحيرة بناء واحد من الزوارق من لحاء شجر البتولة، الخفيف والمقاوم في آن معاً، والذي يتقن السكان المحليون صناعته في عدة ساعات. نزل موكوم والفوريلوبه إلى ضفة البحيرة حيث تنبت بعض أشجار البتولة القزمة، وسريعاً ما أنهوا عملهما.

عند الساعة الثامنة مساءً، حُمِل الزورق بالأدوات والجهاز الكهربائي وبعض المؤن والأسلحة والذخائر.

تم الاتفاق على أن يلتقي علماء الفلك عند الضفة الشمالية لنغامي على حافة خليج صغير يعرفه البشماني والفوريلوبه الاثنان معاً.

كذلك ما أن يُلمح فانوس ڤولكيربا وتُحدد ارتفاعه حتى يضيء الكولونيل إفريست فانوساً عند قمة سكورزيف كي يتمكن ميشيل زورن ووليم إميري بدورهما من تحديد الموقع.

غادر الإثنان القلعة بعد أن ودعا زملائهما. هبطا حتى الزورق. كان الفوريلوبه وبحار روسي وآخر إنكليزي قد سبقوهما إليه.

كان الظلام دامساً. أُرخي القلوس ثم مالبث أن إتجه الزورق الخفيف عبر المياه الداكنة لبحيرة نغامي بدفع مجاديفه بهدوء.

* * *

ثمانية أيام عند قمة سكورزيف

انقبض صدر علماء الفلك لدى رحيل الزميلين الشابين ما هي المشقات والأخطار التي ربما تنتظر أولئك الشبان الشجعان وسط بلد مجهول عليهما اجتيازه لمسافة مائة ميل! مع ذلك طمأن البشماني رفاقه مادحاً مهارة وشجاعة الفوريلوبه. يُفترض من جهة ثانية، أن لا يجوب أفراد الموكولولو الريف شمال بحيرة نغامي، لانشغالهم حول جبل سكورزيف. بالنتيجة كان موكوم بفطرته التي لا تخطىء أبداً، يرى الكولونيل إفريست ورفاقه أكثر عرضة للخطر في القلعة من العالمين الشابين المتجهين على الطرقات المؤدية نحو الشمال.

حرس البحارة والبشماني كلاً في دوره أثناء تلك الليلة- كانت الظلمة تسهّل التدابير المعادية لأفراد الموكولولو. غير أنّ أولئك «الزواحف»- كما يطلق عليهم الصياد - لم يبدأوا بعد المجازفة بأنفسهم على جنبات سكورزيف. لعلهم ينتظرون بعض التعزيزات، ليتمكنوا من غزو الجبل من منحدراته كافة، وبذلك يبطلون وسائل المقاومة عند المحاصَرين.

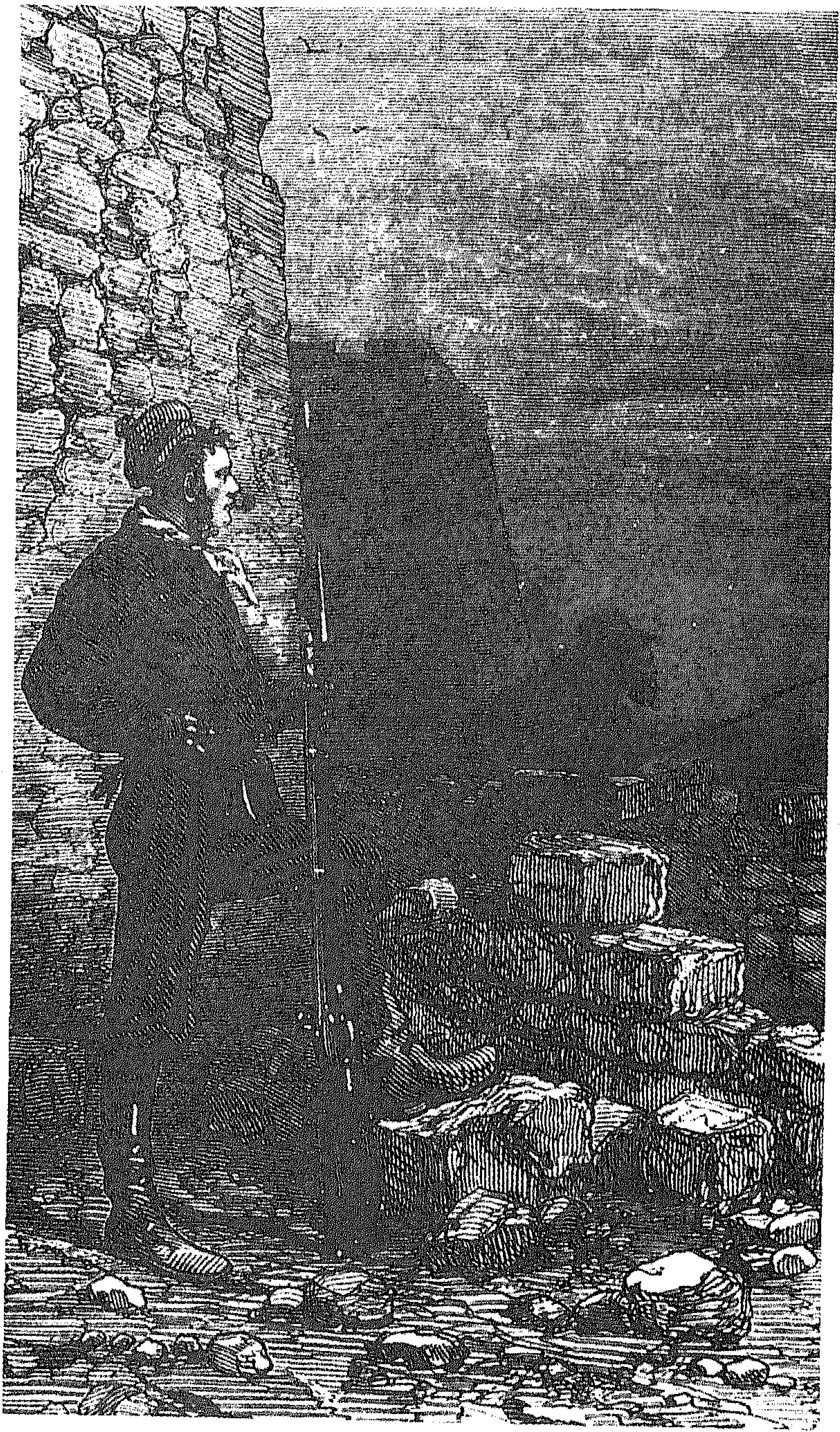
لم يخطىء الصياد إطلاقاً في تخميناته. عندما لاح نور النهار، شهد الكولونيل تزايداً ملحوظاً في عدد الموكولولو. كان مخيمهم الذي جُهز بمهارة، يحوط قاعدة سكورزيف ويجعل هربهم مستحيلاً عن طريق السهل. لحسن الحظ. لم تكن مياه نغامي ولا يمكن أن تكون تحت الحراسة،

وفي حال الضرورة، يمكن للتراجع عن طريق البحيرة، على الأقل في الظروف الطارئة، أن يبقى دائماً قابلاً للتنفيذ.

غير أنّ القضية لم تكن قضية هروب. فالأوربيون يشغلون مكانة علمية، مكانة مُشرفة لا يرغبون أبداً في التخلي عنها. في هذا الصدد، كان اتفاقاً رائعاً يسود بينهم. ولم تعد ثمة أثر للخلافات الشخصية كالتي كانت في السابق تفصل بين الكولونيل إفريست وماثيوستروكس. لم يتطرق أحد أبداً ولا حتى يتلميح إلى هذا الخصوص، بالحديث عن قضية الحرب التي تضع في الظروف الراهنة، إنكلترا وروسيا في حالة نزاع. كلاهما العالمان ينشدان الهدف ذاته. كلاهما يرغب الحصول على نتيجة تفيد بالقدر ذاته البلدين وإنهاء إنجازهم العلمي.

بانتظار الساعة التي يضاء فيها الفانوس عند قمة ڤولكيريا، انشغل العالمان بإنهاء قياس المثلث السابق. تمت العملية التي تعتمد على التسديد بالمنظار المضاعف، على المحطتين الأخيرتين للطريق الإنكليزي، بسهولة ويُسر. وسجل نيكولا بالاندر النتيجة، اتفقوا بعد الانتهاء من هذا العمل على أن يقوموا، خلال الليالي التالية، بعمليات رصد متعددة للنجوم بطريقة يحصولون فيها بدقة لا متناهية على خط عرض سكورزيف.

مسألة هامة أخرى يَلزم مناقشتها قبل كل شيء، وبالطبع دُعي موكوم ليدلي برأيه فيها، ما هي أقصر مدة يمكن فيها لميشيل زورن ووليم إميري الوصول إلى سلسلة الجبال التي تمتد شمال نغامي والتي ستكون قمتها الرئيسية نقطة إستناد للمثلث الأخير في الشبكة؟



بتقدير البشماني، لا يمكن تحديد الوقت الضروري لبلوغ المكان المنشود بأقل من خمسة أيام. إذ يبعد أكثر من مائة ميل عن سكورزيف. وقافلة الفوريلوبه الصغيرة تسير على الأقدام. وإذا أُخذ بالحسبان الصعوبات التي تنطوي عليها منطقة تقطعها على الأغلب سواقي المياه، تصبح حتى الخمسة أيام ردحاً من الزمن قصيراً جداً.

لذا حدد الزمن بستة أيام على الأكثر، وعلى هذا الأساس، أعد تنظيم الطعام.

كان مخزون المؤن قليلاً جداً. ولزم اقتطاع جزء منه لقافلة الفوريلوبه الصغيرة، انتظاراً للوقت الذي تستطيع فيه أن تؤمن الزاد لنفسها عن طريق الصيد. كان الطعام وقد نُقل إلى القلعة وأُنقص منه ذلك الجزء، لا يوفر لكل واحد منهم حصته اليومية المعتادة إلا ليومين. إنّه يتألف من ليبرات من البسكويت واللحم المحفوظ والبميكان. قرر الكولونيل إفريست بالإتفاق مع زملائه، أن تقلل الحصة اليومية إلى الثلث. بهذه الطريقة، يمكن الانتظار حتى اليوم السادس، أن يلوح في الأفق ذلك الضوء المنتظر بلا انقطاع.

سيعاني حتماً الأوروبيون الأربعة وبحارنهم الستة والبشماني، أي ما مجموعة أحد عشر رجلاً بالمحصلة، من هذا القوت البسيط، غير أنهم فوق مثل هذه المعانات.

– ليس ممنوعاً أن نخرج للصيد من جهة ثانية! قال السيد جون موراي للبشماني.

هز البشماني رأسه وقد ارتسم الشك على محياه. كان يبدو له من الصعوبة بما كان، فوق هذا الجبل المنفرد، ألا تكون الفرائس نادرة جداً. غير أنّ ذلك ليس سبباً وجيهاً ليدع بندقيته جانباً. فبينما ينشغل زملاؤه بتقليص القياسات المدّونة على السجل الثاني لنيكولا بالاندر، غادر السيد جون مصطحباً موكوم حرم القلعة، وقد حزم أمره على القيام بالتعارف مع جبل سكورزيف على الوجه السليم.

لم يكن يبدو على الموكولولو، وقد خيموا بهدوء عند قاعدة الجبل، أنهم يستعجلون الهجوم. ربما كان في نيتهم أن يقضوا على المحاصَرين عن طريق الجوع!

تم استكشاف جبل سكورزيف بسرعة. لم يكن قياس الموضع حيث ترتفع القلعة ليتجاوز الربع ميل في أبعد مسافة له.

كانت التربة المغطاة بعشب كثيف نوعاً ما والمزوجة بالحصى، تنبت فيها هنا وهناك بعض الأدغال المنخفضة التي تتألف جزئياً من الغلايول. يُشكل الخلنج الأحمر اللون وأشجار الزينة بأوراقها الفضية والخلنجيات ذات الأكاليل الطويلة، نباتات الجبل، وتنبت على جنباته، تحت زوايا وعرة جداً تبدو على شكل نتوءات صخرية تخترق قشرة الجبل، شجيرات شوكية، ارتفاعها ستة أقدام، ذات عناقيد من أزهار بيضاء، معطرة مثل أزهار الياسمين وكان البشماني يجهل اسمها.

بالنسبة للحيوانات المتوحشة، لم ير السيد جون بعد ساعة من الترصد أيّ نموذج عنها. أثناء ذلك هربت مجموعة من العصافير الصغيرة، ذات ريش غامق عند الحاجبين ومنقار أحمر اللون، من بعض الأدغال. لا غرو أنّ هذه المجموعة من الطيور بكاملها ستلوذ بالفرار منذ الطلقة الأولى

للبندقية، ولن تعود أبداً. لذلك لا يمكن الاعتماد على منتجات الصيد لتموين الحامية.

- يمكننا دوماً الاصطياد في مياه البحيرة. قال السيد جون وهو يقف عند الجانب الشمالي لسكورزيف متأملاً الإمتداد الرائع لبحيرة نغامي.

- الصيد دون شبكة أو صناره، رد البشماني، مثل الرغبة في صيد الطيور بلا بندقية. مع ذلك يجب ألاّ نيأس أبداً. يعلم سيادته أنّ الحظ إلى الآن قد وقف إلى جانبنا وفي أغلب الأحيان، وأظن أنه سيقف مستقبلاً أيضاً إلى جانبنا.

- الحظ! انبرى السيد جون موراي قائلاً. عندما يرغب الله في إثارته، يصبح أكثر ممون مخلص للجنس البشري أنا أعرفه! لا أكثر منه ضماناً كمعتَمد، لا كبير خدم أكثر منه مهارة! لقد قادنا بقرب رفاقنا الروس، وقادهم تحديداً حيث نرغب نحن بالذهاب. ونحن وهم، يمكن أن يقودنا بهدوء تام نحو الهدف الذي ننشده!

- هل سيؤمن لنا القوت؟... سأل البشماني.

- سيفعل ذلك حتماً يا صديقي موكوم. رد السيد جون. وهو بقيامه بذلك لا يقوم إلاّ بوظيفته!

كانت كلمات سيادته مطمئنة بالتأكيد. مع ذلك قال البشماني لنفسه، أنّ الحظ خادم يطلب أن يقدم أقل خدمة ممكنة لأسياده، ووعد نفسه أن يساعده عند الحاجة.

لم يطرأ أي تغيير يوم الخامس والعشرين من شباط، على الوضع الخاص بالمحاصَرين والمحاصِرين. بقي الموكولولو في مخيهم -ثمة قطعان من الثيران والخراف ترعى عند المناطق الأكثر قرباً من سكورزيف، التي تحفظها ترشحات الأرض في خضرة دائمة. اصطحب الموكولولو العربات المسروقة إلى المخيم.

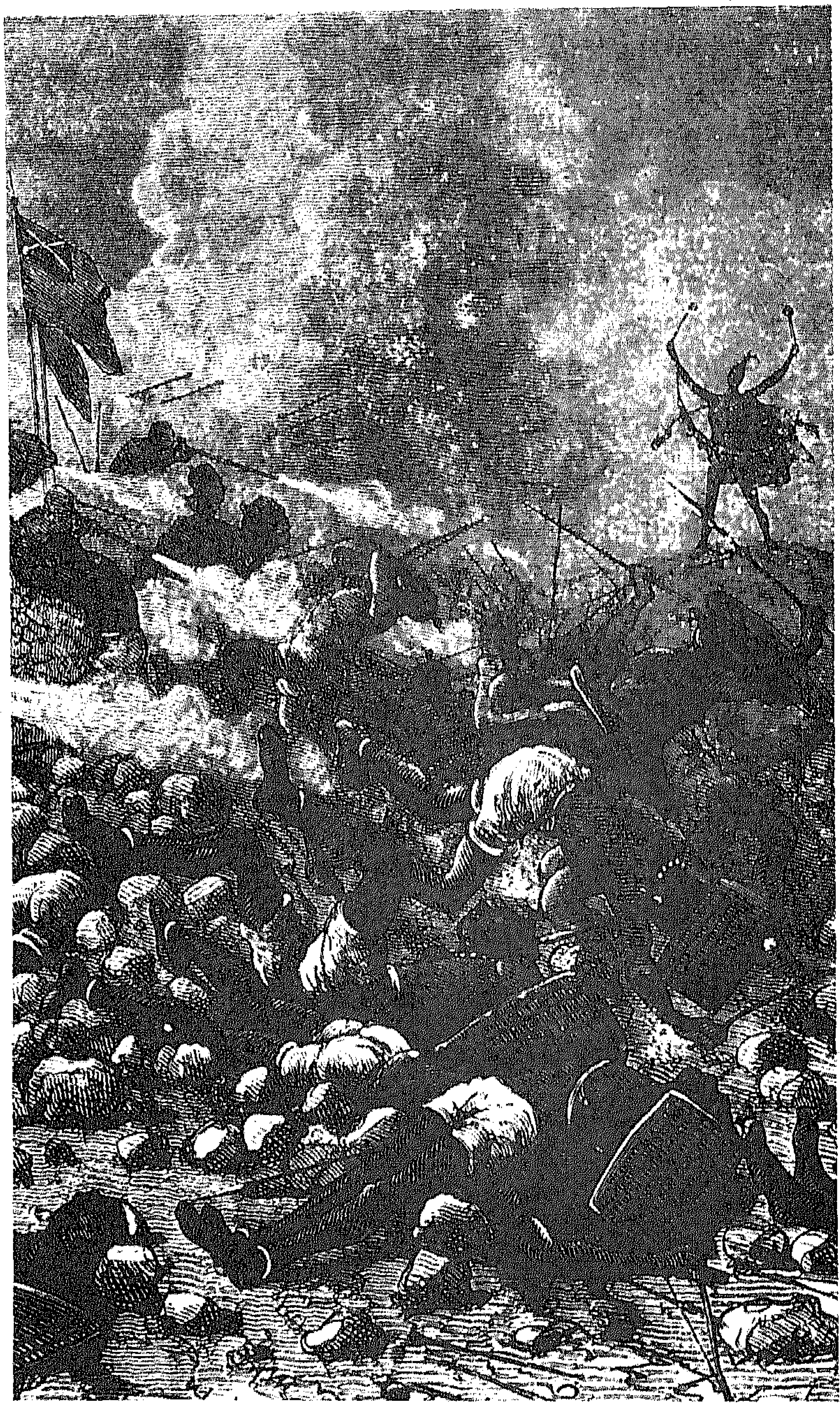
انشغل عدد من النسوة والأطفال وقد انضموا إلى القبيلة البدوية بالأعمال اليومية. من وقت لآخر، كان أحد الرؤوساء، ويُعرَف من أبهة فرائه، ينتصب واقفاً على أحد منحدرات الجبل محاولاً استكشاف دروب يمكن طرقها وتفضي بأكثر الأشكال أمناً إلى القمة. غير أنّ طلقة من البندقية المخرزة كانت تعيده بسرعة إلى أرض السهل. حينذاك يرد الموكولولو على دويّ الطلقة بصيحات الحرب، ويقذفون بعض السهام غير المؤذية ويلوحون بأقواسهم ثم يعود كل شيء إلى هدوئه الأول.

مع ذلك، قام السكان المحليون يوم السادس والعشرين من شباط بمحاولة أكثر جدية، إذ تسلقوا بعدد يقدر بالخمسين الجبل من اتجاهات ثلاث دفعة واحدة. أُخرِجت الذخيرة بكاملها من القلعة إلى سفح الحرم. أحدثت الأسلحة الأوروبية التي كانت تعبأ وتطلق بعجلة كبيرة، بعض الضرر في صفوف الموكولولو. قُتل خمسة أو ستة من أولئك اللصوص، وغادرت بقية الزمرة اللعبة. مع ذلك ورغم سرعة الإطلاق، كان بديهياً أنّ المحاصرين يمكن أن يتزايدو اعدداً. فلو اندفع عدة مئات من هؤلاء الموكولولو للهجوم على الجبل في وقت واحد، يكون من الصعب مواجهتهم في كافة الاتجاهات. لذلك ارتأى السيد جون حماية واجهة القلعة، بنصب المصفحة فيها والتي تشكل السلاح الأساسي للزورق

البخاري. تلك وسيلة جيدة للدفاع عن أنفسهم. كانت الصعوبة كلها تكمن في رفع هذا السلاح الثقيل الوزن، عبر هذه الصخور المنضدة عمودياً والشاقة جداً عند تسلقها. مع ذلك أظهر بحارة الملكة وقيصر مهارة كبيرة ورشاقة كبيرة وحتى جرأة لا توصف، حتى تم يوم السادس والعشرين من الشهر نصب السلاح الرهيب عند كوة في السور ذي الفتحات. هناك، يمكن للمدافع الخمسة والعشرين، التي يَتهَيأ إطلاقها بشكل مروحي، أن تغطي بنيرانها واجهة القلعة بكاملها. لا بدّ وأنّ السكان المحليين سيتعرفون قريباً إلى سلاح الموت هذا، والذي ستدخله الدول المتقدمة بعد عشرين عاماً في عتادها العسكري.

أثناء فترة تعطلهم القسري عند قمة سكورزيف، كان علماء الفلك كل ليله يقيسون ارتفاعات النجوم. السماء الصافية جداً والجو الجاف جداً، سمحا لهم بالقيام بعمليات رصد رائعة. كانت نتيجة خط عرض سكورزيف هي ١٨ُ ٣٧ُ ١٩°، أي تسع عشرة درجة وسبعة وثلاثين جزءاً من المائه وثمانية عشر جزءاً من الألف. قيمة تقريبية حتى أجزاء الواحد من الألف من الثانية، أي متر تقريباً. من المستحيل الحصول على دقة لا متناهية أكثر من ذلك. كما أكدت لهم هذه النتيجة أنهم على بعد يقل عن نصف درجة عن النقطة الشمالية لخط هاجرتهم. بالنتيجة، سينهي ذلك المثلث الذي يحاولون إسناد رأسه إلى قمة ڤولكيريا شبكة المثلثات.

انقضت ليلة السادس والعشرين حتى السابع والعشرين من الشهر دون محاولات جديدة للموكولولو. بدا نهار السابع والعشرين طويلاً جداً بالنسبة للحامية الصغيرة. إذا وقفت الظروف إلى جانب الفوريلوبه الراحل منذ خمسة أيام، من المحتمل أن يكون وهو ورفاقه قد بلغوا ڤولكيريا في



هذا اليوم بالذات لذلك يلزم أثناء الليلة التالية، رصد الأفق بعناية شديدة، إذ يمكن لضوء الفانوس أن يظهر فيه. كان الكولونيل إفريست وماثيوستروكس قد صوبا سلفاً الجهاز إلى القمة بطريقة يبين فيها في حقل العدسة. هذه الحيطة تُسهل عليهم بحثاً يضحو دون نقطة استدلال عسيراً جداً في ليل مدلهم. إذا حدث وبان الضوء عند قمة ڤولكيريا، يمكن على الفور رؤيته وبالتالي الحصول على قياس الزاوية.

في ذلك النهار، جاب السيد جون عبثاً الأدغال والأعشاب الطويلة ولم يستطع العثور على أثر لأي حيوان يمكن أكله أو ما شابه. حتى الطيور وقد تعكرت عزلتها، بحثت وسط حرجات الضفة عن مخابىء أكثر أمناً.

كان الصياد المحترم مُغتماً، لأنه الآن لا يقوم بالصيد لرغبته، بل من أجل نفسه ذاتها أو معدته، إذا كان ممكناً تطبيق هذه الكلمات على معدة إنكليزي. لذلك كان السيد جون، وهو صاحب شهية قوية، لا يمكن لثلث حصة من الطعام أن تسد رمقه، يعاني حقاً من الجوع. يتحمل زملاؤهُ بسهولة أكبر هذا التقشف إما لأنّ معدتهم أقل تطلباً، أو لأنّه على مثال نيكولا بالاندر يمكن أن يستعيضوا عن البفتيك التقليدي بمعادلة أو اثنتين من الدرجة الثانية. أما البحارة والبشماني، فكانوا يتضوورن جوعاً مثل السيد جون المحترم.

والحال هذه، قارب المخزون الضئيل من المؤن على نهايته، يوم آخر ويستهلك ما بقي من غذاء، فإذا ما تأخرت بعثة الفوريلوبه في سيرها سرعان ما تقع حامية القلعة في مأزق ميئوس منه.

مرت الليلة السابعة والعشرين حتى الثامنة والعشرين في الرصد. كانت الظلمة الهادئة الصافية تساعد على الأخص علماء الفلك. غير أنّ الأفق ظل ضائعاً في الظلام الدامس. لم يبدد أيّ ضوء مَظهرَ هذه العتمة. كما لم يظهر أيّ شيء في عدسية المنظار.

مع ذلك كان الحد الأدنى للمدة المحددة لبعثة ميشيل زورن ووليم إميري قد انتهت بالكاد. لا يمكن لزملائهم على هذا النحو إلا التسلح بالصبر والإنتظار.

خلال يوم الثامن والعشرين من شباط تناولت الحامية الصغيرة لجبل سكورزيف آخر قطعة من اللحم والبسكويت غير أنّ هؤلاء الشجعان العلماء لم يفقدوا الأمل بعد، حتى ولو لزم عليهم اقتصاد طعامهم على العشب. لقد عقدو العزم على عدم مغادرة مكانهم قبل إنجاز عملهم.

لم تسفر الليالي من ٢٨ شباط حتى الأول من آذار عن أية نتيجة أيضاً. مرة أو مرتين ظن الراصدون أنهم لمحوا ضوء الفانوس، لكن بعد التحقق من ذلك، لم يكن الضوء سوى نجمة في الأفق قد غطاها الضباب.

منذ الأول من آذار لم يعد أحد يتناول شيئاً تحمل الكولونيل إفريست ورفاقه، وقد تعودوا على الأرجح منذ عدة أيام على طعام قليل جداً، بسهولة أكبر مما كانوا يتصورون هذا النقص المطلق في الغذاء. لكن إنْ لم ترسل لهم العناية الإلهية أيّة مساعدة، سيحمل لهم الغد آلاماً مبرحة.

في اليوم التالي لم تغمرهم العناية الإلهية بالعطاء دون شك. لم تسترع أية فريسة كانت ومن أي نوع انتباه طلقات السيد جون موراي. مع ذلك، توصلت الحامية التي لم يكن لها الحق في إظهار صعوبة هذا الوضع إلى تجديد قواها بالغذاء مهما كان ضئيلاً.

في الواقع كان السيد جون وموكوم وقد شعرا بمغص في معدتهما من أثر الجوع وزاغت عيونهما، يهيمان فوق قمة سكورزيف. كان جوع قاتل يمزق أحشاءهما. هل سيأخذان برعي هذا العشب الذي يدوسانه بأقدامهما، كما قال الكولونيل إفريست.

– لو كانت لنا معد المجترات! كان السيد جون المسكين يفكر. كم كنا سنستهلك من هذا العشب. لا فريسة ولا طائر.

كان السيد جون إذ يتحدث على هذا النحو، يجول النظر على البحيرة الواسعة التي تمتد أسفل منه. حاول بحارة الملكة وقيصر اصطياد بعض السمك بلا طائل. أما الطيور المائية التي كانت تحلق على صفحة تلك المياه الهادئة، فلم تدع أحداً يقترب منها.

تمدد السيد جون ورفيقه اللذان كانا يسيران بمشقة بالغة على العشب، عند كثيب أرضي يرتفع من خمسة إلى ستة أقدام. نعاس ثقيل الوطأة، أو بالحري خدر أكثر منه نعاس كان يغزو دماغيهما. وبفعل هذا النعاس أطبقت جفونهما دون إرادة منهما. شيئاً فشيئاً وقعا في حالة حقيقية من الخمود. كان الفراغ الذي يحسانه في داخلهما يشعرهما بالعدم ويوقف بالإضافة لذلك الآلام التي كانت تمزقهما، فتركا نفسيهما على سجيتها.

كم من الوقت مرّ عليها وهما في هذا الخدر. لا البشماني ولا السيد جون يستطيعان معرفة ذلك. لكن بعد مرور ساعة من ذلك، شعر السيد جون بنفسه مستيقظاً على وخزات متتابعة مزعجة للغاية. هزّ نفسه وحاول النوم مجدداً، غير أنّ الوخزات ثابرت على هذا المنوال، ففتح عينيه أخيراً وقد نفذ صبره.



كانتِ فرق من النمل الأبيض تركض فوق ملابسهُ وقد تغطى وجهه ويداه منها. جعله غزو الحشرات هذا يهب واقفاً كما لو أنّ نابضاً قد أرخي في داخله. أيقظت هذه الحركة العنيفة البشماني المتمدد إلى جانبه. كان هو الآخر مغطى بهذا النمل الأبيض. لكن لدهشة السيد جون الشديدة، بدل أن يطرد موكوم هذه الحشرات تناولها بقبضته وحملها إلى فمه وأخذ يأكلها بشهية.

- آه! بوف! موكوم. قال السيد جون وقد تقزز من هذا النَهم.

- كُل! كُل! افعل مثلي. أجابه البشماني دون أن يضيع لقمة واحدة. كُل! إنه أرز البشمانيين.

أطلق موكوم في الواقع على هذه الحشرات تسميتها المحلية. كان البشمانيون يتغذون طوعاً بهذا النمل الذي يضم نوعين، النمل الأبيض والنمل الأسود. بالنسبة لهم النمل الأبيض أفضل من الأسود، العيب الوحيد فيه يتعلق بالغذاء. يلزم تناول كميات كبيرة منه. كذلك يمزج الأفريقيون عادة هذا النمل بصمغ شجر الميموزا. بذلك يحصلون على قوت أكثر غنى بمكوناته. غير أنّ الميموزا غير متوفر على جبل سكورزيف لذلك اكتفى موكوم بأكل الأرز «بشكله الطبيعي».

قرر السيد جون أن يقلده رغم تقززه، ومدفوعاً بجوع كان يتنامى عند رؤية البشماني يُشبع نفسه منه.

كان النمل يخرج بالمليارات من قريته الكبيرة التي لم تكن سوى ذلك الكثيب الأرضي الذي نام بقربه الرجلان متجاورين. أمسك السيد جون بقبضته بعضاً منه وحمله إلى شفتيه. حقاً لم يكن طعم هذا القوت سيئاً. لقد وجد فيه طعماً حامضاً مستساغاً جداً، وشعر بأن تقلصات معدته قد هدأت قليلاً.

لم ينس موكوم رفاقه البؤساء. ركض إلى القلعة وأحضر الحامية كلها. لم يجد البحارة أيّة مشكلة في الإنقضاض على الغذاء الفريد من نوعه. ربما تردد الكولونيل إفريست وماثيوستروكس ونيكولا بالاندر للحظة، غير أنّ مثال السيد جون موراي أقنعهم بحذو حذوه. بذلك خدع أولئك العلماء التعساء أنفسهم وهم يكادون يتضورون جوعاً، بتناول كميات لا تحصى من هذا النمل الأبيض.

غير أنّ حدثاً لا متوقعاً كان السبب في تزويد الكولونيل ورفاقه بغذاء أكثر صلابة. خطرت لموكوم فكرة هدم جانب من قرية النمل الكبيرة ليقوم بالتموّن من هذه الحشرات. إنّها كما سبق وقلنا، عبارة عن تلة مخروطية الشكل تدعمها مخروطات أكثر صغراً، متوزعة على شكل دائري عند قاعدتها. كان الصياد المسلح بفأسه قد أخذ بتوجيه عدة ضربات للبناء، عندما استرعى انتباهه ضوضاء غريبة. يمكن القول إنّه نخير يحدث داخل القرية. أوقف البشماني عملية الهدم وأخذ يسترق السمع. كان رفاقه ينظرون إليه دون أن ينبسوا بحرف واحد. وجه ضربات جديدة بفأسه على البناء، فسمع نخيراً أكثر حدة. فرك البشماني يديه دون أن يقول كلمة

واحدة ولمعت عيناه ببريق الطمع. أخذت المطرقة تهاجم التلة من جديد محاولة إحداث ثقب واسع يمتد حوالي قدم واحدة. كان النمل يهرب من كافة الجهات، غير أنّ الصياد لم يكن يعيرها انتباهه أبداً. ترك للبحارة أمر حجزها داخل الأكياس.

بغتة، ظهر حيوان غريب عند مؤهة الفتحة. إنّه من ذوات الأربع، يملك خطماً طويلاً وفماً صغيراً ولساناً قابلاً للمد، وآذاناً مستقيمة وأقداماً قصيرة وذيلاً طويلاً مدبباً. كان جلد حريري رمادي اللون بتلونيات حمراء يغطي جسده المسطح ويتسلح ببراثن ضخمة في قدميه.

ضربة خاطفة وجهها موكوم إلى خطم هذا الحيوان الغريب كانت كافية لتقتله.

- هذا هو شواؤنا أيّها السادة. قال البشماني. صحيح أنّه جعلنا ننتظر طويلاً غير أنّه مذاقه الطيب يستحق العناء! هيا، لتوقد النار، نحتاج سيخ بندقية لعملية الشواء وسوف نتعشى كما لم نفعل ذلك في السابق.

لم يكن البشماني يبالغ كثيراً بقوله. ذلك الحيوان الذي كان يسلخ جلده بخفة، هو أبو أظلاف، نوع من النامل أو آكل النمل الذي يعرفه الهولنويون أيضاً باسم «خنزير الأرض». إنه شائع الوجود جداً في جنوب إفريقيا وليس من عدو أكثر ضراوة منه لقرى النمل. يهدم آكل النمل هذا فرق الحشرات وعندما لا يستطيع الدخول في سراديبها الضيقة يقوم باصطيادها بزلق لسانه المحدود الدّبق ساحبٌ لقمة من هذا النمل.

سرعان ماأضحى الشواء جاهزاً. ربما ينقصه بعض الدورات على السيخ، غير أن صبر الجائعين كان قد نفذ!

أُكل نصف الحيوان وأعلن الجميع أن لحمه الجامد والصحي كان ممتازاً رغم أنّه مُشرباً قليلاً بحمض النمليك. يالها من وجبة! لقد أعادت الشجاعة والأمل بدفقات جديدة لأولئك الأوربيين البواسل.

يلزم في الواقع أن يكون الأمل راسخاً في قلوبهم، لأن الضوء في الليلة التالية لم يظهر بعد فوق القمة المعتمة لڤولكيريا!

* * *

فليكن الضوء!

رحل الفوريلويه وقافلته الصغيرة منذ تسعة أيام. ما هي الحوادث التي أخرت سيرهم؟ هل كان الرجال أو الحيوانات يشكلون عوائق لا يمكن لهم تجاوزها؟ لماذا هذا التأخير؟ هل نستخلص من ذلك أن ميشيل زورن ووليم إميري قد توقفا تماماً عن السير؟ ألا يمكننا الظن أنهما فقدا إلى الأبد؟

إنّنا ندرك حالات الخوف والذعر وتعاقب الأمل واليأس التي مرّ بها علماء الفلك المحجوزين في قلعة سكورزيف. لقد رحل زملاؤهم وأصدقاؤهم منذ تسعة أيام! لزام عليهم بلوغ الهدف في ستة أو سبعة أيام على الأكثر. فهم رجال نشيطون وشجعان تدفعهم البطولة العلمية، كما يعتمد نجاح الإنجاز الكبير على وجودهم عند قمة جيل ڤولكيريا. إنهّم يعلمون ذلك تماماً وعليهم ألاّ يهملوا أي شيء للوصول إلى النجاح . لا مجال لإسناد تهمة التأخير عليهم. فإذا انقضت تسعة أيام على رحيلهم، ولم يلمع الفانوس بعد عند قمة ڤولكيريا، فمرجع ذلك إلى أنهم قد قضوا نحبهم أو أسرتهم القبائل الجوالة!

تلك كانت الأفكار المحبطة والنظريات المكربة التي تدور في فكر الكولونيل إفريست وزملائه. بأيّ فروغ صبر كانوا ينتظرون غروب الشمس وراء الأفق ليشرعوا في عمليات الرصد الليلية! وكم سيكون كبيراً الجهد الذي سيبذلونه في تنفيذها! أملهم كله كان متعلقاً بتلك العدسية التي يلزم عليها التقاط الوميض البعيد! حياتهم كلها تركزت في الحقل الضيق

لمنظار تافه! أضحوا في الثالث من آذار وقد هاموا على وجوههم على منحدرات سكورزيف، يتبادلون بالكاد بضع كلمات، وقد سيطرت عليهم فكرة واحدة، يعانون كما لم يعانوا من قبل أبداً! كلا. لا الحرارة القائظة للصحراء ولا مشقات الترحال في النهار تحت أشعة استوائية، ولا عذابات الظمأ، كل ذلك لم يضنيهم إلى هذا الحد!

التُهمت في اليوم ذاته القطع الأخيرة من آكل النمل. وجدت حامية القلعة نفسها آنذاك مرغمة على تناول ذلك الطعام الذي عُرِف من قرى النمل ولا يكاد يسد الرمق.

أقبل الليل. ليل هادىء بلا قمر وعميق الغور. إنّه يلائم تماماً عمليات الرصد. لكن لم يلَح على قمة ڤولكيريا أيّ بصيص. حتى خطوط الفجر الأولى راقب الكولونيل إفريست وماثيوستروكس بالتناوب الأفق بمثابرة رائعة. لا شيء. لا شيء يلوح فيه. سرعان ما جعلت أشعة الشمس أيّة عملية للرصد مستحيلة.

من جانب السكان المحليين، لا جديد إلى الآن مما يخشى عقباه. على ما يبدو أنّ الموكولولو قد خلَصوا إلى إرغام المحاصَرين بالجوع. في الحقيقة لا يمكن أن يخفقوا في هذا الأمر. خلال اليوم الرابع من آذار، أخذ الجوع يعذب مجدداً أسرى سكورزيف. لم يكن بمقدور هؤلاء التعساء الأوروبيون تخفيف آلامهم إلا بمضغ الجذور البصلية لنباتات الغلايول التي كانت تنبت بين الصخور على منحدرات الجبل.

أسرى! كلا. لم يكن الكولونيل ورفاقه مع ذلك أسرى! يمكن للقارب البخاري الراسي دوماً في الجوين الصغير، أن ينقلهم عند رغبتهم

فوق مياه نغامي، نحو ريف خصيب لا تنقص فيه الفرائس ولا الثمار ولا نباتات القرنيات(*)! أثيرت عدة مرات المسألة نفسها حول معرفة ما إذا كان من غير المناسب أبداً. إرسال البشماني إلى الضفة الشمالية، ليصطاد فيها لحساب الحامية. لكن، بالإضافة إلى إمكانية ملاحظة السكان لهذه المناورة، سيتعرض القارب للخطر، وبالنتيجة تتعرض له سلامة الجميع، في حال كانت قبائل أخرى من الموكولولو تجوب القسم الشمالي من البحيرة. لذلك رُفض هذا الإقتراح، يلزم على الجميع الهرب معاً أو البقاء معاً. أما بالنسبة لمغادرة سكورزيف قبل إنهاء العملية الجيودوزية، فلا مجال لطرح هذه المسألة. يجب الإنتظار ما دامت كل فرص النجاح لم تنفذ بعد. إنّها مسألة صبر! وسيصبرون!

- عندما اقترح أراغووبيو ورودريغ، قال في ذلك اليوم الكولونيل إفريست لرفاقه الملتفين حوله. مدّخط الهاجرة من دانكرك حتى جزيرة إيڤيسا IVIÇa، كان العلماء تقريباً في الوضع ذاته الذي نحن فيه. يلزم ربط الجزيرة بساحل إسبانيا بمثلث تتجاوز أطوال أضلاعه المائة والعشرين ميل. استقر عالم الفلك رودريغ فوق قمم الجزيرة وأدخل فيها فوانيس مضيئة، بينما كان العلماء الفرنسيون يعيشون تحت الخيمة على بعد أكثر من مائة ميل من هناك، وسط صحراء لاس بالماس. أثناء ستين ليلة، راقب آراغو وبيو الفانوس الذي يرغبون بمعرفة اتجاهه! وعندما وهنت عزيمتهم وقرروا النكوص عن عملية الرصد، لاحت في الليلة الواحدة والستين نقطة مضيئة في حقل المنظار، كان سكونها وحده لا يسمح أبداً بالخلط بينها وبين نجمة من البعد السادس. واحد وستون ليلة من الإنتظار! وهكذا أيّها

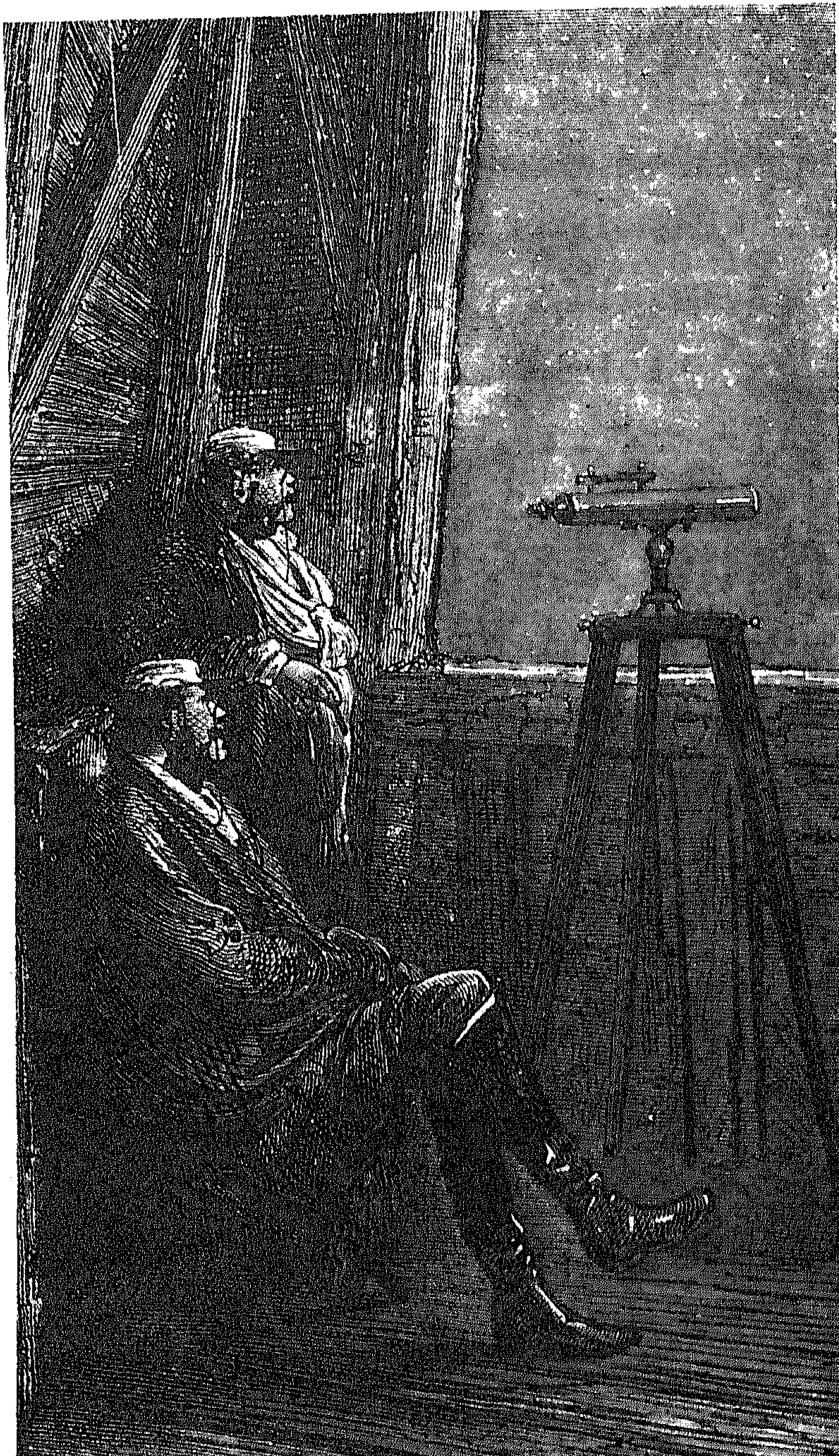
(*) - (م. فصيلة نباتية من ذوات الفلقتين تشمل الفول والعدس والحمص الخ ...).

السادة، ما استطاع علماء فلك فرنسيون أن ينجزونه لمصلحة العلم أيعجز علماء انكليزوروس عن تحقيقه؟

كانت إجابة العلماء كلهم صيحة هوراه للتأكيد. مع ذلك، كان يمكن لهم أن يجيبوا الكولونيل إفريست أنّه لا بيوولا أراغو قد أحسّا بعذاب الجوع خلال توقفهما الطويل في صحراء لاس بالماس.

خلال النهار، أثارت تحركات الموكولولو المخيمين عند سفح سكورزيف الريبة. إنّها روحات وغدوات لا تدع مجالاً للشك عند البشماني. هل سيحاول هؤلاء الأفراد، عند قدوم الليل، الهجوم مجدداً على الجبل، أم يجهزون لرفع المخيم؟ بدا لموكوم بعد أن راقبهم بانتباه شديد أنّهم وراء هذا الإهتياج يبيتون أمر العدوان عليهم. كان الموكولولو يجهزون أسلحتهم. لقد غادر المخيم النسوة والأطفال الذين كانوا قد انضموا إليهم، وبقيادة بعض الأدلاء وصلوا إلى منطقة الشرق مقتربين من ضفاف نغامي. لذلك يكون على الأرجح أنّ المحاصرين يرغبون في محاولة أخيرة للاستيلاء على القلعة الصغيرة، قبل أن ينسحبوا نهائياً في اتجاه ماكيتو عاصمتهم.

نقل البشماني نتيجة المراقبة للأوروبيين. اتفق الجميع على تطبيق مراقبة أكثر صرامة أثناء الليل، ووضع الأسلحة بكاملها في حالة تأهب. يمكن لجموع المحاصرين أن تكون غفيرة جداً. لا شيء يمنعهم من الإنسلال على منحدرات سكورزيف بعدد يتجاوز المئات. يمكن بسهولة فائقة لسور القلعة وقد تحطم في عدة مواقع أن يسمح بمرور مجموعة من الأفراد. لذلك يبدو من واجب الكولونيل أن يجانب الحذر بأخذ بعض التدابير في



حال ما إذا اضطر المحاصرونَ إلى التراجع، ومغادرة موقعهم الجيودوزي مؤقتاً.

لذلك على الزورق البخاري أن يكون جاهزاً للإبحار عند أول إشارة. تلقى واحد من البحارة وهو ميكانيكي الملكة وقيصر الأمر بإشعال الفرن وإبقائه في حالة ضغط، من أجل الوقت الذي يضحوا لهرب فيه ضروريا. لكن يجب انتظار غياب الشمس كيلا يكشفوا للموكولولو عن وجود زورق بخاري فوق مياه نغامي!

تألفت وجبة المساء من نمل أبيض وجذور الغلايول. وجبة شحيحة لرجال قد يتعرضون للقتال.

لكنهم عقدوا العزم، فهم فوق كل ضعف وينتظرون دون وجل الساعة الحاسمة.

نحو الساعة السادسة مساء، في اللحظة التي أقبل فيها الليل بسرعة تتميز بها المناطق الاستوائية، هبط الميكانيكي منحدرات سكورزيف، وانشغل بتحمية مِرجل الزورق. من البديهي أن الكولونيل إفريست لا ينوي الهرب إلا عند الضرورة القصوى، عندما يصبح مستحيلاً البقاء في القلعة. كان العقل يأبي عليه ترك مرصده، خاصة أثناء الليل، إذ يمكن في أيّة لحظة أن يضاء فانوس وليم إميري وميشيل زورن عند قمة ڤولكيريا.

تهيأ البحارة الأخرون عند الأسوار التي تشكل حرم القلعة، وقد تلقوا أمراً بحماية مدخل المنافذ بأي ثمن كان.

جُهزت الأسلحة وكانت المصفحة المعبأة والمزودة بعدد كبير من الخراطيش تمد مدافعها الرهيبة عبر الكوة. امتد الانتظار لساعات عدة. كان الكولونيل إفريست والعالِم الروسي، وقد كمنا عند البرج الضيق، يفحصان بلا انقطاع قمة المخروط المؤطر في حقل منظارهم ومتناوبين كلاً في دوره. ظل الأفق معتماً بما فيه الكفاية بينما كانت أكثر مجموعات نجوم سماء إفريقيا الجنوبية جمالاً تلمع في السمت. لم يعكر صفو الجو أيّة نسمة. كان الصمت العميق للطبيعة شديد الوطأة.

أثناء ذلك كان البشماني وقد تمركز عند نتوء إحدى الصخرات، يصغي إلى الضجيج المتنامي من السهل. رويداً رويداً، أضحت تلك الأصوات أكثر تمييزاً. لم يخطء موكوم أبداً في تخميناته. يُعد الموكولولو لهجوم كبير على سكورزيف.

حتى الساعة العاشرة، لم يرم المحاصِرين حراكاً، أُطفئت نيرانهم وغرق المخيم والسهل في الظلمة نفسها. بغتة لمح البشماني ظلالاً تتحرك على جنبات الجبل. لم يكن المحاصرون في ذلك الوقت ليبعدوا مائة قدم عن الهضبة التي تحوط القلعة.

- انتباه! انتباه! صاح موكوم.

على الفور خرجت الحامية الصغيرة إلى الجبهة الجنوبية، وبدأت باطلاق نيران كثيفة ضد المهاجمين. رد الموكولولو بصيحات حربهم. ورغم رشق الرصاص المتواصل، تابعوا ارتقاء الجبل. يمكن أن نلمح على لمعان انفجار الطلقات، محَشراً من أولئك السكان يتوافدون بعدد يبدو من خلاله أنّ أيّة مقاومة ستكون مستحيلة. مع ذلك، كانت طلقات لا تضيع

واحدة منها عبثاً، تصنع مجزرة مريعة وسط تلك الكتل البشرية. من أولئك الموكولولو كانت مجموعات منهم تتساقط ويتدحرج بعضهم فوق البعض الآخر حتى أسفل الجبل. استطاع المحاصَرون أثناء التوقف القصير لدويّ الطلقات أن يسمعوا صراخهم الشبيه بصياح الحيوانات المتوحشة. لكن لا شيء يوقفهم. إنّهم يصعدون باستمرار بصفوف متراصة، دون أن يرشقوا سهماً واحداً- لا يتسع الوقت لهم ليفعلوا ذلك- لكنهم يرغبون في الوصول مع ذلك إلى قمة سكورزيف.

كان الكولونيل إفريست يترأس جماعته في عملية إطلاق النار. ويسانده زملاؤه المسلحون مثله بشجاعة فائقة، دون أن يستثنوا بالاندر الذي كان يستعمل بلا شك بندقية للمرة الأولى. كان السيد جون، تارة فوق صخرة وتارة فوق أخرى، طوراً جاثياً وطوراً منبطحاً، يصنع العجب ببسالته. وكانت بندقيته التي سخنت من سرعة الإطلاق قد أخذت تحرق يديه. أما البشماني في تلك المعركة الدموية، كان قد رجع ذلك الصياد الصبور والجريء والواثق من نفسه الذي نعرفه.

مع ذلك، لم تستطع شيئاً، لا بسالة المحاصَرين الرائعة، ولا ثقتهم بتسديدهم، ولا دقة أسلحتهم أمام السيل الذي كان يصعد نحوهم. يموت واحد من السكان فيحل محله عشرون. وهذا كثير على التسعة عشر أوروبي! بعد نصف ساعة، تيقن الكولونيل إفريست أن الموكولولو سيطوحون بهم.

فعلاً كان مدّ المحاصرين يتقدم باستمرار. ليس فقط من المنحدر الجنوبي بسكورزيف، وإنما أيضاً من منحدراته الجانبية. كانت جثث

بعضهم تستخدم درجات لغيرهم. وكان البعض يصنع تروساً من الأموات ويصعدون الجبل وقد تغطوا بها على هذا النحو. يبدو كلّ ذلك على ضوء الانفجارات السريعة والشقراء اللون مخيفاً ومأتمياً. نعلم تماماً أنّه لا يمكن انتظار أيّة رحمة من جانب أولئك الأعداء. إنّه هجوم حيوانات متوحشة، وهجوم اولئك اللصوص المتعطشين إلى الدماء، والأكثر سوءاً من أكثر حيوانات إفريقيا توحشاً. إنّهم بحق يقومون مقام النمور التي تنقص هذه القارة!

عند الساعة العاشرة والنصف، وصل أول أفراد الموكولولو إلى هضبة سكورزيف. لا يمكن للمحاصرين أن يحاربوا وجهاً لوجه في ظروف لا تستطيع فيها أسلحتهم أن تساندهم. لذلك كانت الضرورة تقتضي البحث عن ملجأ خلف السور. لحسن الحظ الشديد. لا تزال الحامية الصغيرة سليمة، لأنّ الموكولولو لم يستعملوا بعد لا أقوامهم ولا رماحهم.

- إلى الوراء، صاح الكولونيل بصوت طغى على ضجيج المعركة.

انسحب المحاصرون بعد التفريغ الأخير لطلقاتهم، يلحقون برئيسهم إلى ما وراء أسوار القلعة. كان صياح هائل يصحب هذا الإنسحاب. على الفور وصل السكان أمام الفتحة الرئيسية محاولين التسلق.

بغتة، سُمع ضجيج هائل. شيء أشبه بتمزق كبير يحدث من تفريغ كهربائي إنّها المصفحة التي يديرها السيد جون، هي التي تتحدث. كانت مدافعها الخمسة والعشرون والموزعة بشكل مروحي، تغطي بالرصاص قطاعاً يمتد لأكثر من مائة قدم عند سطح تلك الهضبة التي ازدحم عليها

السكان المحليون. كانت الطلقات التي يتذودون بها بلا انقطاع بوساطة طريقة عمل أوتوماتيكية، تسقط كالبَرد على المحاصِرين. بذلك أخلى كنس عام المكان في لحظة واحدة. في بادىء الأمر ردت على طلقات هذا السلاح الرهيب، أصوات عويل سرعان ما اختفت. ثم سحابة من السهام لم تحدث ولا يمكن لها أن تحدث أيّ ضرر للمحاصرين.

- إنها تعمل جيداً هذه الظريفة! قال ببرود البشماني وهو يقترب من السيد جون.

غير أنّ المصفحة سكنت عند ذاك. اختفى أفراد الموكولولو باحثين عن مخبأ ضد هذا السيل من الشظايا. لقد تنحوا إلى جنبات القلعة تاركين الهضبة مغطاة بأمواتهم.

خلال هذه الفسحة من الوقت، ماذا كان يفعل الكولونيل إفريست وماثيوستروكس؟ لقد عادا مجدداً إلى مكانهما في البرج، ومن هناك كانا يراقبان في الظلمة قمة ڤولكيريا، والعين على منظار الدائرة المكررة. لا يمكن للصرخات أو المخاطر أن تؤثر على عملهما! القلب هادىء والنظرة صافية، يثيران الاستحسان برباطة جأشهما. هاهما يتناوبان أمام العدسية، ينظران ويرصدان بدقة شديدة كما لو أنهما تحت قبة المرصد.

وعندما أعلمهما صياح الموكولولو بعد استراحة قصيرة، عن بدء المعركة من جديد، بقي هاذان العالمان للحراسة قرب الجهاز الثمين يتناوبان الدور في ذلك.

فعلاً استأنف الموكولولو هجومهم. لا يمكن للمصفحة أن تجد عناء في إصابة أفراد الموكولولو الذين كانوا يتقدمون أفواجاً أمام المنافذ كلها، مطلقين صيحات الموت. في هذه الظروف وأمام هذه الفتحات التي يحمونها خطوة إثر خطوة، دارت رحى المعركة لنصف ساعة أيضاً. لم يتلق المحاصَرون تحميهم أسلحتهم النارية، إلا خدوش مردها رؤوس الرماح.

كما لم تضعف ضراوة الطرفين، بل كان الغضب يتنامى وسط هذه الاشتبكات الدائرة وجهاً لوجه.

والحال هذه ظهر عند الساعة الحادية عشرة والنصف، وكان تلاحم المتقاتلين على أشده وسط قصف الشظايا، ماثيو ستروكس أمام الكولونيل إفريست. كانت عيناه تصدر التماعاً وذعراً في آن معاً. لقد ثقب سهم قبعته وهو لا يزال فوق رأسه.

- الفانوس! الفانوس. صاح قائلاً.

- ماذا! رد الكولونيل وقد أنهى تعبئة بندقيته.

- أجل! الفانوس.

- هل رأيته؟

- أجل.

عند سماعه ذلك، أفرغ الكولونيل بندقيته للمرة الأخيرة، صائحاً صيحة هوراه، وأسرع نحو البرج يتبعه زميله المقدام.

هناك جثا الكولونيل إفريست أمام المنظار، وأخذ ينظر وهو يضغط دقات قلبه! آه! يا الله كيف تمر حياته كلها في هذه اللحظة أمام ناظريه! أجل، كان الفانوس هناك متلألئاً وسط خطوط الشبكية! أجل كان الضوء يلمع عند قمة ڤولكيريا! أجل، وجد أخيراً المثلث الأخير قمة إستناده.

كان بحق مشهداً مثيراً للعجب أن نرى هذين العالمين يعملان وسط جلبة المعركة. استطاع الموكولولو لكثرة عددهم اقتحام السور. كان السيد جون والبشماني يدافعان عن الأرض شبراً شبراً. كانت سهام الموكولولو ترد على الطلقات وضربات الرماح ترد عليها الفؤوس. مع ذلك كان الكولونيل إفريست وماثيوستروكس، الواحد قرب الآخر ينحنيان على جهازهما ويرصدان دون توقف! إنهما يكرران مرات عديدة نتائج الدائرة المكررة كي يصححوا أخطاء القراءة، ويسجل نيكولا بالاندر البارد الأعصاب نتائج عمليات الرصد في سجله! أكثر من مرة، لامس سهم رؤوسهم، ثم تحطم على الجدار الداخلي للبرج، مع ذلك كانا يسددان على قمة ڤولكيرياء ثم يفحصان بالمكبرة علامات الورنية، ويتحقق الواحد منهما دون توقف من النتائج التي حصل عليها الآخر!

- عملية أخرى. قال ماثيوستروكس وهو يُزلق المنظار على القوس المتدرجة.

في النهاية سبب حجر كبير رماه واحد من السكان، طيران السجل من يديّ نيكولا بالاندر وقَلْب الدائرة المكررة، وبالنتيجة تحطيمها.

غير أنّ عمليات الرصد كانت قد انتهت! تحدد اتجاه الفانوس بقيمة تقربية تصل إلى أجزاء المليمتر من الثانية!

عليهم الآن الهرب وإنقاذ نتائج هذه الأعمال الباهرة المجيدة. كان السكان المحليّون وقد دخلوا إلى القلعة، ويمكن لهم من لحظة إلى أخرى أن يظهروا عند البرج. استعاد الكولونيل إفريست وزميلاه أسلحتهم والتقط بالاندر سجله الثمين، ثم لاذوا بالفرار عبر واحدة من الفتحات. كان زملاؤهم هناك، وقد أصيب بعضهم بجراح بسيطة، جاهزين لعملية الإنسحاب.

لكن في اللحظة التي هموّا فيها. بنزول منحدرات سكورزيف الشمالية صاح ماثيوستروكس:

- إشارتنا!

في الحقيقة، تجب الرد على فانوس ڤولكيريا باشارة ضوئية - يجب لإنهاء العملية الجيودوزية أن يرى وليم إميري وميشيل زورن بدورهما قمة جبل سكورزيف. إنّهما بلا ريب ينتظرون في القمة التي يقفان عليها أن تلوح لهما هذه الإشارة بفارغ الصبر.

- مزيداً من الجهد! صاح الكولونيل إفريست.

وبينما كان زملاؤه يصدون بطاقة تتجاوز حدود البشر صفوف الموكولولو، دخل هو إلى البرج. كان ذلك البرج مبنياً من هيكل مُركب من الخشب الجاف. تكفي شرارة صغيرة لتحوله إلى نيران متقدة. أشعله الكولونيل بشرارة. على الفور فرقع الخشب. وسرعان ما انضم الكولونيل إلى زملائه بعد أن أسرع خارجاً.

بعد عدة دقائق، وتحت وابل من السهام والأجساد المتدحرجة من أعلى سكوزريف، نزل الأوروبيون المنحدرات وهم يزلقون أمامهم المصفحة التي لا يرغبون بتاتاً في تركها وراءهم. ثم بلغوا الزورق بعد أن أبعدوا مرة أخرى السكان المحليين بتأثير شظاياهم القاتلة.

كان الميكانيكي تلبية لإرادة الرئيس قد أبقى الزورق في حالة ضغط. أُرخي القلوس، وبدأت المروحة بالعمل. سار زروق الملكة وقيصر متقدماً بسرعة فوق مياه البحيرة المظلمة.

خلال فترة وجيزة أضحى الزورق بعيداً جداً لدرجة لا يستطيع المسافرون فيها رؤية قمة سكورزيف. كان البرج المشتعل يلمع مثل منارة ويمكن أن ينقل بسهولة فائقة ضوءه الساطع حتى قمة ڤولكيريا.

حيت صيحة هوراه عظيمة أطلقها الإنكليز والروس. هذا المشعل العملاق الذي كان يشق ظلمة الليل على امتداد محيط دائرة كبيرة الحجم.

لا يمكن لميشيل زورن ووليم إميري أن يتشكيا!

لقد أظهرا نجمة وردوا عليهما بشمس!

* * *

حيث رحل نيكولا بالاندر

عندما لاح نور الصباح، كان الزورق البخاري يرسو عند الضفة الشمالية للبحيرة. هناك ينتهي أي أثر للسكان المحليين. لذا تجرد الكولونيل إفريست ورفاقه من أسلحتهم، بعد أن كانوا يتهيأون لإطلاق النار. توقف قارب الملكة وقيصر عند جوين صغير محفور بين امتدادين من الصخور.

رحل البشماني والسيد جون موراي وواحد من البحارة ليجوبوا الأنحاء. كان الصقع قفراً لا أثر فيه للموكولولو.

غير أنّه لحسن حظ القافلة المتضورة جوعاً، لم تكن الفرائس لتنقص أبداً. كانت قطعان الظباء ترعى بين الأعشاب العالية للمراعي وتحت غطاء الأدغال. كما كان يتردد على ضفاف نغامي عدد كبير من الطيور المائية التي تنتمي لفصيلة البط. عاد الصيادون بمؤونة وفيرة. يمكن حينئذ للكولونيل ورفاقه أن يستعيدوا قواهم بهذا الغذاء الشهي الذي لا يمكن بعد الآن أن يعانوا من نقصانه.

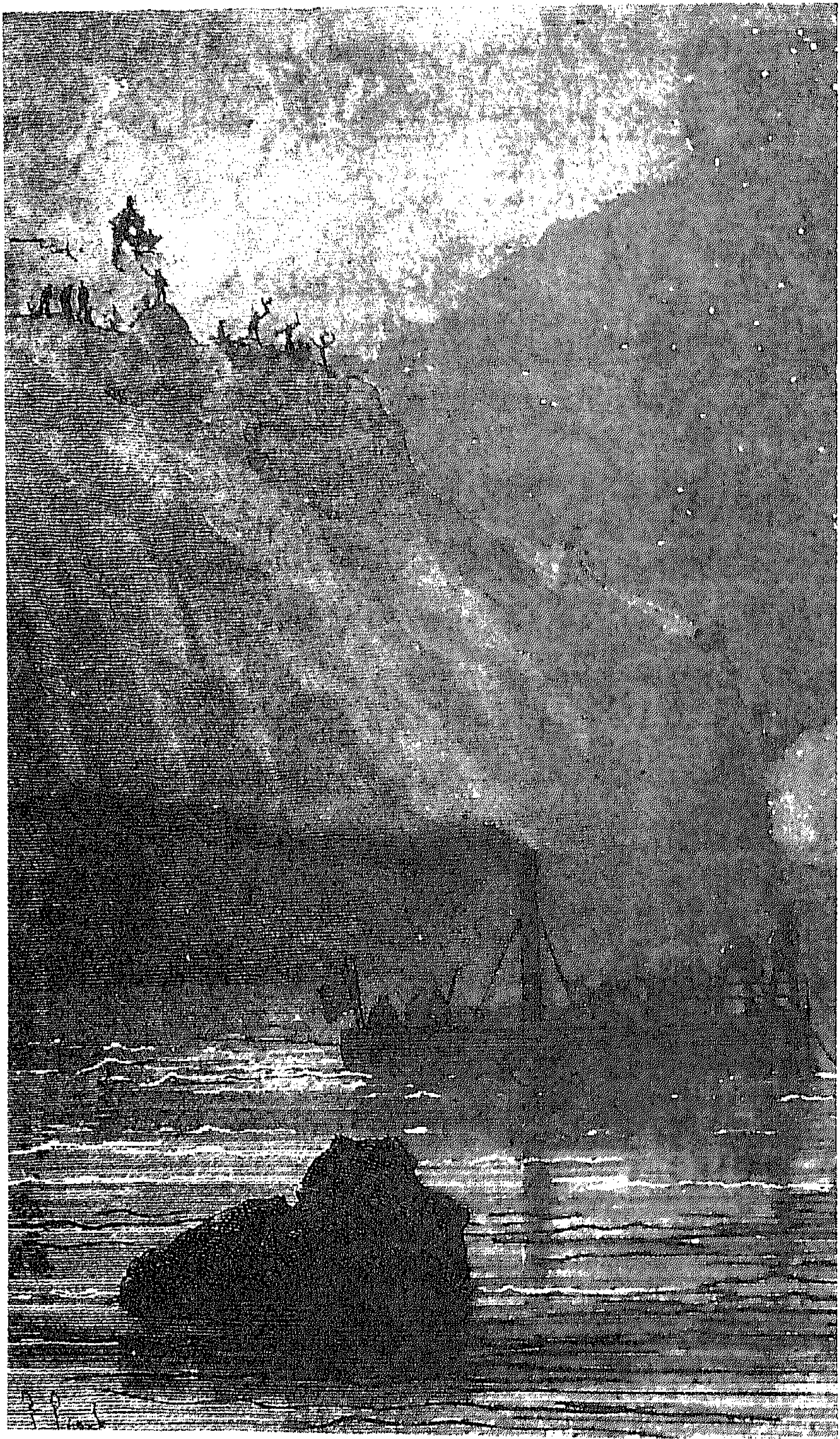
ابتداء من الخامس من آذار، جُهز المخيم عند شاطىء نغامي، على ضفة نهر صغير تحت ظلال أشجار الصفصاف الكبيرة. كان مكان اللقاء المتفق عليه مع الفوريلوبه. هو بالتحديد تلك الضفة الشمالية من البحيرة، التي أحدث هذا الخليج الصغير تجويفاً فيها.

هناك، يتوجب على الكولونيل إفريست وماثيوستروكس أن ينتظرا زملائهما. من المحتمل أنهم سيسلكا طريق العودة في ظروف أفضل وبالتالي بسرعة أكبر. بذلك أمامهم بضعة أيام من الراحة القسرية لا يفكر واحد منهم بالتشكي منها بعد كل ذلك العناء. استغل نيكولا بالاندر هذه الأيام في حساب النتائج الأخيرة للعمليات المثلثاتية.

أمام موكوم والسيد جون المهووسان بالصيد، فقد تسليا في هذه المنطقة الخصبة والمروية جيداً والغنية بالفرائس. والتي كان الإنكليزي المحترم يرغب بشرائها عن طيب خاطر، لحساب الحكومة البريطانية.

بعد ثلاثة أيام، أي في الثامن من أذار، أعلن دوي الرصاص عن وصول قافلة الفوريلوبه. عاد ووليم إميري وميشيل زورن والبحاران والبشماني بصحة جيدة. كما عادت معهما سليمة الدائرة المكررة، وهي الآن الجهاز الوحيد الذي بقي تحت تصرف اللجنة الإنكليزية - الروسية.

كيف استقبل هاذان الشابان العالمان ورفاقهما. لا يمكن وصف ذلك. لم يألوا جهداً في تهنئتهم. ببضع كلمات قص الشابان مجريات الرحلة. كان طريق الذهاب صعباً. لقد تاها لمدة يومين في غابات ممتدة الطول كانت تتقدم منطقة الجبال. ولأنّهما لا يستندان إلى علامة استدلال واضحة، ويتبعان في سيرهما إرشادات البوصلة المبهمة، كان من المستحيل عليهما بلوغ قمة ڤولكيريا لولا فطنة مرشدهم. لقد أظهر الفوريلوبه في الأوقات كلها وعلى الدوام ذكاء وإخلاصاً. كما كان تسلق الجبل عسيراً. من هنا حصل التأخير الذي عانى منه الشابان بنفاذ صبر لا يقل عن نفاذ صبر زملائهم على قمة سكورزيف. أخيراً. تمكنا من بلوغ قمة ڤولكيريا. نُصب



الفانوس الكهربائي نهار الرابع من آذار، وأثناء ليلة الرابع حتى الخامس منه لمع ضوؤه للمرة الأولى عند رأس الجبل، بعد أنْ تم تكبيره بمرآة عاكسة قوية. هكذا تمكن الراصدون من ملاحظته في الوقت ذاته تقريباً الذي تراءى فيه.

من جانبهما: لمح ووليم إميري وميشيل زورن بسهولة النار المتقدة التي كانت تلمع عند قمة سكورزيف، أثناء حريق القلعة. فحدداً اتجاهها بوساطة المزولة. بذلك أنهوا قياس المثلث الذي كان رأسه يستند إلى قمة ڤولكيريا.

- وخط عرض هذه القمة؟ سأل الكولونيل إفريست ووليم إميري. هل حسبتماه؟

- أجل يا سيدي الكولونيل. بفضل عمليات رصد للنجوم تمت على أكمل وجه. رد عالم الفلك الشاب.

- هذه القمة تقع ... ؟

- على خط ٣٣٧ و ١٩٣٧٣٥ وبتقريب يصل إلى ثلاثمئة وسبعة وثلاثين ملمتيراً في الثانية. رد ووليم إميري.

- حسن أيها السادة. استأنف الكولونيل، مهمتنا على هذا النحو قد انتهت. استطعنا قياس قوس هاجرة ممتد إلى ثمانية درجات بوساطة ثلاثة وستين مثلثاً. وعندما يتم حساب نتائج عملياتنا، نستطيع بدقة لا متناهية معرفة قيمة الدرجة وبالتالي قياس المتر في هذا الجزء من شبه الكرة الأرضية.

- هوراه! هوراه. صاح الإنكليز والروس وقد وحد بينهم الشعور ذاته.

- الآن. أضاف الكولونيل إفريست. لم يتبق علينا سوى بلوغ المحيط الهندي. بهبوطنا مجرى الزامبيز. أليس هذا هو رأيك يا سيد ستروكس؟

- أجل ياكولونيل. رد عالم فلك بولكوفا. غير أنني أعتقد أنّه لزام علينا التحقق من عملياتنا بتدقيق حسابي. أقترح لذلك أن نستمر شرقاً في الشبكة المثلثانية، حتى اللحظة التي نجد فيها مكاناً ملائماً لقياس قاعدة جديدة بشكل مباشر. إنّ التطابق بين طول هذه القاعدة والذي حصلنا عليه عن طريق الحساب وطول القاعدة الأخرى عن طريق القياس المباشر على الأرض، كفيل وحده أن يدلنا بيقين مطلق على الدرجة التي من المناسب إسنادها لعملياتنا الجيودوزية!

تبنى الجميع اقتراح ماثيوستروكس دون جدال، كانت مراجعة سلسلة الأعمال المثلثانية ابتداء من القاعدة أمراً لا مفر منه. لذا تم الاتفاق على الاستمرار بإنشاء سلسلة من مثلثات إضافية، باتجاه الشرق، حتى الوقت الذي يمكن فيه قياس واحد من أضلاع هذه المثلثات مباشرة عن طريق المساطر البلاتينية. لذلك توجب على الزورق البخاري بهبوطه روافد الزامبيز أن ينتظر علماء الفلك في أسفل شلالات فيكتوريا الشهيرة.

بتنظيم الأمور على هذا النحو، رحلت عند فجر السادس من آذار القافلة الصغيرة يقودها البشماني، ما عدا أربعة من البحارة صعدوا إلى قارب الملكة وقيصر إختيرت محطات باتجاه الشرق، وقيست زوايا. كان الأمل يراودهم في الحصول على الشبكة الإضافية بسهولة ويسر بفضل

ملائمة البلد لإعداد علامات التسديد. تمكن البشماني ببراعة فائقة من الاستيلاء على واحد من أفراد كاغا quagga، نوع من حصان بري بعُرف يتموج بين الأسمر والأبيض، ويميل لون ظهره المخطط إلى الأحمر. وجعل منه طوعاً أو كرهاً دابة مخصصة لحمل متاع القافلة الذي تم إنقاذه مع الزورق، المزولة والمساطر والحوامل المخصصة لقياس القاعدة.

سارت أمور الرحلة بسرعة لابأس بها. قليلاً ما كانت الأعمال تؤخر الراصدين. كانت المثلثات الإضافية بأطوال أضلاعها دون المتوسطة، تجد بسهولة نقاط إستناد لها في هذا البلد الوعر الطقس ملائم ولا داع للجوء إلى عمليات رصد ليلية. يمكن للمسافرين الاحتماء تقريباً على الدوام، تحت غطاء الغابات الكبيرة التي كانت تنتصب على الأرض. كما كانت الحرارة تحافظ على درجة يمكن احتمالها. وبتأثير الرطوبة التي تحافظ عليها السواقي والمستنقعات في الجو، كانت الأبخرة تتصاعد في الهواء وتخفف من حدة أشعة الشمس.

بالإضافة لذلك كان الصيد يوفر احتياجات القافلة الصغيرة كلها. السكان المحليون لا أثر لهم. من المحتمل أن زمر اللصوص تهيم على وجهها متوغله أكثر إلى جنوب نغامي.

بالنسبة للعلاقات بين ماثيوستروكس والكولونيل إفريست، لم تتسبب في أي نوع من الخلاف بينهما. على ما يبدو أن المنافسات الشخصية قد تم نسيانها. حتماً لم تكن هناك أيّة علاقة ود حقيقي بين هاذين العالمين، إنّما يجب ألاّ نطلب منهما المزيد.

خلال واحد وعشرين يوماً، من السادس حتى السابع والعشرين من آذار، لم يطرأ أي حادث جدير بالذكر. كانوا يبحثون قبل كل شيء عن مكان مناسب لإعداد القاعدة. غير أنّ البلد لم يوفر لهم ذلك. كان من الضروري لإتمام هذه العملية إيجاد امتداد واسع من الأرض، مسطح أفقي على امتداد عدة أميال. تحديداً كانت حركات الأرض والانتفاخات الملائمة تماماً لاعداد علامات التسديد، تتعارض مع القياس المباشر للقاعدة. لذلك كانوا يتوجهون باستمرار نحو الشمال الشرقي، متتبعين أحياناً الضفة اليمنى لشوبة Chobe، واحد من الروافد الأساسية لنهر الزامبيز الأعلى، بطريقة يتجنبون فيها ماكيتو، القرية الرئيسة للموكولولو.

على هذا النحو، يمكن لهم تأمل إتمام عملية العودة في شروط مناسبة وألاّ تضع الطبيعة بعد الآن، في طريق علماء الفلك العراقيل أو العوائق الطبيعية، وأنّ زمن المحن لن يعود من جديد أبداً. كان الكولونيل إفريست ورفاقه يجوبون في واقع الأمر صقعاً معروفاً نسبياً، ولن يتأخروا عن لقاء قرى وضيع الزامبيز التي كان الدكتور ليڤينغستون قد زارها في الماضي، لذلك كانوا يرون، وهم تجانبون الصواب في ذلك، أن القسم الأكثر مشقة في إنجازهم قد انتهى. وهم ليسوا مخطئين في ذلك على الأغلب. مع هذا، كاد حادث يمكن لعواقبه أن تكون وخيمة جداً أن يُعرّض بشكل لا يعوض نتائج البعثة كلها للخطر.

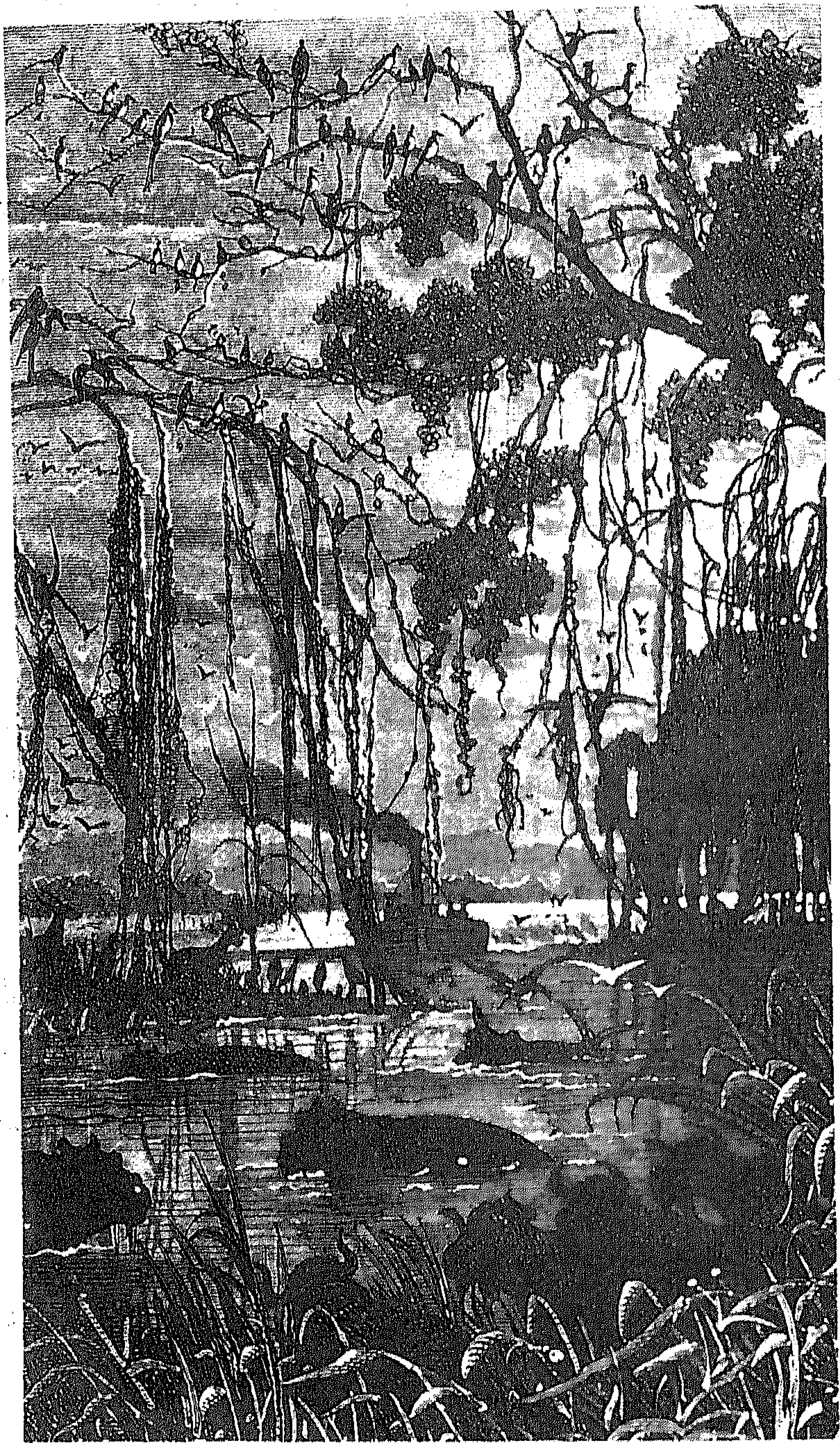
إنه نيكولا بالاندر الذي كان البطل أو بالحري الذي ظن أنّه ضحية هذه المغامرة.

نحن نعلم أن هذا الشجاع كان يترك نفسه تشرد أحياناً بعيداً عن رفاقه، كونه غارقاً دوماً في أرقامه دون أن يعي ذلك. لا يمكن لهذه العادة في أرض سهلية أن تشكل خطراً كبيراً. إذ يمكن العودة بسرعة لاقتفاء أثر الغائب.

لكن في منطقة مشجرة، يمكن لشرود ذهن نيكولا بالاندر أن يؤدي إلى نتائج على قدر كبير من الخطورة. لذلك لفت ماثيوستروكس والبشماني نظرهُ آلاف المرات إلى هذا الموضوع. كان العالِم يعدهما بالخضوع لهذا الأمر وهو في غاية الدهشة من هذه المبالغة في الحذر. لقد كان الرجل المحترم لا يلحظ حتى شرود ذهنه!

وعلى هذا المنوال، تحديداً أثناء يوم السابع والعشرين من آذار، قضى ماثيوستروكس والبشماني ساعات عديدة دون أن يفطنا لغياب نيكولا بالاندر. كانت القافلة الصغيرة تجتاز أثناء ذلك حرجات فسيحة، تتألف من أجمات قصيرة وكثيفة كانت تحجب الأفق تماماً في هذا الظرف يقتضي البقاء في مجموعة واحدة متماسكة، إذ سيكون من الصعب إيجاد آثار الشخص التائه في هذه الغابات. غير أنّ نيكولا بالاندر دون أن يرى ذلك أو يحتاط له، توجه القلم بيد والسجل في اليد الأخرى، إلى الجانب الأيسر من القافلة. ولم يلبث أن اختفى عن الأنظار.

لا يمكننا تصور مدى القلق الذي عانى منه ماثيوستروكس ورفاقه، عندما، نحو الساعة الرابعة مساء، اكتشفوا غياب نيكولا بالاندر. كانت ذكرى حادثة التماسيح لا تزال ماثلة في أذهانهم. ومن بين الجميع كان المحاسب شارد الذهن الوحيد على الأرجح الذي قد نسيها!



وعلى هذا سيطر قلق فظيع على القافلة الصغيرة. ومنعها من متابعة السير إلى الأمام، ما دام نيكولا بالاندر لم يلتحق بها.

ناداه الجميع عبثاً. تفرق البشماني والبحارة على بعد ربع ميل من كل جهة، يجوبون الأدغال ويفتشون الغابة وينقبون بين الأعشاب السامقة ويطلقون العيارات النارية! لا شيء. لم يظهر نيكولا بالاندر من جديد أبداً. كان قلق الجميع بالغاً للغاية، لكن يلزم القول، أنّه إضافة لذلك القلق عند ماثيوستروكس، كان حنق بالغ يعتمل في صدره إزاء ذلك الزميل المزعج. إنّها المرة الثانية التي يتكرر فيها هذا الحادث بسببه. والحق يقال. لو أراد الكولونيل إفريست تقريعه وتحميله المسؤولية، فلن يعرف، هو ماثيوستروكس، حتماً بماذا يرد عليه.

في هذه الظروف، ليس في يدهم سوى حل واحد عليهم إتخاذه. التخييم في الغابة والعمل على إجراء تفتيشات دقيقة جداً للعثور على المحاسب.

تهيأ الكولونيل ورفاقه للتوقف قرب حرجة واسعة تماماً، عندما دوت صرخة. صرخة لا تحمل في طياتها أيّ طابع إنساني، على بُعد عدة خطوات إلى يسار الغابة. سرعان ما ظهر نيكولا بالاندر. إنّه يركض بأقصى سرعة، عارِ الرأس، منتفش الشعر ويكاد يكون عارياً، إذ لم تعد سوى خرق بالية تستر صُلْبه.

وصل البائس قرب رفاقه الذين أخذوا يضيقون عليه بالأسئلة. لكن الرجل المسكين، قد فتح عيناه على وسعهما، وتوسعت حدقتاه وتسطّح منخراه، حتى أضحى تنفسه يخرج متقطعاً وناقصاً، لم يتمكن من الكلام. إنه يرغب الإجابة غير أن الكلمات لا تخرج من فمه.

ما الذي حصل؟ لماذا هو في هذه الحالة؟ لماذا هذا الرعب الذي كان نيكولا بالاندر يُظهر إلى أعلى حد أكثر علاماته وضوحاً؟ لم يتمكنوا من تكهن ذلك .

أخيراً فلتت من حنجرة بالاندر هذه الكلمات التي بالكاد واستطاعوا فهمها :

- السجلات! السجلات!

عند سماعهم هذه الكلمات ارتجف علماء الفلك كلهم الرجفة نفسها . لقد فهموا! السجلات . السجلان اللذان كُتب فيهما نتائج العمليات المثلثانية كلها ، السجلان اللذان لم يكن المحاسب يفترق عنهما حتى وهو نائم ، هذا السجلان غير موجودين! لم يعد نيكولا بالاندر يحمل هذين السجلين! هل أضاعهما؟ هل سرقا منه؟

هذا لا يهم! هذا السجلان قد فقدا! يلزم إعادة كل شيء من جديد ، وبدء العمل من جديد!

بينما كان رفاقه المذعورون ، هذه هي الكلمة ، يتبادلون النظر بصمت ، ترك ماثيوستروكس نفسه على سجيتها وقد استشاط غضباً . لم يعد يتمالك نفسه! كم عامل البائس بقسوة! وكم نسب إليه من صفات سيئة! إنّه لا يخشى أن يهدده بغضب الحكومة الروسية الكبير ، مضيفاً إنّه إذا لم يقض نحبه تحت ضربات السوط فسيرسله للموت في سيبيريا!

على كل هذه الأشياء ، لم يكن نيكولابالاندر تجيب إلا بهز رأسه من الأسفل إلى الأعلى . إنّه يبدو مواقفاً على هذه العقوبات كلها وكأنّه يقول أنّه يستحقها وإنّها لا تتناسب وفعلته الشنعاء .

- إذن لقد سُرقا! قال أخيراً الكولونيل إفريست.

- لا يهم. صاح ماثيوستروكس خارجاً عن طوره. لماذا ابتعد هذا البائس عنا؟ لماذا لم يبق قريباً بعد كل هذه النصائح التي قدمناه له؟

- أجل. رد السيد جون لكن علينا في النهاية معرفة ما إذا كانت السجلات قد فُقدت أم أنّها سرقت منه؟ هل سرقوها منك يا سيد بالاندر؟ سأل السيد جون وهو يستدير نحو الرجل التعس، والذي كان قد تهالك أرضاً من التعب. هل سرقوك؟

هز نيكولا بالاندر رأسه دليل الموافقة.

- من الذي سرقها؟ استأنف السيد جون قوله هل هم من السكان المحليين من الموكولولو؟

نفى نيكولا ذلك بهزة من رأسه.

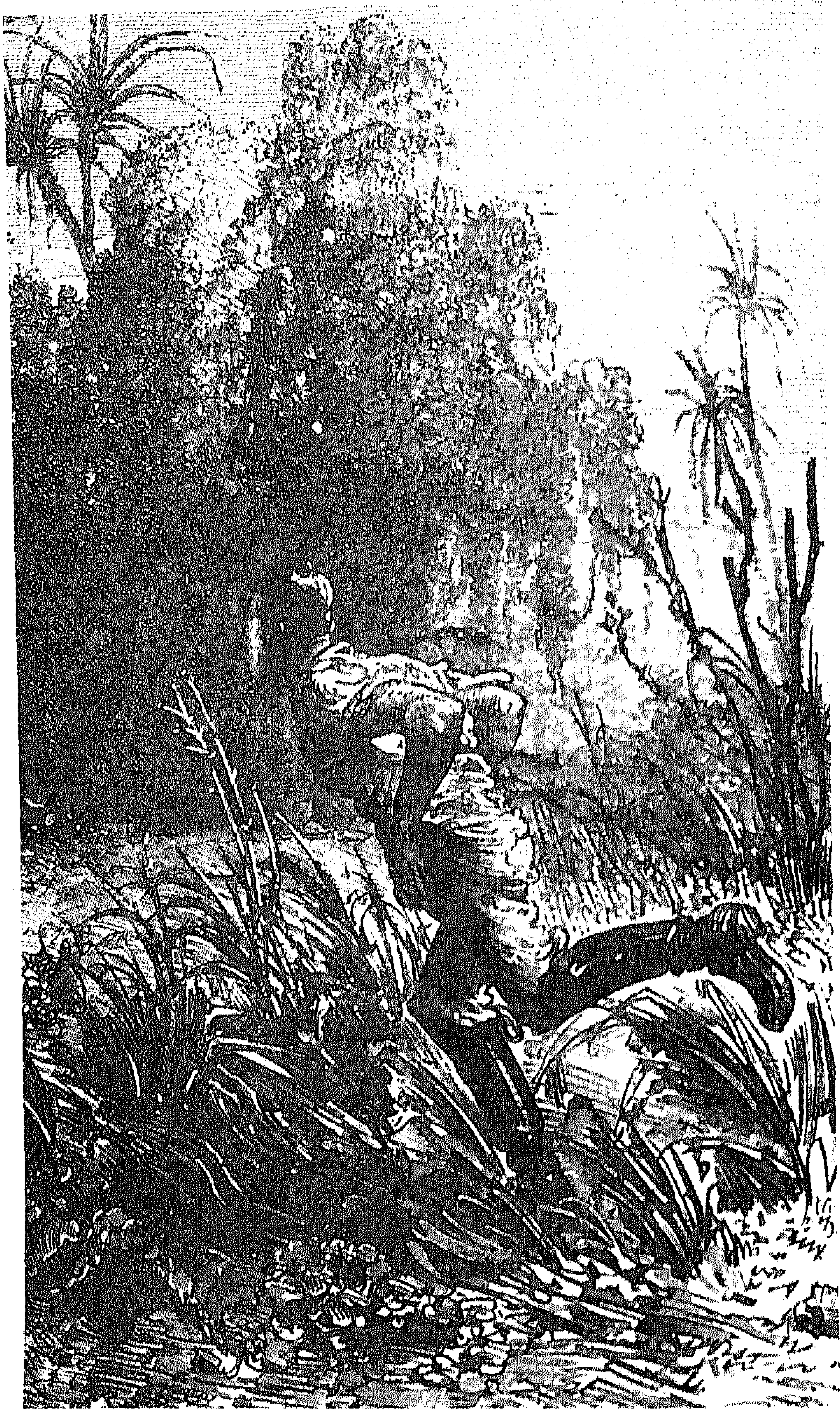
- أوربيون من البيض؟ أضاف يسأله.

- كلا. رد نيكولا بالاندر بصوت مخنوق.

- من إذن؟ صاح ماثيوستروكس وهو يمد يديه المتشنجتين نحو وجه ذلك التعس.

- كلا! قال نيكولا بالاندر. لا رجال محليين ولا بيض. إنّها سعادين القرد وحيات!

حقاً لو لم تكن عواقب هذه الحادثة وخيمة جداً، لكان الكولونيل ورفاقه قد انفجروا ضاحكين من هذا الاعتراف!



لقد سرقت القرود نيكولا بالاندر!

وضحّ البشماني لرفاقه أنّ هذا الأمر غالباً ما يتكرر وقوعه. حسب معرفته، سلبت المسافرين بالقوة مرات عديدة قرود الشاكماس «chacmas» أيّ كلبيات الرؤوس التي تنتمي لفصيلة القردو حيات. نجد في غابات إفريقيا مجموعات عديدة منها. لقد نهب أولئك اللصوص المحاسب، وليس دون أن يدخل في عراك معها، كما تشهد بذلك ملابسه التي تحولت إلى مزق. لكن ذلك لا يجد العذر له بأيّة طريقة- لو أنّه بقي مكانه لما كان الأمر ليحدث، ولما فقدت اللجنة العلمية سجليها -فقداناً لا يمكن تعويضه- ولما ذهبت أخطار عديدة وآلام شتى وتضحيات كبيرة أدراج الرياح.

- الواقع لم تكن ثمة حاجة لقياس قوس الهاجرة في جنوب إفريقيا، من أجل أن يأتي أخرق... قال الكولونيل. لم يكمل جملته. ما جدوى أن يثقل كاهل التعس الذي كان أصلاً يرزح تحت وطأة فعلته، ولم يتوقف السيد ستروكس الغضوب عن إغراقه بوابل من الصفات الأكثر شناعة!

مع ذلك كان لا بد من أخذ الأمور بالرّوية. كان البشماني من أخذ على عاتقه ذلك. هو فقط، كونه أقلّ من يمسه هذا الفقدان مباشرة، من كان يحتفظ برباطة جأشه في هذه الحادثة. يجب أن نُقر أنّ الأوربيين دون استثناء كانوا يشعرون بالإحباط.

- أيّها السادة. قال لهم البشماني. أنا أعلم مقدار يأسكم، لكنّ الدقائق أثمن من أن نضيعها. لقد سرقت تلك السجلات من السيد بالاندر. سلبتها القرود منه بالقوة. حسن! فلْنهرع دونما تأخير لملاحقة

اللصوص. هذه القرود تُعنى بالأشياء التي تنتزعها من الآخرين! بالإضافة لذلك، هذه السجلات لا تؤكل، فإذا ما وجدنا السارق سنجد السجلات معه!

كان الرأيّ سديداً. إنّه شعاع أمل أوقده البشماني، يجب ألاّ يُخمد. عند هذا الإقتراح شعر نيكولا بالاندر بالحياة من جديد. استيقظ في داخله رجل آخر. رتب المزق التي تستر جسده، قَبِل بسترة واحد من البحارة، وقبعة آخر، وصرّح بأنّه جاهز ليدلّ رفاقة على مسرح الجريمة!

في ذلك المساء عينه، تغير الطريق حسب الإتجاه الذي دلّ عليه المحاسب. اتجهت قافلة الكولونيل إفريست في سيرها نحو الشرق أكثر. لم تسفر تلك الليلة والنهار الذي تلاها عن أيّة نتيجة ممكنه. تحقق البشماني والفوريلوبه، من مرور تلك القرود كلبيات الرؤوس في عدة أماكن ومنذ فترة وجيزة، بفضل الآثار التي تركتها على الأرض وفوق لحاء الأشجار. كما أكدّ نيكولا بالاندر أنّه قام بمواجهة العشرات من هذه القرود. لذا سرعان ما اطمأنوا إلى أنهم في موقعهم تماماً. فتابعوا السير بحذر شديد محتجبين دوماً، لأنّ هذه القرود حيوانات لبيبة وفطنة لا تدع أحداً يقترب منها بسهولة. لن ينجح البشماني في الوصول إلى هدفه إلا أذا أخذ القرود على حين غرة.

في اليوم التالي، نحو الساعة الثامنة صباحاً، رأى واحد من البحارة الروس، وكان يسير في المقدمة، إنْ لم يكن السارق، فعلى الأقل واحد من أصدقاء سارق نيكولا بالاندر. رجع بحذر نحو القافلة الصغيرة. أمر البشماني بالتوقف. انتظر الأوربيون أوامره وقد قرروا إطاعته في كل

شيء. طلب البشماني منهم البقاء في هذا المكان واتجه مصطحباً معه السيد جون والفوريلوبه، نحو الجزء من الغابة الذي زاره البحار، حريصاً على الدوام على الأجتماء بالأشجار والأشواك.

سرعان ما لمحوا القرد المشار إليه، كما لمحوا في الوقت ذاته تقريباً، حوالي عشرة منها كانت تنط بين الأشجار. راقب البشماني ورفيقاه، وقد كمنوا خلف جذع شجرة، القرود باهتمام بالغ.

إنّها حقاً كما قال موكوم جماعة من قرود الشاكما، يغطي جسدها وبر يميل إلى الأخضر، أذناها ووجهها أسود اللون، الذيل طويل يكنس الأرض بفعل حركته الدائمة. إنّها حيوانات شديدة البأس، عضلاتها القوية وفكها المسلّح بالأسنان ومخالبها الحادة، كل هذا يرعب الحيوانات حتى المتوحشة منها، وتمثل هذه القرود، كونها من الحيوانات الأكثر إغارة من نوعها، ومن أكبر مختلسي حقوق القمح والذرة، الرعب للفلاحين الذين كانت تكتسح منازلهم في أغلب الأحايين. إنها تنبح وتعوي أثناء لَعِبها مثل كلاب كبيرة سيئة التدريب كانت تشبهها بشكلها. لم يلمح واحد منها الصيادين الذي كانوا يراقبونها.

هل سارق نيكولا بالاندر بين المجموعة يا ترى؟ إنّها النقطة المهمة الواجب تحديدها. غير أنّ الشك زال تماماً عندما أشار الفوريلوبه لرفاقه على واحد من هذه القرود كانت قطعة قماش قد نزعها من ثياب نيكولا بالاندر لا تزال تلتف حول جسده.

آه! كم أضحى أمل السيد جون موراي كبيراً! إنّه لا يشك قط أن هذا القرد الكبير الحجم هو حامل السجلات المسروقة! لذا يقتضي الأمر القبض

عليه مهما كلف الثمن! لذلك يلزم العمل بيقظة كبيرة. إن أيّ حركة تصدر خطأ يترتب عليها هرب القطيع بكامله عبر الغابة، دون ان يتمكنوا بعد ذلك من اللحاق به.

– ابق هنا. قال موكوم للفوريلوبه. سأوافي أنا وسيادته رفاقنا حتى نأخذ الترتيبات اللازمة لتطويق القطيع. عليك فقط ألا تدع هؤلاء المغيرين يغيبون عن ناظريك.

بقي الفوريلوبه في المكان المعين وعاد البشماني والسيد جون إلى حيث الكولونيل إفريست.

إنّ تطويق قطيع القرود كان في الواقع الوسيلة الوحيدة للقبض على المتهم. انقسم الأوربيون فريقين الأول يتألف من ماثيوستروكس وميشيل زورن وثلاثة بحارة، عليه الإنضمام للفوريلوبه والإنتشار حوله على شكل نصف دائرة. الفريق الآخر الذي يضم موكوم والسيد جون والكولونيل ونيكولا بالاندر والبحارة الثلاثة الآخرين، اتجهوا إلى اليسار، بطريقة يدورون فيها حول الموقع وينقضون على قطيع القرود.

حسب توصية البشماني يلزم التقدم بحذر شديد. الأسلحة مهيأة. تم الاتفاق على أنّ القرد صاحب قطع الثياب سيكون هدف كل الطلقات.

كان نيكولا بالاندر الذي يجد صعوبة في تهدئة حماسه يمشي قرب موكوم. كان ذلك الأخير يراقبه خشية أن يقوده غضبه إلى إقتراف حماقة ما. في الحقيقة، لم يعد عالم الفلك المحترم يتمالك نفسه. إنها بالنسبة له قضية حياة أو موت.

بعد نصف ساعة من السير نصف الدائري، كَثُرت خلاله محطات التوقف، حدد البشماني أنّ وقت الإنقضاض قد أصبح مناسباً. تقدم بهدوء رفاقه وقد سار كل واحد على بعد عشرين خطوة من الآخر. لا ينبس أحد بكلمة، لا يخاطر أحد بحركة خاطئة أو يتسبب بطقطقة غصن. يمكن أن نشبههم بفرقة تزحف على ميدان الحرب.

توقف الصياد فجأة. توقف رفاقه على الفور. الإصبع على الزناد والبندقيه جاهزة للتستند إلى الكتف. كان قطيع القرود على مرأى ناظريهم. لقد شعرت الحيوانات بشيءما. لبثت في مكانها إلا واحد ذو قامه طويلة.

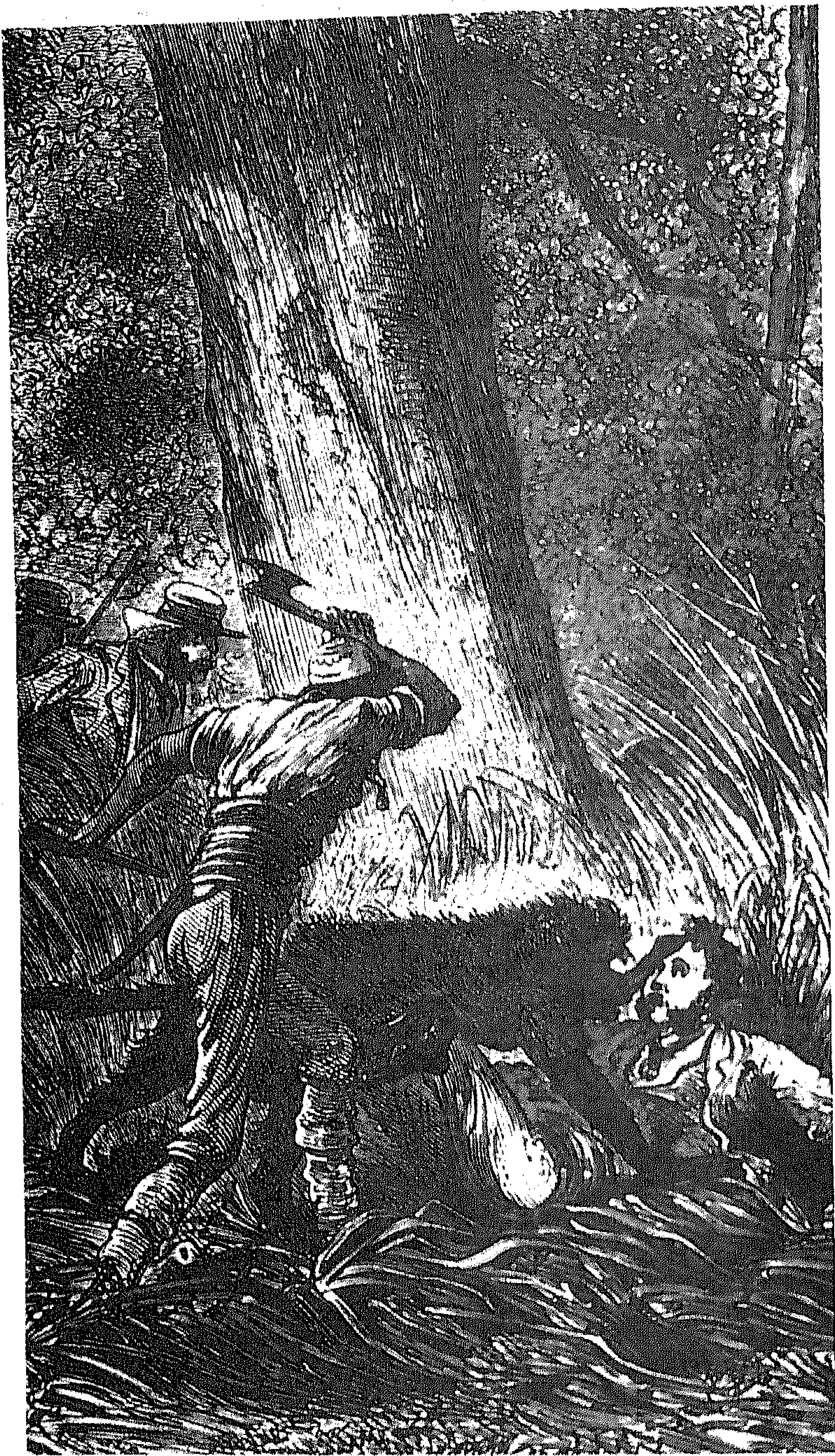
تحديداً سارق السجلات - كان يصدر إشارات واضحة تنم عن قلقه. تعرّف نيكولا بالاندر على قاطع طريقه. لا يبدو أنّ هذا القرد قد احتفظ بالسجلات معه، أو على الأقل هم لا يتمكنون من رؤيتها.

- له هيئة صعلوك! همس العالِم.

بدا هذا القرد الضخم وقد ساوره قلق بالغ يرسل إشارات إلى رفاقه، اجتمعت الإناث وأطفالها تتعلق بكتفها في مجموعات. وكان الذكور يروحون ويأتون حولها.

اقترب الصيادون أكثر. تعرّف كل واحد منهم على السارق ويمكن له سلفاً أن يسدد عليه بدقة بالغة. لكن بحركة لا إرادية، انطلقت رصاصة من بندقية نيكولا بالاندر.

- اللعنة! صاح السيد جون وهو يُفرغ بندقيته.



يا له من عمل! أجابت عليه عشر طلقات! سقطت ثلاثة قرود صريعة على الأرض. أما البقية، فلقد قفزت قفزة عظيمة ومرت كأنها كتل مجنحة فوق رأس البشماني ورفاقه.

بقي قرد واحد! إنّه اللص. بدل أن يفر هارباً وثب على جذع شجيرة جُميز وتسلقها بخفة بهلوان، واختفى بين الأغصان.

- هذا هو المكان الذي أخفى فيه السجلات. صاح موكوم. وهو لا يخطأ أبداً.

مع ذلك كان الخوف أن يهرب القرد متسللاً من شجيرة إلى أخرى. غير أنّ موكوم عالجه بطلقه بعد أن سدد عليه بهدوء. تدحرج القرد وقد أصيب في ساقه من غصن إلى آخر. كان يمسك بإحدى يديه السجلات التي استعادها من فرجة بين أغصان الشجرة. عندما وقع نظر نيكولا بالاندر عليه قفز مثل ظبي وانقضى على القرد. بدأ عراك بينهما. ياله من قتال! كان الغضب يثير هياج المحاسب! ونباح القرد يتحد بأنين نيكولا بالاندر. ياله من صياح شاذ في هذا العراك! لم يكن أحد يعلم أيهما كان القرد وأيهما المحاسب! لا يمكن إطلاق النار على القرد خوفاً من إصابة عالم الفلك!

- سددوا، سددوا على الإثنين! كان ماثيوستروكس يصيح وقد خرج عن طوره. يمكن لهذا الروسي المغتاظ أن يفعل ذلك بنفسه لو لم تكن بندقيته قد فرغت.

استمرت المعركة. كان بالاندر طوراً في الأعلى وطوراً في الأسفل يحاول خنق منافسه. كتفاه يدميان بفعل الضربات التي وجهها له القرد ببراثنه. أخيراً! انتهز البشماني لحظة مناسبة، وهوى بفأس كانت بيده على رأس القرد وقتله على الفور.

غاب نيكولا بالاندر عن وعيه. رفعه رفاقه. كانت يده تشد إلى صدره السجلين اللذين حصل عليهما من جديد. حُمل جسد القرد إلى المخيم. وعند وجبة المساء، أكل المدعوون ومعهم رفيقهم المسروق، السارق إن كان لمذاقه الطيب بالفعل ولانتقام منه في آن معاً.

* * *

شلالات الزامبيز

لم تكن جراح نيكولا بالاندر خطيرة أبداً. فرك البشماني الذي كان ماهراً بذلك كتفي الرجل المحترم ببعض الأعشاب إستطاع على إثرها عالِم فلك هلسينغفورس أن يتابع السير. كان النصر الذي أحرزه هو الذي يدعمه. غير أنّ هذه الحماسة سرعان ما تلاشت، وعاد بغير إبطاء ذلك العالِم المستغرق، الذي لا يحيا إلا في عالم الأرقام. بقي معه سجل واحد، اقتضى الأمر إعطاء ووليم إميري من باب الحذر، السجل الأخر الذي يحوي نسخة عن الحسابات كلها. وقام بذلك عن طيب خاطر.

استمرت الأعمال. أنجزت عمليات المساحة على قدم وساق. لم يبق عليهم سوى إيجاد سهل يكون وضعه ملائماً لإعداد القاعدة.

في الأول من أيار، اضطر الأوروبيون لاجتياز مستنقعات واسعة أخرت قليلاً تقدمهم. ثم تلت هذه السهول الرطبة سبخات عديدة كانت مياهها تنشر رائحة نتنة. تعجلّ الكولونيل إفريست ورفاقه مغادرة هذه المنطقة الموبوءة، وذلك بتطويل أضلاع مثلثاتهم.

كانت تجهيزات القافلة الصغيرة ممتازة ويسود جو من الصفاء بينهم. هنأ ميشيل زورن ووليم إميري بعضهما على التفاهم الذي كان يسود كليّة بين رئيسيهما. على ما يبدو أنّ هاذين الرئيسين قد نسيا أنّ شقاقاً دولياً كان يلزم أن يفصل بينهما.

- عزيزي ووليم، قال في أحد الأيام ميشيل زورن لصديقه الشاب. آمل حين عودتنا إلى أوروبا، أن يكون السلام سائداً بين انكلترا وروسيا. بالتالي يحق لنا أن نبقى هناك أصدقاء كما هو حالنا الآن في إفريقيا.

- آمل ذلك مثلك يا عزيزي ميشيل. رد وليم إميري. لا يمكن للحروب الحديثة أن تدوم طويلاً. معركة أو اثنتين ويتم توقيع المعاهدات لقد بدأت هذه الحرب المزعجة منذ ما يقارب العام. وأظن مثلك تماماً أن إحلال السلام سيكون وشيك الوقوع عند عودتنا إلى أوروبا.

- لكن أليس في نيتك يا وليم العودة إلى الكاب؟ لا يطلبك المرصد لتعود بإلحاح، وآمل جداً أن أتشرف بزيارتك لمرصدي في كيو!

- أجل يا صديقي. أجابه وليم إميري، أجل سأصطحبك إلى أوروبا ولن أعود إلى إفريقيا إلا بعد أن أقضي بعض الوقت في روسيا. لكن في أحد الأيام، سترد لي الزيارة في كاب تاون، أليس ذلك صحيحاً؟

ستأتي لترفه عن نفسك وسط مجموعتنا الجميلة من النجوم الخاصة بجنوب إفريقيا. سنرى كم هي غنية قبتنا السماوية، وكم سيكون مقدار فرحك في غرفها، ليس بملء يديك وإنما بملء ناظريك! ما رأيك إذا رغبت أن نشطر معاً نجمة الظُلمان! أعدك ألا أبدأ بذلك بدونك.

- أهذا وعد يا وليم؟

- وعد يا ميشيل. سأحتفظ لكَ بهذه النجمة. وبالمقابل أضاف وليم إميري، سأذهب لحساب في كيو واحدة من نجومكم السديمية.

يالهما من شابين باسيلين! ألا يبدو أنّ السماء مُلكهما! وفي الواقع لمن تعود ملكيتها إذا لم تكن لهاذين العالمين ثاقبي الفكر، اللذين حسبا سعة السماء سابرين أغوارها!

- إنّما قبل كل شيء، استأنف ميشيل زورن. يلزم أن تنتهي هذه الحرب.

- ستنتهي ياميشيل. تستغرق المعارك بضربات المدافع زمناً أقل من الخلافات على قضايا النجوم! سيتم الصلح بين روسيا وإنكلترا قبل أن يتصالح الكولونيل إفريست مع ماثيوستروكس.

- ألا تصدق إذن مصالحتهما الصادقة بعد العديد من المحن التي جاباها سوية؟ سأل ميشيل زورن.

- أنا لا أعتمد على هذا أبداً. رد وليم إميري. فكر أنت في الأمر. إنّها منافسات بين علماء وعلماء ذائعو الصيت.

- فلنكن إذن أقل شهرة ولْنحب بعضنا على الدوام يا عزيزي وليم. أجاب ميشيل زورن.

مرّ أحد عشر يوماً منذ مغامرة القرود، عندما صادفت القافلة الصغيرة بوصولها قرب شلالات الزامبيز، سهلاً ممتداً على مساحة عدة أميال. كانت الأرض ملائمة تماماً لقياس مباشر للقاعدة. كانت ترتفع عند أطرافها قرية تضم فقط عدة أكواخ. يعد سكانها -بضع عشرات من الرجال المحليين على الأكثر - من الأشخاص المسالمين الذين استقبلوا الأوروبيين استقبالاً حافلاً. كان ذلك من حسن حظ قافلة الكولونيل إفريست، إذ بلا

عربات أو خيام وتقريباً بلا لوازم المخيم، سيكون من الصعب عليهم الاستقرار لمدة طويلة. والحال هذه، يمكن لقياس القاعدة أن يستمر على مدى شهر، ولا يمكن قضاء هذا الشهر في الهواء الطلق، حيث تكون أوراق الأشجار ملاذهم الوحيد.

استقرت اللجنة العلمية في الأكواخ التي تتم تكيفها قبل كل شيء لاستعمال السكان الجدد. من جهة ثانية، كان العلماء أشخاصاً يكتفون بالقليل. شيء واحد كان يقض مضاجعهم. التحقق من عملياتهم السابقة التي سوف يتم التحقق منها بقياس مباشر لقاعدة جديدة، هي الضلع الأخير في مثلثهم الأخير. لهذا الضلع فعلاً، من وجهة نظر الحسابات طولاً رياضياً محدداً، وكلما تقارب القياس المباشر من القياس المحسوب اعتبر تحديد خط الهاجرة مثالياً أكثر.

باشر علماء الفلك على الفور القياس المباشر. نُصبت الحوامل والمساطر البلاتينية بالتتابع فوق الأرض الممهدة تماماً. أخذت كافة الإحتياطات الدقيقة التي رافقت قياس القاعدة الأولى. تم الأخذ بعين الإعتبار الشروط الجوية بكاملها، واختلاف درجة الحرارة وأفقية الأجهزة.. الخ. باختصار لم يُهمل شيء في هذه العملية الرفيعة المستوى، ولم يعد العلماء يحيون إلا في هذا الهاجس الوحيد.

لم ينته هذا العمل الذي بدأوا فيه اعتباراً من العاشر من نيسان إلا في الخامس عشر من أيار. لزمت خمسة أسابيع لإنجاز هذه العملية الدقيقة. حسب نيكولا بالاندر ووليم إميري النتائج على الفور.

كان، الحق يقال، قلب أولئك العلماء يخفق بسرعة عندما أعلنت النتيجة. ياله من تعويض عن كل آلامهم ومحنهم، عندما يمكن أن يسمح التدقيق الشامل لحسابات أعمالهم، بأن يوصوا بهذا الأرث الحريز إلى الأجيال القادمة!

عندما حوّل المحاسبون الأطوال التي حصلوا عليها إلى أقواس منسوبة إلى مستوى البحر، وإلى درجة حرارة واحد وستين على ميزان فهرنهايت (١٦,٠٠م) أبرز وليم إميري ونيكولا بالاندر الأرقام التالية لزملائهم: قياس القاعدة الجديدة. ٥٠٧٥,٢٥ قامة.

مع نفس القاعدة والمستنتجة عن القاعدة الأولى وعن شبكة المثلثات كلها ٥٠٧٥,١١ قامة الفرق بين الحساب والرصد ٠,١٤ قامة.

فقط أربعة عشر سنتيماً من القامة. أي أقل من عشر بوصات، وتقع القاعدتان على مسافة ستمئة ميل الواحدة عن الأخرى.

عندما تم الحصول على قياس خط الهاجرة في فرنسا بين دانكرك وبير بنيان، كان الفرق بين قاعدة ميلون وقاعدة بير بنيان إحدى عشرة بوصة. والحال هذه تكون المطابقة التي حصلت عليها اللجنة الإنكليزية الروسية دقيقة أكثر. وبالقيام بهذا العمل، الذي تم في ظروف صعبة، في قلب الصحراء الإفريقية، وسط المحن والأخطار من كافة الأنواع، تكون من أكثر العمليات الجيودوزية التي أنجزت حتى هذا اليوم كمالاً. حيث ثلاث صيحات «هوراه» هذه النتيجة الرائعة التي لم يسبق لها مثيل في تاريخ الأحداث العلمية.

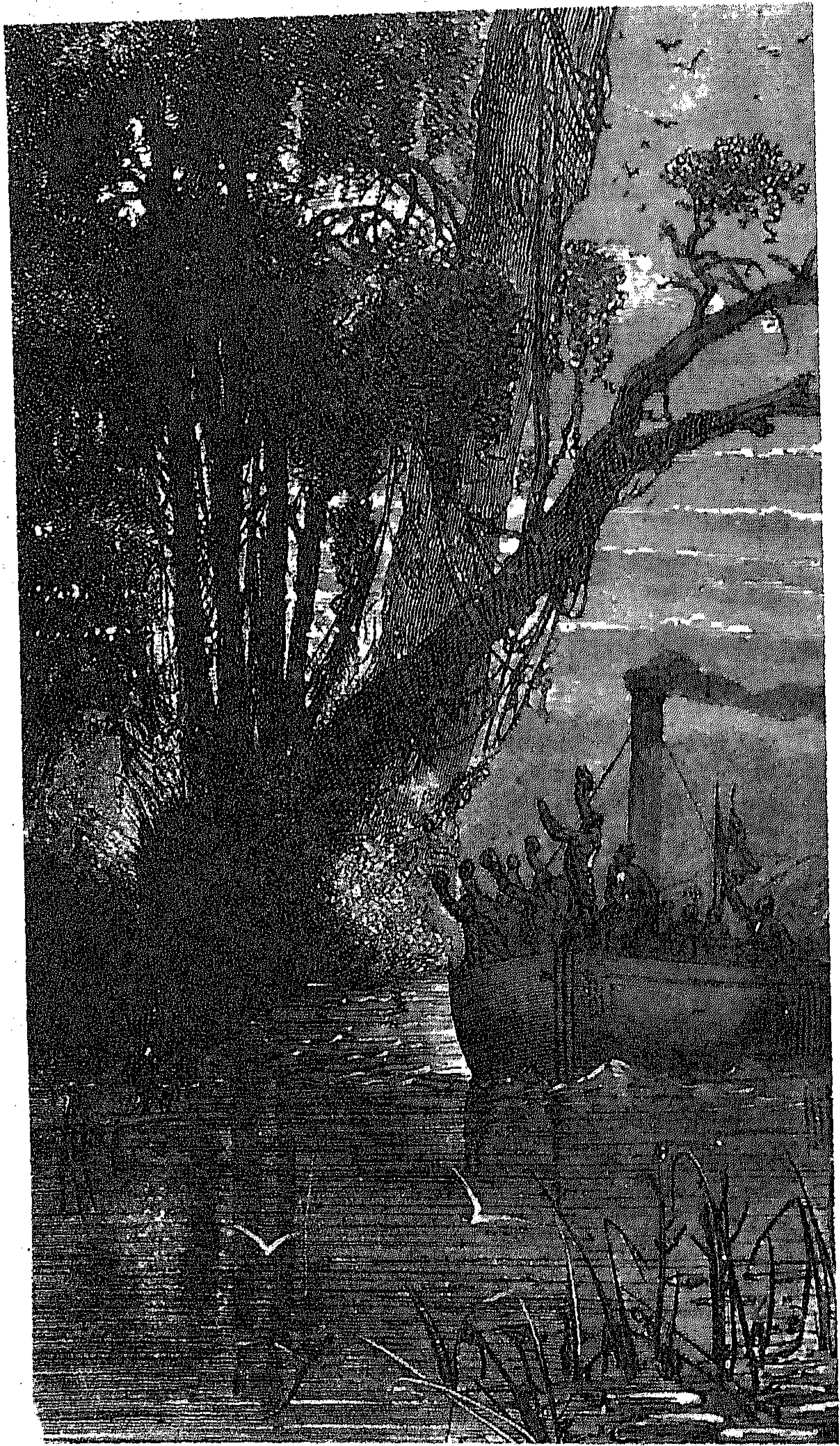
والآن، ما هي قيمة درجة خط الهاجرة في هذا الجزء من شبه الكرة الأرضية؟ تحديداً، حسب تحويلات نيكولا بالاندر، تبلغ سبعاً وخمسين ألفاً وسبع وثلاثين قامة- إنّه يقترب بقامة من الرقم الذي أوجده لاكاي عام ١٧٥٢ عند رأس الرجاء الصالح. بعد قرن من الزمن، تلاقي العالم الفرنسي وأعضاء اللجنة الانكليزية الروسية عند هذه النتيجة التقريبية.

بالنسبة لقيمة المتر، يلزم لاستنتاجه انتظار نتيجة العمليات الواجب إنجازها لاحقاً في نصف الكرة الشمالي. يلزم أن تكون هذه القيمة جزء من العشرة على المليون من ربع خط الهاجرة الأرضي.

وفق الحسابات السابقة، كان هذا الربع، أخذين بالحسبان تسطح الأرض المقدر ب ١/ ٤٩٩,١٥، يعادل عشرة ملايين وثمانمئة وخمسة وستين متراً، مما يدل على أن الحساب الصحيح للمتر هو ٠,٥١٣٠٧٤ من القامة. أو ثلاثة أقدام وأحد عشر سطراً ومئتين وثمان وستين ملمتيراً من السطر. هل هذا الرقم حقيقي؟ هذا ما يجب أن تؤكده الأعمال اللاحقة للجنة الإنكليزية - الروسية.

بناء على ذلك، انتهت عمليات المساحة بشكل كامل. أنجز علماء الفلك عملهم. لم يتبق عليهم سوى بلوغ مصبات الزامبيز، متتبعين، في اتجاه معاكس، الطريق الذي يلزم على الدكتور ليڤينغستون أن يجتازه في رحلته الثانية عام ١٨٥٨ حتى عام ١٨٦٤.

في الخامس والعشرين من أيار، بعد رحلة شاقة نوعاً ما وسط بلد تقطعه الأنهار، وصلوا إلى الشلالات المعروفة جغرافياً تحت اسم شلالات ڤيكتوريا.

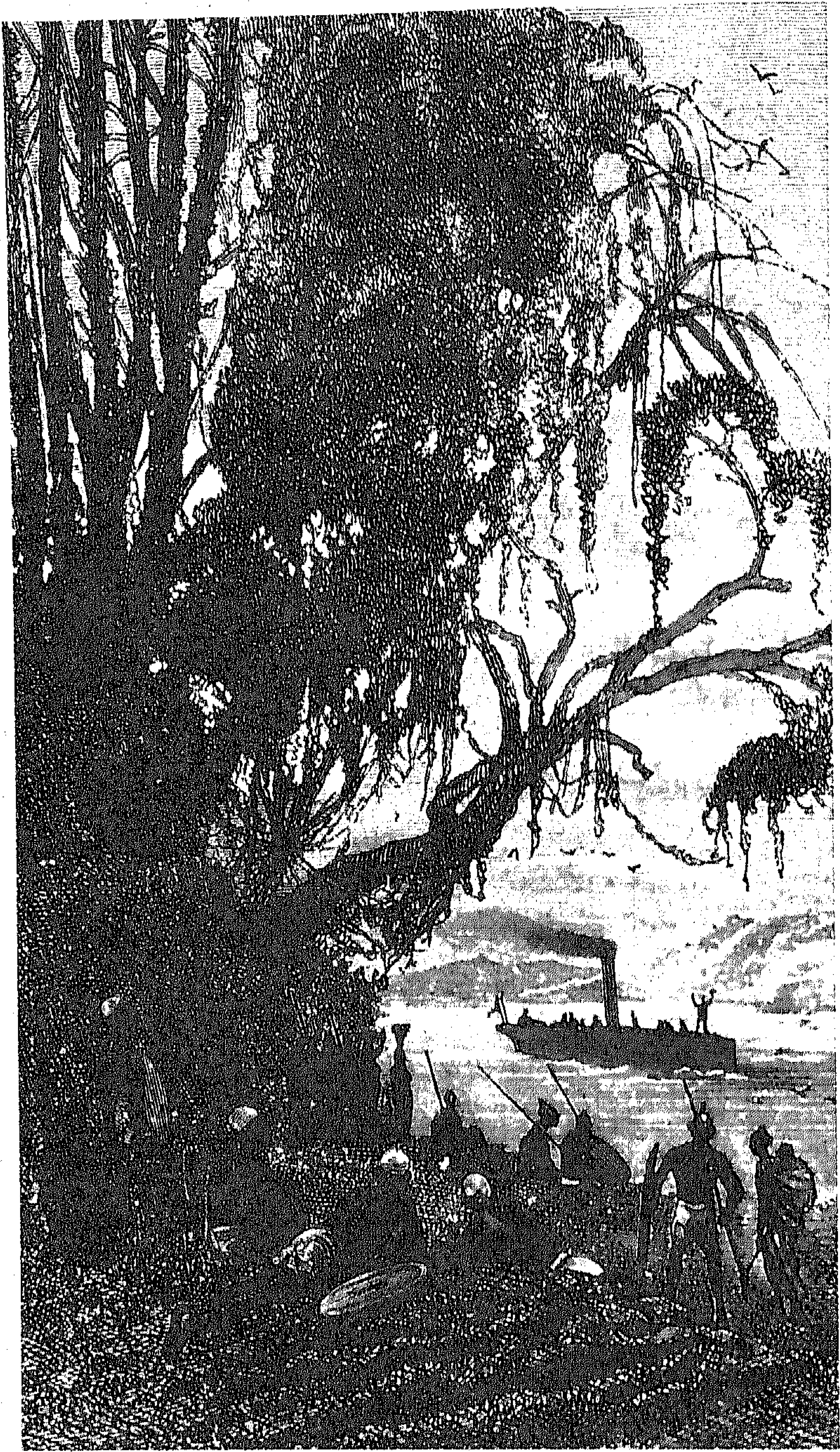


كانت الشلالات الرائعة تبرهن عن دقة تسميتها الأصلية التي تعني «دخان مدوي». هذه المستويات من المياه التي يصل عرضها إلى ميل والمندفعه من ارتفاع يعادل ضعف ارتفاع شلالات نياغارا، كانت تتوجها ثلاثة من أقواس قوس قزح. عبر الشق العميق في الصخر البازلتي، كان السيل الضخم يصدر دوياً يشبه قصف عشرين رعداً في آن معاً.

في سافلة الشلال وعلى صفحة النهر الذي أضحى ساكناً، كان الزورق التجاري الذي وصل منذ خمسة عشر يوماً عبر رافد داخلي لنهر الزامبيز ينتظر المسافرين. جميعهم كانوا هناك، وأخذ كل واحد مكانه على سطح القارب.

بقي رجلان على الضفة، البشماني والفوريلوبه. كان موكوم أكثر من مرشد مُخلص، إنّه صديق تركه الإنكليز، وعلى رأسهم السيد جون في القارة الإفريقية. اقترح السيد جون على البشماني دعوته إلى أوروبا واستقباله هناك الزمن الذي يرغبه للبقاء فيها. غير أنّ موكوم، ملتزماً بوعود لاحقة، كان يتمسك بتنفيذها. في الواقع، عليه أن يرافق الدكتور ليڤنغستون أثناء رحلته الثانية التي سيباشر فيها قريباً هذا الدكتور الجريء على نهر الزامبيز. ولا يريد موكوم أن ينقض وعده.

ظل الصياد إذن وقد كافأة وقبله - هذا ما جعله يشعر بالتقدير أكثر - أولئك الأوروبيين الذين يدينون له بالكثير. ابتعد الزورق عن الضفة، يسحبه التيار إلى وسط النهر، وكانت آخر حركة للسيد جون هي وداع أخير لصديقه البشماني.



كان هبوط النهر الكبير الإفريقي، على هذا الزورق السريع، عبر العديد من الضيع التي كانت منتشرة على ضفافه يتم بيسر وبلا حوداث تذكر. كان السكان المحليون ينظرون إلى هذا الزورق المُدّخِن بإعجاب تشوبه الخرافة، في أنّ يداً خفية كانت تدفعه فوق مياه الزامبيز. غير أنّ أيّة إزعاجات من أيّ نوع لم تصدر عنهم.

في الخامس عشر من حزيران، بعد ستة أشهر من الغياب وصل الكولونيل إفريست ورفاقه إلى كيلميان، واحدة من المدن الرئيسية التي تقع على أحد أهم مصبات النهر.

أول شيء بادر به الأوربيون هو سؤال القنصل الإنكليزي عن أخبار الحرب...

لم تكن الحرب قد وضعت أوزارها بعد، لا تزال سيباستبول تصمد أمام الجيوش الإنكليزية - الفرنسية. آثار هذا الخبر خيبة أمل الأوربيين الذين توحد بينهم المصلحة العلمية نفسها. مع ذلك لم يصدر عنهم أيّة ملاحظات كانت، وتهيؤوا للرحيل.

كان قارب تجاري نمساوي، يدعى نوفارا، يستعد للإبحار إلى قناة السويس. قرر أعضاء اللجنة الركوب على متنه.

في الثامن عشر من حزيران، عند لحظة الإقلاع جمع الكولونيل إفريست زملاءه وبصوت هادىء حدثهم بهذه الكلمات:

- أيّها السادة، منذ ما يقرب الثمانية عشر شهراً، ونحن نحيا معاً. مرت بنا محن عديدة، لكننا أنجزنا عملاً سيلاقي استحسان أوروبا العالِمة. وأضيف إنه يلزم جراء هذه الحياة المشتركة أن تنشأ بيننا صداقه متينَة لا تُفصم عراها أبداً.

هزّ ماثيوستروكس رأسه قليلاً دون أن يرد.

مع ذلك، استأنف الكولونيل القول، للأسف الشديد، تستمر الحرب بين إنكلترا وروسيا، المعركة قائمة أمام سيباستبول، وحتى اللحظة التي ستقع فيها المدينة بين أيدينا...

– لن تقع أبداً. قال ماثيوستزوكس، مع أن فرنسا...

– يا سيدي. قاطعه ببرود الكولونيل. على أيّة حال، وحتى نهاية هذه الحرب، أرى أن نعتبر أنفسنا أعداء من جديد...

– كنت سأقترح عليك الشيء ذاته. رد ببساطة عالم فلك بولكوڤا.

حُدد الموقف بوضوح، وفي هذه الظروف أبحر علماء اللجنة العلمية على متن لانوڤارا.

بعد عدة أيام، وصولا إلى قناة السويس، وفي لحظة الفراق، قال وليم إميري وهو يشد على يد ميشيل:

– أصدقاء دوماً يا ميشيل؟

– أجل يا عزيزي وليم. دائماً ورغماً عن أنف الجميع.

* * *

الفهرس

٢٠٠٠ ط ١/١١/١٩٩٩



الطباعة وفرز الألوان مطابع وزارة الثقافة

دمشـق ١٩٩٩

سعر النسخة داخل القطر

١٥٠ ل.س

في الأقطار العربية ما

٣٠٠ ل.س